

المسالك في الأذكياء

الجزء الثاني

اسباب الآراء الامامية

تأليف

رينكزفت دوزي

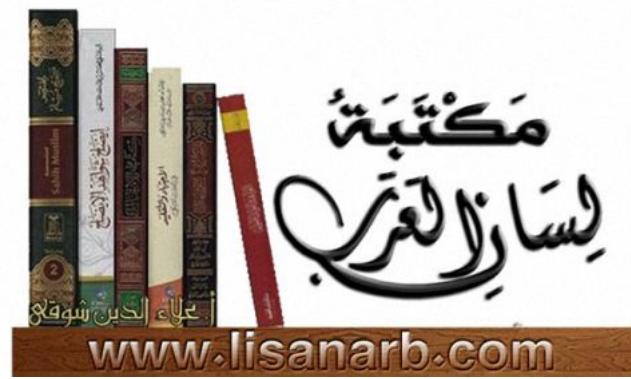
ترجمة وتعليق وتحقيق

د. حسن حبشي



المؤسسة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤



مقدمة الجزء الثاني

هذا هو الجزء الثاني من الترجمة العربية للتاريخ المسلمين في الأندلس لدوزي ، نقدمه شاكرين الله تعالى على ما لقيه سابقه من الاقبال ، راجين أن تتبعه بالثالث الذي يكمل به تاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى دخول المرابطين ، والذي سيتضمن كشافات تعين القارئ على العثور على ما ينشده ، كما ستنزوده بلاحق تاريجية خاصة بهذه الفترة وقوائم بالأماكن والأعلام بالرسمين العربي والأفريقي والمصادر التي رجع المؤلف ورجحنا إليها .

ولقد كانت التفاتة طيبة من القومين على ندوة (*) « الأندلس : الدرس والتاريخ » التي أقامتها كلية آداب جامعة اسكندرية بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية أن تكرم ذكرى « دوزي » بين من كرمتهم من العلماء والباحثين من الشرق والغرب ومن أسهموا في مجال التاريخ الأندلسي

والله الموفق

القاهرة في العشرين من ذى القعدة ١٤١٤ هـ د. حسن جبشي
أول مايو ١٩٩٤ م

(*) أقيمت هذه الندوة بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة الاسكندرية في الفترة من ١٢ حتى ١٥ أبريل ١٩٩٤ (= ٤ من ذى القعدة ١٤١٤ هـ) . وكان مؤلف هذا الكتاب ومترجم من كرمتهم الندوة .

اللهم
سألك
عافية

الفصل الأول

حركات المقاومة بالشرق في القرن الثالث الهجري . ظهور عبد الله بن ميمون ودعووه الباطلة . الطابع السري للحركات في اليمن والمغرب . الفاطميون والأندلس ودعوة ابن همرة . مملكة ليون وحركة « بلاى » التمردية . ثورة أهل جليقية . ادعاء أحمد بن معاوية الأموي الهمدية . تجنيشه البربر لمحاربة الليونيين . مقاومة ذلول بن يعيش له .

الفصل الأول

لقد أبدت الحكومة الإسلامية في الشرق من بجانيها روح التسامع الديني نحو أهل البلاد المسلمين من أتباع الديانات القديمة الذين لم يهددوا قط سلامة الدولة ، الا أنها لم تكن تستطيع أن تتهاون أبداً ازاء المسلمين الذين تظاهروا بالإيمان بينما ظلت قلوبهم غلباً في الرؤى والذين بذلكوا قصارى جهدهم خفية لغير وجهة الاسلام وذلك بتعطيله بعقائدهم الخاصة .

لقد كان الدافع الديني هو الدافع الحقيقي الكامن في نفوس المتظاهرين بالاسلام في فارس وفي اسبانيا أيضًا ، وكان عددهم عظيماً ، والأغلب أن هؤلاء المنافقين كانوا من الرجال المتقلين وأكثر القوم جشعًا في المجتمع . ولما كانت الطبقة العربية المختلفة قد أخذتهم أخذًا عنيناً ألى ثقفهم فقد تاقوا لبعث قوميتهم الفارسية واحياء الامبراطورية الايرانية (١) فلا عجب ان لم تتوان الحكومة في استعمال الشلة الضاربة معهم حتى ان الخليفة المهدى [العباس] عمد في كبح جماحهم الى الشفاء ديوان (٢) عرف بديوان الزندقة ظل قائماً حتى اواخر أيام هرون الرشيد .

ولما كان الضغط يولد الانفجار ، والاضطهاد يؤدي إلى الثورة فقد قام في « آذربيجان » رجل اسمه « بابك » تزعم طائفة « الغرمية » أو « الفسقة » (٣) كما سماهم خصومهم . وانقضت عشرون سنة من ٨١٧ حتى ٨٣٧ م (٢٠٢ - ٢٢٣ هـ) ظل خلالها « ابن حفصون » الفارسي هذا ينزل الهزائم الساحقة بجيوش الخليفة التي كان يبعثها الأخير اليه ، ولم تفلح هذه الكتائب المجنحة في القبض عليه الا بعد أن أدى من رجالها مائتين وخمسين ألفاً (٤) .

يبد أنه كان هناك ما هو أشد خطراً من أخmad الثورات المسلحة وأعني به محاولة كشف الطوائف السرية ، كما انتشرت في الخفاء العقائد الفارسية القديمة والأفكار الفلسفية التي تيزّها خطورة ، وقد أسرف هذا

الصراع بين الديانات والملل المختلفة عن قيام جمهور كبير في الشرق نبذ هذه كله زعما منه أن « الأديان إنما هي للعامة وحدهم » (٥) .

في أحضان هذه الجماعة السرية ، وفي مستهل القرن التاسع للميلاد ، خرج باعث طائفة الاسماعيلية « عبد الله بن ميمون » (٦) الذي كان من أسرة فارسية مانوية العقبة تزعم وجود الهين أحدهما للنور والآخر للظلمة .

كان « عبد الله بن ميمون » هذا ابن قداح ذكي الفؤاد ، وما كان يتتجنب الواقع تحت شبكات ديوان الزندقة الذي راح ضحيته سبعون من أصدقائه فقد لاذ ببيت المقدس حيث أخذ ينشر في الخفاء العلوم والأراء الهدامة. في الوقت الذي كان يظاهر فيه بالطف البالغ على الشيعة ويقاتل في تعظيمها . ولم يقتصر شأنه — تحت توجيه أبيه له — عن أن يكون داعية حاذقا فحسب ولا قداحا بارعا في طب العيون فقط بل أصبح كذلك ذا المام تام بالعقائد الدينية والمبادئ الفلسفية ، فحاول في بداية الأمر أن يحمل الناس على اعتباره نبيا اعتمادا منه على مواهبه ، لكنه فشل في هذه التجربة ، ومن ثم أخذ يمهد الطريق شيئا فشيئا للتدبر مشروع أعظم اتساعا وأجل خطرا (٧) .

وكانت الفكرة المختمرة في ذهن « ابن ميمون » ترمي إلى تأليف جماعة سرية تضم إليها جموع الغائبين والملوكيين على السواء ليعملوا يدا واحدة ، وجعل أصحابها مرتبين على درجات في الاطلاع على أسرارها ، ففيها المفتررون الأحرار الذين لا يرون في الدين إلا غلاما في الأعناق ، وفيها التمسكرون بدياناتهم من جميع الملل ، وكان هدفه من وراء ذلك يتمثل في اتخاذ هؤلاء الأقلياء وسيلة للسيطرة على المتشكّفين واستغلال أولئك الفاتحين في قلب وضع الامبراطورية التي أقاموا دعائمها ، كما استهدف من وراء ذلك أن يؤلف في النهاية من هؤلاء وهؤلاء جماعة واحدة ضخمة تمثل لأمره وتدرين بالطاعة له ، و تستطيع في الوقت الملائم أن تنقل العرش إلى أبنائه من بعده ان لم يكن له هو نفسه في حياته . ولا مشاحة في أن هذه فكرة خطيرة تتطوى على جرأة بالغة وتتطلب همة جبارية وقاداما لا مثيل له ، ودرائية عميقة بما جبلت عليه الطبيعة البشرية .

انطلقت الوسائل التي عمل إليها ابن ميمون على مكر شيطاني ، فهو في ظاهر أمره « اسماعيلي » . وكان الانقضاض مقدرا لهذه الطائفة نظرا ل حاجتها إلى زعيم ينفتح فيها حياة جديدة ، فجاءها ابن ميمون ووعدهما بالزعيم المنتظر وقال (٨) : « لم تكون الدنيا ولن تكون بلا امام ، كائنا من كان هذا الامام . قد كانت الامامة في أبيه وجده وفيمن قبلهما حتى

تنحدر إلى آدم ، كذلك فإن ابن الإمام أمام وحفيله أيضا ، وهكذا حتى ينتهي العالم ، ولا يقبض الإمام حتى يوْمَ له ولد تؤول الإمامة إليه من بعد أبيه ، غير أنه لا يتم ظهور الإمام على الدوام ، فقد يظهر أحيانا ويختفي أخرى وهكذا دوالياً كما يتعاقب الجددان . ومتى كان الإمام ظاهراً استترت دعوه فإن اختفي ظهرت ، وحينذاك يظهر دعاته بين الناس :

وتمكننا لهذه العقيدة في النقوس نرى « عبد الله بن ميمون » يقتبس آيات من القرآن الكريم وساعدته هذه الفكرة على إيقاظ آمال الاسماعيلية الذين أخذوا بفكرة الإمام المخفى ، وافقه سوف يظهر أخيراً فيديبر أمر العالم ويملأه عدلاً . وعلى أيامه حال فان عبد الله هذا كان يحتقر في قراره نفسه هذه الطائفة ، وما كان ظاهره بالدعوة إلى آل على [بن أبي طالب] الأ ومية لتحقيق مآربه . وأذ كان هو فارسياً في صميمه فقد كان يضرم البعض للعرب جميعاً ، غير مستثنٍ منهم أحداً حتى علياً أبناؤه .

لم يخطئ عبد الله بن ميمون فيما ذكر ، ومن ثم أشار على أتباعه الخصن بـألا تأخذهم حسوادة في قتل كل من يقع في أيديهم من أولاد على (٩) .

ولم يحاول أن يستخلص أتباعه الأوفياء من بين رجال الشيعة بل أخذ يقتبس عنهم بين الزرادشتين والماتويين ووثنيي حران وبين عشاق الفلسفة اليونانية (١٠) الذين كان جل اعتماده عليهم ، وأنضى إليهم دون سواهم . بكلمة السر الأخيرة ، وذكر لهم أن ليس الأئمة والديانات والأخلاق غير ادعاء كاذب ووهم باطل ، أما غير هؤلاء الرجال أو « الحمير » - كما كان يسميهم - فلم تكن لهم في رأيه القدرة على استيعاب هذه المبادئ وأمثالها . ومع ذلك فإنه لم ينحرق من شأن هذه الجماعة بغية الوصول إلى هدفه المنشود بل سار على العكس من ذلك إذ ثراه . يجد كل الجد في المصول على مساعدتها وتأييدها له ، إلا أنه أخذ حذره واحتاط فلم يطعن المدعين والأنقياء إلا على المبادئ الأولية للطائفة . أما دعاته الذين وقر في نفوسهم أن واجبهم الأول هو إخفاء أغراضهم الحقيقية والامتثال لما يلقى إليهم امتنالاً تاماً فكانوا قرابة ألف جماعة يختلف بعضهم عن بعض ، وقد أمرهم أن يخاطبوا كل فرد على قدر عقله ، فسيطر هؤلاء على الطغاص والجهلة بما كانوا يلقونه إليهم من خزعبلات ينزلونها من أنفسهم متزلة المعجزات ، أو من معجميات تغير المذهبة والفضول . فإذا كانوا مع الأنقياء طلعوا عليهم بمسوح الورع والتقوى ، وبذلك ليسوا بكل حال لبوسها ، فهم صوفيون مع المتصوفة يفسرون لهم المعانى الخفية للأمور الظاهرة وكذلك الرموز والمعانى الرمزية، مستغلين في ذلك ما ابتلى به

هذا الجيل من النكبات ، موشين لأبنائه الآمال الفضفاضة بمقلم عصر أزهى تنفس فيه الصعداء جميع الطوائف ، ووعدوا المسلمين بقرب ظهور «المهدي» الذي تنبأ به الرسول [عليه الصلوة والسلام] ، ووعدوا اليهود بال المسيح المنتظر ، والنصارى بمعزيهم . ثم وجدوا أنفسهم في حاجة الى معونة العرب من أهل السنة الذين كان من العسير ضمهم الى صفوفهم لكنهم شعروا ب حاجتهم الملحّة اليهم كي يجعلوا لهم ملجاً وملاذا يدرأ عنهم الشبهات ويصد عنهم عادية السلطة الحاكمة ومطاردتها ايامهم ، كما كانوا يريدون استغلال ثرواتهم الضخمة في تحقيق مآربهم ، ومن ثم أخذ هؤلاء الدعاة في اثارة كبراء العرب القومي زاعمين لهم أن جنسهم هو أصل جميع الفضائل الدينية ، وأن الفرس ما خلقوا الا لكي يكونوا عبيدا لهم ، واظهرروا أمامهم بازدرائهم المال ، وأظهروا الرحمة البالغة كسبا لثقتهم التي ما كادوا يحصلون عليها حتى أخذوا يضيقون الخناق عليهم وجعلوهم في موطن النعال ، ثم أخذوا بعد ذلك يلقون الى العرب أن من واجبهم اعانت الطائفة بهبائهم المالية والتنازل عن ممتلكاتهم لها (١١) .

بهذه الوسيلة أصبح كثير من الجماعات المختلفة تعمل معا في عمل لا تعرف مرماه الا شرذمة ضئيلون، وأخذ هذا المشروع في السير قدما الى الأمام لكن في خطى بطيئة ، واذ ذاك أدرك عبد الله أنه لن يأتي له أن يشاهد بنفسه ثمرة عمله فعهد الى ابنه أحمد – الذي خلفه في الزعامة – باقتداء أثره ومتابعة العمل ، واستطاعت الجماعة أن تمضي للأمام في خطى سراع تحت لواء أحمد ومن جاء بعده ، ويرجع الفضل في ذلك على الشخصوص الى انضمام كثير من رجال الشيعة الأخرى اليه ، وكان هذا الفرع – كما قلنا من قبل – يجعل الامامة في أبناء موسى ولد جعفر الصادق ، بيد أنه لما كان الامام الثاني عشر محمد قد اختفى وهو في الثانية عشرة من عمره في سرداد [بسماره] دخله هو وأمه عام ٨٧٩ م (= ٢٦٦ هـ) ، ولما كان أبياه وهم الاثنا عشرية (١٢) – كما يسمون – قد طال انتظارهم رجوعه بلا جدوى فلم يكن من العسير عليهم الانضمام الى صفوف الاسماعيلية الذين أسعدهم الظروف بأن كان يرأسهم زعيم على قيد الحياة وعلى أتم أهبة لاظهار نفسه حينما تؤذن الظروف بذلك .

ولما كان عام ٨٤٤ م (= ٢٧١ هـ) قام أحد دعاة الاسماعيلية واسمه ابن حوشب [وكان من قبل اثنى عشريرا] ودعى جهارا في اليمن فدانت له صنعاه وأوقفت دعاته الى جبل أقاليم البلاد فذهب اثنان منهم ليحرثا – على حد قول الشيعة – أرض كثامة واقليم قسطنطينة ، ولما مات بعث ابن حوشب أحد تلاميذه ويلعنى عبد الله (١٣) .

كان أبو عبد الله [المحتسب] رجلا نشيطا مقداما مالكا لأعنة الفصاحة ، وعلى جانب كبير من الخبر والدهاء مكنه من السيطرة على

عقول البربر ، فكان خير من يقوم بأداء المهمة التي نصبت به على الرغم من أنه لم يكن يعرف إلا المبادئ الأولية للطائفة ، حتى إن دعاته أنفسهم لم يكونوا يدركون في بعض الأحيان الهدف المنشود من هذا العمل (١٤) .

بدأ عبد الله مهمته بتعليم أبناء كتامة محاولاً اكتساب ثقة مضيقية ، حتى إذا وثق من نجاح مشروعه طرح القناع من على وجهه وسمى نفسه بالشيعي ، وبشر بالهدى المنتظر ، ووعد أهل كتامة بخير الدنيا والآخرة إذا هم اشتراكوا في الجهاد ، وسرعان ما أذعنوا في غير عسر له واجتنبهم ذلك الداعية إلى صفه بما كان يلقنه اليهم من كلام خفي المعاني ، كما يسر له مهمته أيضاً الأسلاب التي غنومها ، وكانت كتامة من أكثر القبائل رجالاً وأقواماً يأساً ، واستطاعت المحافظة على استقلالها القديم والروح الحربية التي انطبع عليها أبناؤها ، ومن ثم كان تجاههم يعيش في خطى سراغ إلى الأمام ، حتى انهم بعد استيلائهم على آخر مدينة كانت في حوزة الأمير الأغلبي الذي حكمت أسرته البلاد أكثر من قرن أكرهوه على الفرار من محل إقامته بصورة عجز عنها عن استصحاب أمراته معه ، وحينذاك قام عبد الله فأجلس على العرش سنة ٩٠٩ م (= ٢٩٨ هـ) سعيداً الهدي زعيم الطائفة وهو من نسل عبد الله القداح ، فزعم أنه من ذرية علي وتسمى باسم عبد الله الهدي (١٥) ، ولا أصبح خليفة فانه – وهو واضح دعائم الأسرة الفاطمية – أخذ يعني بنشر مبادئه لهذا المنصب ، ولربما كان يكون أكثر صراحة أمام الناس لو أنه أحرز انتصاره هذا في قطر آخر كفارس مثلاً ، لكنه لما كان يدين بعرشه إلى فئة تصف همجية وليس لها ادراك للمعاني الفلسفية فقد اضطره ذلك إلى الاشتداد على نفسه وعلى أعضاء الطائفة المتقدمين الذين أظهروا التشريق (١٦) . كذلك لم يصرح علانية بمقصد الطائفة الحقيقي إلى أن كان مستهل القرن الحادى عشر المبادى حين ثبتت قوة الفاطميين وأصبحت مدعومة الأساس لا يخشى عليها فأفصح عما كان خافياً وكذلك حين أصبح في مقلورهم – بفضل جيوشهم الجرارة وأموالهم الكثيرة – من السير قدماً غير مكترثين كثيراً بحق الوراثة الشرعى (١٧) .

لم تكن الاسماعيلية في بداية الأمر تفترق عن الطوائف الأخرى إلا بمعصبيها وفظاظتها ، فكان رجالها يجلدون أئمة الدين والفقهاء ويقتلونهم صلباً لتوقيتهم ذكرى الخلفاء الثلاثة الأوائل (١٨) أو لجهلهم الصبغة الشيعية أو لاصدار فتاويهم وفق المذهب المالكي وذاق المسلمون منهم كل وبال ونكال ، وكان أكبر ما يخشاه المتزوج أن يقع عندهم تحت طائلة القصاص بعدهم أيه كافراً إذ يرغموه على مشاهدة زوجته وهي تغتصب في حضرته ويصفع على قفاه ويُصفع في وجهه .

وقد حاول عبد الله بـ والحق يقال – كبح جماح جنبه لكنه لم يبلغ

ما أراده منهم ، أما شبيعته الذين يقال لهم لم يكونوا يريدون رئيساً محبوباً فقد أهوا ذعيهم عن رضا وطيب خاطر بما يتفق وأراء الفرس الذين كانوا يزعمون تجسد الروح الالهي في شخص الحكم ، لكنهم فعلوا ذلك على أن يسمع لهم بممارسة كل ما يريدون ، وهيهات أن يرى من ضريبنا ارتكبه أولئك القساة في البلدان المفتوحة من الغطائين ، فقد حدث في برقة أن قطع قائمهم أوصال بعض مسكنها وجعلها شواء ثم أرغم البعض على أكل هذا اللحم المذهب ، ولما فرغ من ذلك ألقى بهؤلاء الآخرين إلى النار فأوقع في أيدي الأفريقيين المؤساة الذين أخلوا إلى السكون الثامن وتم يكن أهلهم في النجاة يتجاوز القبر حتى لقد كتب أحد معاصرهم (١٩) يقول : « وهذا دليل على هوان الدنيا على الله وصغر قدرها عنده ، إذ مكن فيها لهؤلاء الكفرة الفجور أن يسبوّوا أولياء الله سوء العذاب والمعاد القيمة ، والخاتمة الله » .

* * *

كان اعتزاز الفاطميين بالحاكم العالمي جاعلاً إياهم مصدر خطر على جميع المالك الإسلامية عامة والأندلس خاصة ، ذلك أنهم كانوا يتوقون منه زفير بعيد لأن تكون لهم السيطرة على هذه البقاع الجميلة - الشريعة - . تم أصبح عبيد الله مالكاً لدولة الأغالبة تقرباً قبل تحالفه مع ابن حفصون بيد أنه لم يكن هناك داع لأن يتطرق اليأس إلى قلوب الفاطميين ، إذ جاس مبعوثوهم السريون أرباض شبه بجزيرة إيبيريا في زي تجارة .

ويمكن للمرء أن يكون لنفسه فكرة عن التقارير التي رفعوها إلى ولاة أمرورهم إذا ما قرأ أحدي هذه الرسائل التي دارت بينهم والواردة في رحلة ابن حوقل (٢٠) إذ قال « ومن أعجب ما في هذه المزيرة يقارئها على من هي في يده مع صفر أحلام أهلها وضعفة نقوشهم ونقص عقولهم وبعدهم عن الأساس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال مع علم أمير المؤمنين يمحلها في نفسه ومقدار جباريتها وموضع نعها ولذاتها » .

كان لابد للفاطميين أن يجعلوا أتباعاً كثيرين لهم بين أهل الأندلس لو قدر لهم النجاح في النزول بينهم ، إذ كانت عقيدة المهدى المنتظر مساعدة في إسبانيا كما هو الحال تماماً في بقية العالم الإسلامي ، ولقد حدثت في سنة ٩٥١ م (٢٨٨ هـ) - كما سنتصص فيما بعد - أن قام أمير من البيت الأموي وادعى بأنه المهدى المنتظر ، وطالعنا بپوقة أذاعها الفقيه عبد الملك بن حبيب (٢١) عام ٨٥٣ م (٢٣٩ هـ) ذكرها في كتابه له أنشأه قبل قيام الدولة الفاطمية بعشرين سنة وفيها (٢٢) يزعم أن واحداً من نسل قاطنة الزهراء مستؤول إليه مقاليد الحكم في إسبانيا .

وسيغزو القسطنطينية التي كانت معلوّدة إذ ذاك عاصمة العالم المسيحي ، وأنه سيقتل جميع الذكور في قرطبة وما جاورها من الولايات ويبيع نسائهم وأولادهم حتى يصبح في قدرة المرأة أن يحصل على الغلام بسوط والخوذ الصغيرة بمهماز ، فادن الرعاع - كما جرت العادة في مثل تلك الأحوال - بصحة هذه النبوة ، غير أنه يمكن القول بأنه كان في قدرة الفاطميين أن يجعلوا من يحاربهم من ذوى العقول الناضجة لاسباباً من المفكرين الأحرار ، إذ دخلت الفلسفة اسبانيا في عهد الأمير محمد الخامس حكام بني أمية (٢٣) ، غير أن الناس كانوا يتلقون على حقن للفلاسفة لأن القوم هنا كانوا أكثر تعصباً من سواهم في أميا ، كما أن علماء الدين من أهل الأندلس الذين رحلوا إلى الشرق كانوا يتكلمون في شيء من الحذر الشديد عن تسامع العباسين لاسباباً فيما يتعلق باجتماعات أئمة جميع الأديان والمذاهب حيث يطرحون على بساط البحث في هذه اللقاءات مسائل تتعلق بما وراء الطبيعة ويعالجونها بلا مبالغة ، كما أن المسلمين كانوا يتناولون في هذه الاجتماعات (٢٤) القرآن ، وكان القوم يمقتون الفلسفه ويدعونهم زنادقة يتباهي حرقهم ورجمهم دون ما رحمة بهم أو شفقة (٢٥) ، ومن ثم أكره المفكرون الأحرار على كتم آرائهم ، ولا شك أنهم كرموا هذا الوضع ، واذن أفلأ تدفعهم هذه الحال إلى شد أزر الأسرة التي تتفق مبادؤهم وإياها ؟

ذلك ما يذهب إليهظن !!

والظاهر أن الفاطميين كانوا على علم بهذا الأمر ، ويتبين لنا أنهم حاولوا تكوين ركن لهم في اسبانيا ، فبعثوا لها من أجل هذا السبب بالفيلسوف ابن مسرا (٢٦) ٩٣١ - ٨٨٣ م (= ٣١٩ - ٢٧٠ هـ) .

كان ابن مسراً هذا من أهل قرطبة وكان آخرها يمنصب الوهبة الكون (٢٧) ، وقد تعرّق في دراسة ترجمات بعض كتب يونانية معينة ينسبها العرب إلى أعميبيوكليس ، ولما رمى بالزنقة اضطر إلى مغادرة البلد والطواف بأرجاء الشرق حيث وقف على ميادى الطوائف المختلفة ، والظاهر أنه انضم خفية إلى طائفة الاسماعيلية السريّة ، يحملنا على هذاظن مسلكه في اسبانيا بعد رجوعه إليها إذ بدلاً من أن يجهز بآرائه - كما كان يفعل أيام شبابه - أخذ في كثمانها وأظهر الكثير من الورع والتشفيف ، وتحسب أن زعماء هذه الطائفة السريّة ألقوا إليه أن تضليله الناس وخداعه أيامهم لا يتأتى إلا بطلوّعه عليهم في مسوح أهل السنة والتقوى فتمكن بفضل هذا القناع الذي ليسه وبفضل أسلوبه المتبّع من اجتناب العامة إلى جانبها ، واحتلّت لسماع دروسه حشد كثيف من الطلاب الذين أخذ يهتمّ بهم شيئاً فشيئاً من اليقين إلى الشك ومن الشك إلى الجحود والكفر ، غير

أنه لم يوفق في خديعة الفقهاء الذين كانوا يسيرون بهم نفوسهم فتوجسوا خيفة منه ، وأجروا التiran لحرق كتبه وليس لحرقه هو اذ لم يكن عبد الرحمن الثالث [الناصر] يسمى بذلك .

وعلى أية حال فسواء أكان ابن مسرة هذا جاسوسا اسماعيليا أم لم يكن (لعدم وجود بينة قاطعة في هذا الصدد) الا أن الواقع هو أن الفاطميين لم يدعوا وسيلة ما لا يجاد شيعة لهم في إسبانيا الا واتبعوها ونجحوا في هذا السبيل الى حد ما (٢٨) ، ولا مشاحة في أن سلطان الفاطميين كان خيرا للمفكرين الاحرار وان كان كارثة كبيرة للجمهوร لا سيما المسيحيين ، ولقد وردت في كلام ابن حوقل عبارة حوشية تتصحّع عما كان يتوقعه النصارى على أيدي الكتاميين المتعصبين ، وذلك بعد أن ذكر أن المسيحيين الذين لقيتهم يربون على عدة آلاف في القرى كثيرا ما يقيمون العقبات في طريق الحكومة بما يثيرونه من القلاقل والفتن ، فاقتراح ابن حوقل وسيلة فعالة سريعة حتى لا يعاودوا الكرة بعد ذلك أبداً إلا وهي قتلهم جميعا على يدك أبيهم (٢٩) .

كان هذا العمل - في نظر ابن حوقل - عملاً لا غبار عليه ، غير أن الصعوبة الوحيدة فيه هي أن القتل يتطلب أمداً غير قصير ، ومن ثم تركت المسألة للزمن ، وكان من الواضح للعيان أن أهل كتامة كانوا لا يريدون تحقيق نبوة عبد الملك بن حبيب تحقيقا حرفايا .

* * *

كان هذا هو الخطر الذي يهدى إسبانيا العربية من ناحية الجنوب ، أما الخطر الذي يهدىها من الشمال فكان مصدره مملكة ليون التي أخذت في التضخم يوما بعد يوم ، وأصبح خطرها أجل وأدهى .

وليس هناك من أصل أتفه من أصل مملكة ليون هذه فني القرن الثامن للميلاد كانت لا تزيد عن كورة يدين أهلها بالطاعة للمسلمين ، وحدث أن هرب ثلاثة رجال من سكانها تحت قيادة الزعيم « بلاي » واعتصموا بالجبال الشاهقة الواقع شرقى « أشتووريش » وأقاموا في كهف صغير يسمى « كوفادانيا » يقوم على بعد شاهق اذ يصعد المرء اليه تسعن خطوة ، وهو منحوت في صخرة هائلة ويطل على واد سحيق يشقه أخدود تجتمع فيه السيول وتقوم على جانبيه سلسلتان من الصخور شديدة التآhan قل أن يتمكن الفارس من المرور بينهما الا يشق النفس (٣٠) ، ومن ثم لم يكن من العسير على ثلاثة ضئيلة من الشجعان دفع عادية الغير مهما شأهم عدداً وعدة ، وهذا ما فعله الاشتوريون وان أكثرهم يوحا ، ومرت على بلاي لحظات تلقت فيها حوله فلم يجد غير أربعين شخصاً منهم

عشر نساء وليس لديهم جمعياً ما يقتاتون به سوى العسل الذي يشتاره النحل ويضعه في شقوق الصخور ، لذلك تركتهم المسلمين وشأنهم قائلين : « ثلاثة عشر ما عسى أن يجيء منهم » .

ورأى المسلمون ان ليس يجد لهم نفماً أن يتعقبوا هذه الفالة في ذلك الودي الخطير الذي لاقى فيه كثير من الابطال حتفهم دون أي عمل مجيد قاموا به (٣١) ، وكان اهمال المسلمين هذا مساعدًا لبلاي على تقوية عصايبه فانضم اليه وهبط كبير من الهاربين أخذ يشن بهم الغارات على الأرض الإسلامية ، وتواتت هذه الهجمات (٣٢) .

واراد «منلوسة» (٣٣) البربرى - وكان اذ ذاك المتنفذ على الأشتوريين أن يضم هذا لهذا التحرير قنبلة لمحاربة بلاي أحد قواده واسمه علامة ، غير أن حملة علامة هذه باعت بأعظم خسران ولقى جنوده أشنع هزيمة ، وكان علامة نفسه بين القتلى ، فشيد نجاح عصبة بلاي من أزر الأشتوريين فرفعوا راية العصبيان .

أما منوسة الذي لم يكن لديه الجندي الكافى لاخماد هذه الثورة والذى خشي أن يقطع عليه خط الرجعة فقد غادر جيجون - محل اقامته - وشخص الى ليون ، لكنه لم يكدر يقطع سبع مراحل حتى داهمه التوم وهاجمه وأصيب بخسارة فادحة ، فلما بلغ ليون دفع اليأس والخوف جميع جنده لرفض العودة الى هذه الجبال التي تعيد لهم ذكرى خسائرهم (٣٤) :

سرعان ما ازدادت قوة الأشتوريين بعد أن تخلصوا من نير السلطان الأجنبي ، وكانت تتاخمهم من الشرق امارة « كنتمونيا » التي لم تخضع أبداً للمسلمين ، وتكاثرت قوات المسيحيين حين ارتفق عرش أشتوريش الفونس الذى كان قد تزوج قبل ذلك بابنته بلاي ، ومنذ ذلك الحين تكاففت الجميع - بطبيعة الحال - على ضد المغير ورده الى الجنوب ، وواتتهم الظروف اذ ذاك حين اعتنق البربر مذهب الموارج ، وكانت غالبية مسلمي الجنوب من هؤلاء البربر الذين ثاروا ضد العرب وأخرجوهم من البلاد لكنهم لقوا الهزيمة حين تابعوا سيرهم شطر الجنوب وقتلوا كافئهم الوحش الضاربة ، وعلى الرغم من أنهم لاقوا منيتهم بظوا السيف الا أن المجاعة المروعة التي بدأت عام ٧٥٠ م (= ١٣١ - ١٣٦ هـ) وأصابت اسبانيا لمدة خمس سنوات مقاتلة كانت أقوى عامل فى اخضاع البربر (٣٥) ، فأحجم أكثرهم العزم على مقاومة اسبانيا واللحوق بابناء عشيرتهم النازلين بافريقيا (٣٦) .

اهتبيل أهل جليقية فرصة هذه الهجرة وقاموا جميعاً قومه رجل واحد

عتمردين على المغير الذي احتل بلادهم قبل عام ٧٥١ م (= ١٣٢ هـ) وملكوا عليهم الفونس واستطاعوا بفضل معاونته ايام الفتاك بعدد كبير من أعدائهم وارغام الباقين على الانسحاب إلى أشتوقة .

واستمر البربر يتقدمو شطر الجنوب ٧٥٤ - ٧٥٣ (٣٧) عامي وفأخلوا براجة وبورتو وبازو وتخلص هذا القسم بأكمله - حتى متبع نهر دويرة - من نير العبودية ، ولما كان العرب قد أخذوا في الارتداد على طول الخط ولم يستطيعوا المكث في أشتوقة أو ليون أو سمورة أو لديما أو شملنقة فقد مضوا إلى قوريه وماردة .

أما في الجانب الشرقي فقد غادروا صلدانية وسيمناس وسيجوفيا وأفيلا ووخشمة وميرندة ، وتقع كلها على نهر الأبرو ، كما غادروا شيشريو والزانكو وهما في ولاية رية ، ومنذ ذلك الحين أخذت العاكل الإسلامية التامة في التحول من الغرب إلى الشرق حيث كويتبور على نهر موتيجو ، وحيث مدينة طبيرة وطليطلة على نهر تاجة ووادي الحجارة وتطيلة ووبيلونة .

ومنذ سنة ٧٧٠ م (= ١٣٢ هـ) تعاونت المروء الأهلية والمجاعة العظمى على تحرير جزء كبير من إسبانيا من الحكم الإسلامي الذي لم يتم أكثر من أربعين سنة ، غير أن الفونسو انتفع ببعض الشيء من القوائد التي تهيأت له فراج يذرع البقاع التي غادرها المسلمون وحكم السيف في رقاب هن وجلدهم بها ، وكانت بلا شك ثلة قليلة ، غير أن أمله في امتلاك هذه البلاد تبدىء هباء لقلة من لديه من العبيد اللازمين لخلافة الأرض في إقليم خسيع كهذا الإقليم ولقلة توافر المال في يديه مما يلزمته لترميم تلك القلاع والمحصون التي صمد المسلمون إلى هدمها أو تخريبها قبل رحيلهم ، ومن ثم استتصبح معه مواطنها حين آب إلى مملكته ولم يستطع أن يحتل سوى للأقاليم المتاخمة لممتلكاته الأولى وهي إقليم « لبيانا » (أي الجزء الجنوبي الشرقي من مقاطعة سانت أنطون) وقشتالة القديمة التي سميت فيها بعد بردولة وشاطئ جليقية (٣٨) وربما مدينة ليون أيضا (٣٩) .

أما يقية الأقاليم فلم يكن منذ زمن بعيد غير صحراء قفر تعتبر (٤٠) حدا فاصلا بين ثقاري و المسلمين الجنوب (٤١) .

الا أن خلقاء الفونس الأول أتوا ما عجز سلفهم عن ادراكه ، ذلك أنهم في حروفهم ضد العرب دأبوا على اتخاذ مدينة ليون مركزا لهم وراحوا يعملون شيئا فشيئا على إعادة بناء أهم المدن والقلاع ، فلما كان النصف

الثاني من القرن التاسع للهجرة - حين كان أهل الجنوب كلهم على وجه التقرير متمردين على السلطان - أخذ المسيحيون يمدون حدود أقليمهم حتى بلغوا نهر دويرة حيث شيدوا أربعة حصون قوية هي : سمورة ، وشمنقة وشنت اشتيبن دى جرمان وخشمة ، وهناله القلاع هي الحد الفاصل بينهم وبين المسلمين ، وهو حد ليس من اليسير اختراقه .

أما الأقليم الواسع الفقير الجدب (المتد من نهر دورو إلى وادي يانة) فقد بقي مستقلًا غير تابع لأحد من العرب أو أهل ليون ، لكنه كان ميدان تنافس بينهما (٤٢) .

وأما من الناحية الغربية فقد كان الآخرون أكثر احتكاكاً بأعدائهم الطبيعين ، والسبب في ذلك أن حدوthem في تلك المنطقة كانت تمتد إلى ما وراء « مندجو » (٤٣) إلا أنه طالما اجتازت هذه الحدود ، كما استفاد الليونيون أيضاً من ضعف السلطان فأرسلوا بعض الحملات العبرية التي هطلت تتبع سيرها حتى جاوزت نهرى تاجه والوادى اليانع (٤٤) ، وكان معظم القبائل النازلة بين هذين النهرين من البربر ، ولم تكن قادرة على المقاومة لانصرافها بطبيعة الحال إلى ما كان بينها من حروب (٤٥) ، ومن ثم فقد أكرهوا على الخضوع للمسيحيين ابقاء على نفوسهم من الدماء .

لكن يبدو أنه قد حانت للMuslimين أخيراً فرصة الانتقام ، ذلك أنه في سنة ٩٠١ م [= ٢٨٩ هـ] قام أمير من البيت الأموي واسمـه أحمد بن معاوية ، وكان منكباً على دراسة الكيمياء والسعـر كما كان ظاعناً في العرش - وأعلن بين البربر أنه المهدى المنتظر وحتم عليهم الانضمام إلى صفوفه ليـسـيرـ بهـمـ جميعـاـ ضدـ « سمورـةـ » وهـىـ المـدـيـنـةـ التـىـ أـعـادـ الفـونـسـ الثـالـثـ بنـاءـهاـ بـمـعـاـونـةـ حـلـفـائـهـ مـسـيـحـيـ طـلـيـطـلـةـ سنـةـ ٨٩٣ـ مـ [= ٢٨٠ـ هـ]ـ والتـىـ أـضـحـتـ تـبـرـ الخـوفـ فـيـ نـفـوسـ الـبـرـبـرـ كـمـاـ كـانـواـ يـضـعـونـ فـيـهاـ غـنـائـمـهـ آـمـنـينـ عـلـيـهـاـ لـوـقـعـهـاـ خـلـفـ خـنـادـقـ تـحـميـلـهاـ كـمـاـ تـقـومـ أـمـاـهـاـ سـبـعـةـ أـسـوارـ (٤٦) .

ولقد تكللت دعوة أحمد بن معاوية البربر لحمل السلاح بنجاح عظيم، ولما كانوا سنجما سريعاً التأثير والتصديق لما يلقى إليهم ويتوهون للثار لأنفسهم فقد التفت جماعات كثيرة منهم حول أمير زعموه ياتي بالمعجزات ويؤديه الباقيون ، وأمنوا بما أكدته لهم من أن أسوار جميع المدن سوف تندك دكاً عند اقترابهم منها ، وما انقضت بضع شهور حتى كان هذا الداعي قد جمع حوله جيشاً يبلغ ستين ألف رجل سار بهم شطر نهر دورو ، فلما اقترب من سمورة بعث إلى الملك الفونس الثالث - وكان مقيناً بها - برسالة عنيفة يحذره فيها من وخامة العاقبة إن لم يبادر هو ورعيته إلى

اعتناق الاسلام ، فلما وقف الغونس على مضمون الخطاب تميز غيظاً هو وكبار رجال حاشيته ، وتملكهم الغضب وأقسموا لينتقمون من كاتب هذه الرسالة ، وأن يكون انتقامهم عنيفاً منه ، ودلفوا إلى جيادهم فامتطوها لهاجته ، وخف فرسان البربر لفهم ، وما كانت مياه « دورو » ضخمة (اذ كان الوقت صيفاً والشهر شهر يوليو) فقد شبت المعركة في مجرى النهر ولم تجد السيف أهل ليون نفعاً فقد أنزل البربر بهم الهزيمة وحالوا بينهم وبين العودة إلى المدينة ودفعوهم لمامهم إلى داخل الإقليم .

* * *

ان النهاية التي انتهت إليها الحملة لم تكن تبعث على التفاؤل بما سوف يحدث بعد المعركة الأولى .

أجل ، لقد استطاع المهدى المزعوم أن يكون له السلطان المطلق على جنوده ، وكان يعتقد أن اصداره الأوامر باللسان حظر من مكانته ، فكانت أوامره اشارات ، يليبيها الجميع ويطيعونها طاعة عمياء ، غير أنه كان كلما قوى نفوذه على البسطاء من جنده كلما تأجلت الغيرة منه في نفوس القادة الذين أدركوا أنه لو تحقق نجاح الحملة لأدى ذلك إلى تقلب نفوذ المتبين: المزعوم الذي لا يؤمنون بدعواه ، ومن ثم فقد أخذوا يتحينون الفرصة لكي يقتلوه ولكنها كانت فرصة لم تتحقق لهم .

إلا أنه حدث في أثناء مطاردتهم العدو أن قام أقوى الرجال فيهم وهو « ذلل بن يعيش » شيخ قبيلة نفوسه وأخبر أصدقائه أنهم ارتكبوا جرماً فظيعاً بمقاتلتهم أهل ليون ، وأن الرجوع إلى الحق واجب ، ولم يصادف صعوبة في حملهم على مشاركته شعوره ، فعقد الجميع الخناصر على افساد تداعير « المهدى » وارتدوا ، فلما بلغوا مركز الطليعة على الشاطئ، الأيمن لنهر دويره جمعوا مزاعمهم زاعمين أن الهزيمة حاقت بهم وأن العدو في آثارهم ، ووجلت مزاعمهم من صدقها لا سيما أنه لم يكن معهم غير قلة قليلة من الجيش ، أما البقية فيظهر أنها أبى طاعتكم أو أنها لم تكن تعلم بمقصدهم .

اشتد الفزع بنفوس البربر الذين راموا النجاة في الهرب السريع ، وبادر عدد جم من الجندي بالانطلاق شطر نهر دورو ، فلما أبصرتهم حامية سحورة خرجت إليهم وعملت فيهم مقتلة عظيمة في اللحظة التي كانوا خلالها يحاولون عبور النهر ، الا أن غالبية الجيش المسلم الذي كان لا يزال مرابطاً على الشاطئ الأيسر للنهر حاصرت أهل ليون ، ولم تكن حالهم في اليوم التالي بالحال التي تمكنتهم من امكانية الوصول إلى نصر حاسم ، غير أن تسسل الجند من جيش المهدى كان يزداد شيئاً فشيئاً مما كان عاملاً على

تقوية خصومهم ، وأخذ المهدى يعده جنوده بالنصر فيما صدقه أحد ، فلما كان اليوم الثالث دخله اليأس اذ أصبح في شرذمة ضئيلة من عسكره ، ولما كان يأنف من الحياة في ظل العار فقد ضرب خاصرة جوارده بمهازنه ورمى بنفسه وسط كتائب عدوه فلقى المنية التي ودعا ، ورفعوا رأسه على باب سورة (٤٧) .

أدت هذه المعركة بطبيعة الحال الى ارتقاء معنويات أهل ليون الذين كانوا يمولون على معونة أهل تطليقة لهم لا سيما معونة شانجيه الكبير ملك نافارة الذى جعل لاقليمه أهمية لم تكن له من قبل ، لذلك أخذوا يتطلعون الى اسبانيا الاسلامية تطليقهم الى غنية ينبغي الا تفلت من أيديهم ، كما وجهوا أبصارهم شطر الجنوب ، لكن شدة املاقهم و حاجتهم القصوى للمال دفعتهم لامقاوضة (٤٨) وأنهتهم قساوستهم (الذين كانوا موقرين لديهم توفيرا جما والذين غموهم بعطائهم) أن حربهم إكفار أضمن وسيلة لبلوغهم الجنة ، فمضوا يذرعون رحاب الأندلس الغربية ، وطمعوا في خير الدنيا والآخرة ، فهل آنقت الأندلس من سلطتهم ؟

لو أنها فشلت لحق العذاب الأليم بال المسلمين ، ولما كان أهل ليون قد بلغوا الغاية القصوى في التنصيب والقصوة فلم يكونوا يبقون على قيد الحياة أحدا ما يقع في أيديهم ، وكانوا اذا استولوا على بلد حكموا بالسيف بطبيعة الحال في رقاب سكانه جميعا ، هذا في الوقت الذي لم يكن هناك من مثيل للتسامح الذي يبيده المسلمين تجاه النصارى .

لكن ما الذى كانت تؤول اليه الحضارة العربية الزاهية التي آنقت تخطو قدما في معارك التقدم تحت حكم هؤلاء البربر الأميين الذين كان اذا أعزهم الرجال لمسح الأرض عمدوا الى استخدام هؤلاء الشرقيين ، والذين كانوا اذا تكلموا عن المكتبة قصلوا بها الكتب الدينية ؟

و geli أن المهمة التي كان على عبد الرحمن الناصر الاضطلاع بها في مستهل حكمه كانت مهمة عظيمة رائعة تتضمن تخليص وطنه بل والحضارة ذاتها ، فكانت مسؤوليته جسمية شاقة ، وكان عليه اخضاع رعيته وصد بربر الشمال الذين كانت سفاهتهم تزداد كلما أخذت الدولة الاسلامية في الضعف ، كذلك كان يتحتم عليه الضرب على أيدي بربر الجنوب الذين استولوا على دولة شاسعة متراوحة الاطراف وراحوا يفكرون في وجوب الزحف على الأندلس وأدرك عبد الرحمن المهمة المنوط به . ولقد رأينا آنفا كيف استطاع السيطرة على مملكته وتهدئه الأمور بها (٤٩) .

وسنرى في الفصول التالية كيف استطاع الوقوف في وجه أعدائه الذين كانوا خارج البلد .

الفصل الثاني

أردونيو الثاني ضد الناصر . حملة ابن أبي عبلة .
بطولته ومقتله . الناصر ضد الفاطميين سرا . أمير ناكور
يناهضهم . مقتل الأمير . الناصر يرحب بابناء صاحب تkor
وانتصار احدهم على الفاطميين . تحالف أردونيو وملك نفارة
لزعاج الناصر . حملة الحاجب بدر وانتصاره على نصارى
ليون . الناصر يستولى على وخشمة . محمد بن لب يدمر
حصن قلقرة . تحالف شانجة وأردونيو ضد المسلمين . معركة
بانبلونة وموت أردونيو . التزاع بين ملوك النصارى .
تحالف بعض القوى الإسلامية ضد الناصر وانتصاره .

الفصل الثاني

المواجهة بين الناصر

ومراكز القوى المسيحية

وَجَدْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ النَّاصِرَ نَفْسَهُ - فِي مُسْتَهْلِكِ حُكْمِهِ - مُضِطْرًا إِلَى مُنَاضِلَةِ أَهْلِ لَيْوَنَ مُنَاضِلَةً لَمْ يَكُنْ يَفْكُرُ فِيهَا ، فَقَدْ حَدَثَ فِي سَنَةِ ٩١٤ م (= ٣٠٢ هـ) أَنْ شَرَعَ مُلَكُّهُمُ الْقَوِيُّ « أَرْدُونِيُّو » الثَّانِي فِي مُجَاهَرَتِهِ بِالْعَدَاءِ بِأَغْرِاقِهِ الْقَلِيلِ مَارِدَةً فِي بَحْرِ مِنَ النَّارِ وَالدَّمِ ، وَبِاسْتِيلَائِهِ عَلَى قَلْعَةِ « الْحَنْشَنَ » (١) وَاجْهَازَهُ بِالسَّيْفِ عَلَى چَمِيعِ الْمَدَافِعِينَ عَنْهَا وَسَبِيلِ النَّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ مَا تَبَرَّزَ فِي نُفُوسِ سَكَانِ بَطْلِيمِوسِ وَخَافُوا أَنْ يَكُونَ مَالَمَمْ مَالَ جِيرَانِهِمْ ، فَذَهَبُوا بِرِيَاسَتِهِ إِلَى الْمَلْكِ الْمُسِيَّحِيِّ مُلْتَمِسِينَ مِنْهُ أَنْ يَقْبِلَ كُلَّ مَا حَمَلُوهُ إِلَيْهِ مِنْ غَالِيِّ الْمَتَاعِ ، فَتَقْبِلَ أَرْدُونِيُّو ذَلِكَ مَسْرُورًا ، ثُمَّ عَبَرَ نَهْرِيِّ دُورُو وَتَابِعَهُ مُنْتَصِرًا مَحْمَلاً بِالْقَنَائِمِ ، وَفِي طَرِيقِ عُودَتِهِ إِلَى لَيْوَنَ أَظْهَرَ شَكْرَهُ لِلْعَذَّرَاءِ بِاِقْتَامَةِ كَنِيسَةٍ لَهَا (٢) .

وَلَا كَانَ سَكَانُ الْأَقْبَالِيَّمُ التَّىْ غَرَّاهَا أَرْدُونِيُّو لَمْ يَدِينُوهُ لَهُ بِالطَّاعَةِ بَعْدَ فَقْدِ كَانِ فِي اسْتِطَاعَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ - لَوْ شَاءَ - أَنْ يَفْضِلَ الطَّرفَ عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ لَوْلَا أَنْ ذَلِكَ الْعَمَلُ لَمْ يَكُنْ يَتَقَوَّلَ وَجْهَهُ نَظَرَهُ ، وَلَا كَانَ يَلْمُعُ جَيْدًا أَنَّهُ يَتَبَغَّى عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَمِيلَ إِلَيْهِ أَفْئَدَةَ رَعْيَتِهِ التَّائِرَةَ بِأَنْ يَظْهُرَ لَهُمْ دَائِمًا بِمَظَاهِرِ الْذَّائِنِ عَنْهُمْ ، اَرْتَاعَى لِأَحْوَالِهِمْ فَقَدْ آتَى عَلَى نَفْسِهِ إِلَى الْقَصَاصِ مِنْ مَلِكِ لَيْوَنَ ، وَمِنْ ثُمَّ جَيَشَاهُ إِلَيْهِ فِي يُولِيُّو ٩١٦ م (= مَحْرُم٢٠٤ هـ) وَأَغْزَى أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي عَبْدَةَ قَائِدَ عَمَّهُ الْعَبْرُوزَ ، وَمَا كَانَ هَذِهِ الْحَمْلَةُ التَّىْ هِيَ أُولَى حَمْلَةٍ بَعْدَ خَمْسَةِ عَشَرَةَ سَنَةً مِنْ مَحَاوِلَةِ الْمَهْدِيِّ الْمُزَعُومِ سَوْيَ غَزوَهُ لِلْسَّلَبِ وَقَدْ غَنَمَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ غَنَائمَ عَظِيمَةً (٣) .

فَلِمَّا كَانَتِ السَّنَةُ التَّالِيَّةُ تَشَكَّى سَكَانُ الْحَدُودِ مِنْ عَيْثِ الْلَّيْوَنِيَّينِ فِي أَرْضِهِمْ وَاحْرَاقِهِمْ أَرْبَاضُ طَلْبِيرَةِ الْوَاقِعَةِ عَلَى نَهْرِ التَّاجَةِ وَحَرَضُوا عَبْدَ الرَّحْمَنِ الَّذِي أَصْدَرَ أَمْرَهُ إِلَى أَبْنِ أَبِي عَبْدَةَ بِثَلَثِ حَمْلَةٍ أُخْرَى وَالْأَغْارِيَةِ وَمَحَاصرَةِ حَصَنِهِمُ الْقَوِيُّ « شَنْتَ اشْتِيَّبِنْ دِي جَرْمَانَ » وَالَّذِي يَسْمُى أَيْضًا

باسم « قاشتر مورش » (٤) ، وكان جيشه كثيفاً فيه جماعة من المرتزقة الأفريقيين الذي استقدمهم عبد الرحمن من طنجة .

وقد استهل الجيش حركته بما يشير بالفوز فضيق الخناق على حامية شنت بستين دى جرمان التي كانت على وشك التسلیم لولا أن أقبل أردنبيو لنجدتها فهاجم ابن أبي عبدة الذي شاء سوء طالعه إلا يكون جميع جنده من طنجة وحدها لوجود طائفة كبيرة بينهم من سكان الحدود الذين لم يكن في استطاعته أحد ما الثقة بوفائهم أو الاعتماد على حماستهم بل كانوا نصف متبربرين ونصف أسبان فلم يكادوا يتصرون ما يفعله الليونيون من التدمير والتخريب حتى استصرخوا بالسلطان ولم يحصلوا في وجه عدوهم مما أتاح له الفرصة للظهور عليهم ، كما أنهما في أثناء عودتهم كانوا أكبر العاملين على بث الفوضى الشاملة في صفوف الجيش كله ، ولا رأى ابن أبي عبدة الشجاع أن الهزيمة أمر لا مناص منه أظهر الصبر وأثر أن يلقى حتفه في المهمة التي نصبه وكره السلامة يوفرها له الفرار ، ووقف إلى جانبه كثير من جنوده الذين رأوا رأيه فاستشهدوا عن آخرهم بسيوف النصارى .

ويذكر المؤرخون العرب أن قسماً كبيراً من بقية الجيش أفلح في الانضم البعض ونجحوا في الوصول - على أكمل نظام - إلى المنطقة الإسلامية ، لكن المؤرخين المسيحيين يذكرون خلاف ذلك فيزعمون أن انتصار المسلمين كان انكساراً كلياً حتى لقد غطت جثث القتلى الهضاب والغابات والحقول الممتدة ما بين دوير و - وأنتيزا وجرو على أديمها كله الدم المطلول (٥) .

لم يجد اليأس سبيلاً إلى قلب عبد الرحمن إذ سرعان ما أخذ أهبيته لمحو آثار هذه النكبة غير أن مشاكل أفريقية استرعت انتباذه بينما كان يهد المدنة لإنفاذ حملة جديدة في العام التالي .

وعلى الرغم من أنه لم يكن في حرب ضد الفاطميين الذين لن يثروا أيامه ما يحمله على الشكوى منهم لانشغالهم بفتح بلاد المغرب إلا أنه أدرك أنهم سوف يسلون سيوفهم ضد الأندلس حالما يفرغون من هذا الفتح ، ومن ثم رأى واجبه يتضمنه أن يبذل قصارى جهده لإنفاذ المغرب حتى يبقى سداً حائلاً بين الفاطميين وبين إسبانيا ، لكنه مع ذلك رأى أنه ليس من الصواب أن يعلن الحرب على هذه الدولة في وقت لم تزل فيه نيران الفتنة مشتعلة في مملكته ، ولم يسأله نصارى الشمال في الصلح ، والا كان اعلانه الحرب على الفاطميين دافعاً لهم على النزول على شاطئ الأندلس ، ورأى أن كل ما يستطيع عمله في تلك الظروف المحيطة به هو أن يساعد - في الخفاء - الأمراء الذين في استطاعتهم مقاومة المغير على أراضيهم .

وأتىحت الفرصة عام ٩١٧ [= ٣٠٥ هـ] حين هاجم الفاطميون أمير نكور (١) الذي كان من أسرة عربية الأصل حكمت نكور وما حولها منذ أن فتحتها ، وكان أبرز ما تميز به هذه الأسرة هو تمسكها بأهديه الدين ، كما ذاعت شهرتها منذ أن افتدى السلطان محمد أميرتين من هذه الأسرة كان القراءنة النمرانيون (٢) قد اختطفوهما ، ومنذ ذلك الحين ظلت على أمن الصلات الودية مع إسبانيا .

ولقد قام أحد القضاة من هذه العائلة - واسمه عبد الرحمن بن سعيد - وكان فقيها ورعا حج الى مكة أربع مرات وشخص الى الأندلس أيام عبيد الله قصد الجهاد ، وفي أثناء مغادرته السفيينة هاجمه ابن حفصون وقتل كل من كان معه ولم ينج أحد سواه فوصل وحيدا الى معسكر السلطان [في مرسية] ، واستشهد في الحرب ضد ديسن [بن اسحق] أمير ولاية تدمير (٣) .

حين غزا الفاطميون المغرب كان على نكور الأمير سعيد بن صالح (٤) فطلبوا اليه الخضوع لهم قابني ، غير أنه - أو بالأحرى شاعره الاندلسي - أضاف الى الرفض عدم القدرة اذ كان الخليفة قد بعث اليه بآيات شعرية تحمل في معناها عزمها على سحق أهال نكور ان هم رفضوا الدخول في طاعته ، ووعدهم بالعدل بعد بلادهم ان هم أذعنوا له ، فرد عليه الشاعر الأحسس الطليطلي بالأبيات التالية (٥) :

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا
ولا عرف الرحمن من قوله الفضلا
وما أنت الا كافر ومنافق
تبيل مع الجهل في السنة المثل
وهمتنا العلیسا للدين محمد
وقد جعل الرحمن همتک السفل

فاشتد غيظ الخليفة الفاطمي عبيد الله فكتب في الحال الى قائده مصالة حاكم تاهرت يأمره بالهوض لهاجمة نكور ، ولا لم يكن لدى سعيد بن صالح الشيخ من قلعة يتختنها حسنا له فقد مضى لهاجمة العدو وحاربه ثلاثة أيام (٦) ، الا أن أحد قواده (٧) خانه فلاقى أخيرا منيته في ميدان القتال مع جميع عسكره سنة ٩١٧ م ، واستولى مصالة على نكور وقتل رجالها وسبى نسائهم وأسر أطفالها .

كان سعيد قد حذر أولاده وأوصاهم فتحين ثلاثة منهم الفرصة وأبخرها قاصدين ميناء مالقة ، فلما بلغوها أمر عبد الرحمن الثالث بالاحتفاء بمقتهم أبيه احتفاء ، وفي الوقت ذاته أبدى استعداده وترحيبه باستقبالهم اذا شخصوا الى قرطبة ، لكنه لما لم يكن راغبا في التضييق

عليهم فقد ترك لهم حرية الاقامة في مالقة طالما هذا هواهم ، وأنجابه الإنماء بأنهم يؤثرون البقاء في بقعة تكون على مقربة من سرح الأحداث لأنهم يؤملون العودة في القريب العاجل إلى وطنهم ، ولم تطش آمالهم بلدوا ففقد فكر مصالحة في الرجوع إلى تاهرت بعد ستة شهور قضاها في تكorum التي استخلف عليها ضابطاً كتمانيا اسمه « ذلول » في فتنة قليلة من الجند ، فاتتهز هذه الفرصة هؤلاء الأمراء [الثلاثة] الذين كان أتباعهم يوافونهم بكل ما يجد ، وجهزوا السفن واستقلوها إلى تكorum بعد أن اتفقوا فيما بينهم على أن تكون ولية الإمارة لاسبقهم في الوصول إليها ، فكان صالح - وهو أصغر البناء الثلاثة - أسبق الأخوة ، فتسارع إليه ببر الساحل ورحبوا بمقلمه وأمروه (١٣) عليهم وساروا قاصدين تكorum وفتكتوا بذلول وجنته ، وسرعان ما حرج صالح - وقد ملك الأقاليم - كتاباً إلى عبد الرحمن الناصر يشكر فيه عطفه عليه وعلى أخيه ، ويفضي إليه بنبا انتصاره ، وأعلن في الوقت ذاته - في جميع رحاب المملكة - سيادة هذا الحاكم ، فيبعث إليه عبد الرحمن بالأندية والآلات والبنادق والطبلول (١٤) .

إذا كانت أحداث تكorum قد أنسست عبد الرحمن الثار لهزيمة جيشه ولوت قائد الباسل ابن أبي عبدة الذي علق أردوتيو رأسه على سور شنت اشتباكات إلى جانب رأس خنزير بري (١٥) فإن المسيحيين ذكروه بهذا كله حين عاث أردوتيو الثاني وحليقه (١٦) ملك نفارة في ربيع ٩١٨ = ذو القعدة ٣٠٥ هـ في منطقتي ناجرة وتطيلة ، ثم استولى شابة بعد ذلك على أقاليم بلتيرة وأحرق الجامع وحصنها (١٧) ، فعمد عبد الرحمن الثالث إذ ذاك بقيادة عسکره إلى بدر [بن أحمد] العاجب وأرسل إلى سكان الحدود يطلب إليهم الانضواء تحت لوائه [والجد في نهاية أهل الكفر] وحثهم على اغتنام هذه الفرصة لغسل عار هجوم السنة الماضية .

وفي السابع من يوليو ٩١٨ م [= ٢٥ محرم ٣٠٦ هـ] غادر الجيش قرطبة ، فلما بلغ حدود ليون حمل حملة عنيفة على العدو المعتصم بالجبال ، ونشبت معركة كان في الثالث عشر والخامس عشر من أغسطس [٣ و ٥ ربيع الأول ٣٠٦ هـ] على مقربة من مكان يدعى مطونية (١٨) ، وخرج المسلمون ظافرين في كل من الوعتين ، أما أهل ليون فيشهد مؤرخهم أنهم قد تأسوا بقول داود عن الشك في السلاح (١٩) .

تم لعبد الرحمن مسح عار هزيمته غير أنه كان واثقاً من أن أهل ليون لم يخضعوا بعد ، وكان يتحرق شوقاً لمشاهدة قواده شرف الظهور في الحرب على الكفار ، فقد الجيش بنفسه وجهز حملة استولى بها على وخشمة (٢٠) ، إذا اتفق مع عاملها على تركه هو وشأنه ، واستغل

عبد الرحمن جيشن هذا الرجل وظاهر بقبوله عرضه بالشخصون الى نهر أبرو عن طريق مدينة سالم ، لكنه انعطف فجأة يسأرا الى نهر دويرو ، وبعث أمامه كتيبة من الفرسان أمرا اياما سلب أرياض وخشمة وتدمرها ، فذهلت حاديتها لهذا الهجوم المباغت وأسرعت الى الاعتصام بالغياض ، والأكام والجبال ، ودخل المسلمين الحصن دون مقاومة وأضرموا فيه النار ثم مضوا فهاجموا حصن شنت اشتيبن دى جرمان ودخلوه هو أيضا دون أن يصادفوا أي مناهضة لهم فقد فرت عنه حاديتها حين قدم المسلمون الذين دخلوه ودمروه كما دمروا حصن القبيلة (٢١) المجاورة له ثم ساروا من هناك الى قلوني (٢٢) وهي بلدة قديمة هامة درست معالها اليوم ولم يبق ما يدل عليها سوى أطلالها ، ويظهر أن الليوتين اتفقوا على عدم المقاومة في أية جهة ، فقد وجد المسلمين قلوبية خالية تماما فهدموا كثيرا من بيوتها وكنائسها .

كان من أثر استغاثة مسلمي تطيلة بعد الرحمن أن غزم على محاربة شانجة ملك نفارة ، فسار على مهل حتى لا ينهك التعب جيشه وقطع المسافة ما بين قلونية وتطيلة في خمسة أيام ، ثم وضع كتيبة من الفرسان رهن أوامر محمد بن لب عامل تطيلة وأمره بمهاجمة حصن قلقرة الذي بناه شانجة ليشرف منه على سكان تطيلة وليجعلهم في خوف دائم منه ، فوجده المسلمون الحصن مهجورا اذ سرعان ما فر عنه شانجة إلى أرميدو .

ومع ذلك فقد هاجم شانجة مقدمة المسلمين حين عبرهم نهر أبرو ، ودارت بين الفريقين رحى القتال الذي أظهر المسلمين فيه أنهم اذا كانوا قادرين على الاستيلاء والتهب وحرق القصور غير المحصنة فهم قادرون أيضا على الحق الهزيمة المنكرة يالعدو واكرامه على الاعتصام بالجبال طلبها للسلامة ، وقادت مقدمة الجيش وحدتها باحراز هذا النصر الغالى ، أما عبد الرحمن الذي كان في الوسط فقد كان لا يدري بأن جيشه قهر العدو ولم يعلم بهذا الأمر الا حين حملوا إليه رؤوس القتلى .

استنجد شانجة بأردونيو حين دارت الدائرة عليه وأصبح لا يقوى بمفرده على مقاومة المسلمين ، فاجمع العاملان العزم على مهاجمة مقدمة الجيش أو ساقته حسبما تسمح الظروف ، وفي أثناء ذلك كان المسيحيون الذين لم يغادروا الجبال قد حملوا على جناحي المسلمين الذين كانوا يسيرون عبر المرات والأودية صاروخين صرخات عالية لبث الفزع في نفوس أعدائهم وانتفعوا بما مهدته لهم الأرض فقتلوا البعض .

ونحن عن البيان أن الجيش المسلم الذي نفسه في مركز خطير ، واستعمل من أهل الجبال خفاف الحركة ذوى اليأس الذين يذكرون النكبة الكبرى التي أنزلها أجسادهم بجيشه شارلماش العظيم في وادي باب

شيزروا (٢٣) ، والذين أرادوا اغتنام الفرصة في هذه اللحظة لانزال مثلمها وبجيش عبد الرحمن الذي لم يكن جاهلا الخطير الذي يهدد رجاله ، لذلك لم يكدر يبلغ وادي الحيزران (٢٤) (الذى سمي بهذا الاسم لكثره الحيزران به) حتى أمر ببنصب الخيام ، وحينئذ ارتكب المسيحيون هفوة جسيمة اذ نزلوا السهل بدلا من انتصامهم بالجبال وتقاموا غير وجلين ، فالتحقوا بال المسلمين فيما أرادوه من حرب ، بيد أنهم دفعوا غاليا ثمن تورتهم اذ تكبوا بهزيمه مسلحة ، وتعقبهم المسلمون حتى حجز الظالم بينهم وبين عدوهم وأخفاهم عن أبصارهم ، لكنهم أسروا نفرا من قواه من بينهم مطرانان هما « هرموجيس » أسفت توى ، و « دولكديس » أسفت لمنقة اللذان تسربلا بلباس العرب كما كانت العادة اذ ذاك ٠

وعلى الرغم من ذلك فقد تسلل أكثر من ألف نصراني لواذا الى قلعة مويس معتصمين بها ، فاتحدق بها عبد الرحمن واستولى عليها وقطع رؤوس جميع المدافعين عنها ، وراح المسلمون يخربون الحصنون دون أن يخطوا أدني مقاومة ، ثم راحوا يجوسون خلال فسارة يزدهيهم النصر ويتشدقون بأنهم أحرقوا كل ما صادفوه في بقعة مساحتها عشرة أميال مربعة ، وكانت الفتية - لاسيما المؤونة - التي استولوا عليها عظيمة فكانوا في معسكرهم يبيرون القمح بسمر التراب (٢٥) ، ثم عمدوا الى حرق جزء كبير من المؤونة حين عجزوا عن حملها كلها ٠

خرج عبد الرحمن من هذه الجملة منصورا ينفق فوق رأسه علم الغخار ، فاختذ في اليوم الثامن من شهر سبتمبر في الارتداد ، ولما بلغ أنتيسة فارق عسكر الجنود الذين أبلوا بلاء حسنا في وقعة وادي الحيزران بعد أن فرق قبهم عطاياه ، ثم قفل راجحا إلى قرطبة التي بلغها في الرابع والعشرين من شهر سبتمبر (٢٦) بعد غيبة طالت ثمانية أشهر (٢٧) ٠

كان من حق عبد الرحمن أن يطلع نفسه بأن من شأن هذه المعركة الظاهرة أن تنزع من نفوس النصارى إلى حد ما التفكير في معاودة الغارة على الأرض الإسلامية ، بيد أنه كان يواجه خصما ليس من الإسير عليه أن يضحي شوكته ، فقد حصلت في عام ٩٢١ م أن شن أردوتيو غزوة أخرى (٢٨) ٠

وإذا سلمنا بما يذكره أحد المؤرخين النصارى الذي ربما أسرف في تقدير مدى الانتصارات التي أصابتها أبناء دينه فقد أصبح ملك ليون على مسيرة يوم واحد من قرطبة (٢٩) ثم استولى بعد عامين على ناجرة (٣٠) ، بينما استول حليفه شانجة - ملك نفارة - على بقيرة (٣١) التي كان هن آخر مباراته بها أن قال قول النبي (٣٢) « لند شتنت شملهم ، وأكرهتهم على الفرار إلى أماكن قاصية مجهولة » ٠

دب الذعر في أسبانيا الإسلامية من جراء استيلاء التنصاري على بقيرة (٣٣) ، فقد ترافق إلى الأسماع خبر قتل جميع المدافعين عنها وفيهم رجال من أبرز المائلات (٣٤) ، وإذا كان عبد الرحمن لا يمكِّن للأخذ بثار هذه التكتبة فقد كان يدفعه إليه الشعور العام ، لكنه لم يكن في حاجة ملِّن يحثه على ذلك فقد ملك الغيظ والغضب عليه كل نفسه حتى أبى التريث في انتظار الفصل الذي تبدأ الحملات فيه عادة ، فغادر قربة في إبريل ٩٢٤ م (= محرم ٣١٢ هـ) على رأس جيشه كي ينتقم لله والدين من الشعب الدنس الكافر ، كما يقول مؤرخ عربي .

وفي العاشر من يوليو [٩٢٤ م ، = ربيع الثاني ٣١٢ هـ] بلغ حدود نفارة ، وكان اسمه يبعث الرهبة الشديدة في نفوس أعدائه ، مختلفوا أنى كانوا قلامهم وغادروها حين قدموه ، فمر بطريقه على قلقة وبطيرة الله ، وفالجش سالبا كل ما يصادفه في طريقه مضرما النار فيه ، ثم توغل في الأقليم متوجهًا شطر العاصمة . وحاول شانجه صده في المرات الضيقه لكنه كا يرتد كل مرة خائبا ويرُوب خاسرا ، وبذلك وصل عبد الرحمن من غير مقاومة إلى بانبولونة التي لم يجسر أهلها على ملاقاته فهربوا منه ، وهلهم كثيراً من بيوت المدينة كما هدم الكنيسة التي كان يهد إليها كل عام جمهور غفير من الحجاج ، ثم أمر بعدئذ بهدم كنيسة أخرى عظيمة التوقير في نفوس الأهالي كان شانجه قد بذل الأموال الطائلة في بنائها على جبل مجاور ، ولم يفلح شانجه فيما تكبده في سبيل إنقاذهما ، كما لحقه الفشل في محاولاتة الأخرى فقد وصلته إمدادات من قشتالة أغار بها مرتين على الجيش الإسلامي أثناء مسيره لكنه عاد في كلتيهما خاسرا ، أما المسلمين فعلى العكس من ذلك لم يقتل منهم غير نفر قليل في هذه الحملة الباهرة التي عرفت فيما بعد بوقعة بانبولونة (٣٥) .

ذل ملك نفارة بعد أن استبد به الزهو من قبل ، وظل ردها من الزمن مسلوب القوى ، ولم يكن ثمت ما يخفف عبد الرحمن حينئذ من ناحية ليسون فقد مات أردونيو الثاني الشريجاع قبل بله معركة بانبولونة (٣٦) ، ثم خلفه أخوه فرويلا الثاني لكنه لم يلبث غير سنة واحدة لم يساهم فيها قط بحرب ضد المسلمين الا ببعض إمدادات أنفقها إلى شانجه ملك نفارة ، فلما مات سنة ٩٢٥ م (= ٣١٣ هـ) تنازع الناج أبنا أردونيو الثاني وهما شانجه وألفونسو ، وآل الناج إلى الأخير الذي نعم بالرابع ، وكان ذلك يفضل مساعدة حميء شانجه ملك نفارة ، فلم يوهن ذلك من عزم شانجه (بن أردونيو الثاني) بل جمع جيشه جديداً وتوجه في كنيسة القديس جاك ثم مضى محاصراً ليون واستولى عليها واسترد العرش من أخيه سنة ٩٢٦ م (= ٣١٤ هـ) الا أنه في

سنة ٩٢٨ م (= ٣١٦ هـ) استعاد الفونسي العاصمة بمساعدة التغاريين ولكن شانجة استبقى جليقية في يده (٣٧) *

لم يشغل عبد الرحمن نفسه بهذه الحرب الأهلية الطويلة بل ترك التصرينية في نزاعها والتفت إلى مصالحة الشخصية مستغلاً هذه الفرصة التي تهيأت له لاخמד الثورات التي كانت دائمة الاندلاع في أرجاء مملكته ، حتى اذا اوشك على تحقيق رغبته تطلع للحصول على لقب آخر ، ذلك أنَّ أموري إسبانية كانوا قائمين حتى هذه اللحظة بلقب « السلطان » أو « الأمير » أو ابن الخليفة ، أما الخليفة العباسي الذي كان واياهم في عداء دائم فلم ينزعوه لقب (٣٨) « الخليفة » لاعتقادهم الفكرية القائلة بأنَّ هذه اللقب هو حق الشخص الذي تدين له مكة والمدينة بالولاء والتبعة (٣٩) ، أما وقد أصبح العباسيون دمى في أيدي الأمراء (٤٠) ولم يتعد تقوذهم بغداد وما حولها لاستقلال حكام الولايات بمقاطعتهم فلم يعد ثم حائل يحول بين الأموريين وبين الحصول على لقبهم في حاجة إليه ليجلبوا لأنفسهم احترام رعيتهم عامة والغاريبة خاصة ، ومن ثم أمر عبد الرحمن في عام ٩٢٩ م (= ٣١٧ هـ) أن يدعى (٤١) له ابتداء من يوم الجمعة ١٦ يتساير في الأدعية والصلوات العامة بلقب « الخليفة » مقرونا بلقب « أمير المؤمنين الناصر للدين الله » *

في ذلك الوقت بالذات وجه كل همه نحو أفريقيا فتحالف محمد بن خزر شيخ قبيلة مغراوة (٤٢) البربرية الذي هزم قوات الفاطميين شر هزيمة وقتل بيده قائدهم مصالحة فتم التحالف بين الاثنين وسرعان ما طرد ابن خزر الفاطميين من المغرب الأوسط (أعني إقليم الجزائر وهرات) واعترفت هذه الناحية لعبد الرحمن (٤٣) الذي أفلح أيضاً في فصل عضده قوي من الفاطميين هو قائد مكناسة العظيم المسمي (موسى) ابن أبي العافية الذي كان حتى هذه اللحظة ساعدتهم الأيمن والذى استولى على سبتة عام ٩٣١ م (= ٣١٩ هـ) لما كان يراه من ضرورة امتلاك حصن على الساحل الأفريقي (٤٤) *

والظاهر أنَّ نصارى الشمال أخذوا أنفسهم بعدم مناؤة الخليفة حتى يتفرغ للمشاكل الأفريقية وانتهت حربهم الأهلية الأولى بموت شانجة عام ٩٢٩ م (= ٣١٧ هـ) وما أهل دبيع عام ٩٣١ م حتى نشببت حرب أخرى فقد حزن ألفونس الرابع حزناً شديداً (٤٥) على زوجته في هذه السنة فتتخل من تلقاه نفسه عن العرش لأخيه راميرو الثاني ، وأما هو فقد لم يبس مسوح الكهنة وأقام في دير ساما جون ، لكنه سرعان ما تبين أنه لم يخلق لحياة الرهبانية الرتيبة فغادر الدير ونودى به ملكاً على شلمنقة ، فكان هذا العمل في نظر رجال الدين جرماً لا يغفر ، وأندر وروم

بأهوال الجحيم ان لم يعد الى الرهبانية فأذعن لهم بعد لاي ، لكنه كان ممالا غير صادق في عودته اذ لم يلبث أن طرح لباسها عن نفسه مرة أخرى .

استغل الفونس فرصة غياب رامIRO الثاني الذي كان قد ذهب لتجدة طليطلة (٤٦) التي حاصرها جنود الخليفة فجاء الى ليون واستولى عليها ، فانكفه رامIRO عائدا اليها ل ساعته وحاصر بدوره ليون ودخلها ظافرا ، وأراد الا يدع مجالا لأخيه بعدد المطالبة بالعرش فسلم عيون الثلاثة من أبناء عميه فرويلا الثاني الذين اشتراكوا في ثورة عام ٩٣٢ م (٤٧) .

* * *

أما من ناحية عبد الرحمن فقد تغير الموقف أمامه بما كان عليه من قبل ، اذا انقضى الوقت الذي كان يتغاضل فيه أمر مملكة ليون ، ولما كان رامIRO رجل حرب وبأس فقد أذكى نار الكراهية والبغضاء المتصلة في النقوس ضد المسلمين ، وكان همه الأول انقاد طليطلة تلك الجمهورية الشامخة بأنفها تيها وكبريات ، والتي انفردت بين جميع ولايات اسيانيا الاسلامية بتحديها جيوش السلطان كما أنها كانت حتى هذه اللحظة خليفة صادقة لمملكة ليون ودرعا واقيسا لها ، ومن ثم فقد شن الحرب وهاجم مدريد التي كانت في طريقه واستولى عليها (٤٨) ، ومع ذلك فقد عجز عن انقاد طليطلة حين تهضبت لصلبه كتبية من الجيش المعاصر للمدينة وأرغمه على التقهقر والارتداد عنها (٤٩) تاركا ايها و شأنها ثم لم تلبث أن سلمت عام ٩٣٣ م (= ٣٢٣ هـ) . حين فقلت كل أمل لها .

وكان الخط رامIRO اذ أخبره فرديناند كونثالث (أو جونزالز)
كونت قشتالة أن الجيش الاسلامي يهدد وخسمة فنهض لدفعه وأوقع به
الهزيمة (٥٠) .

لكن عبد الرحمن أخذ بثاره عام ٩٣٤ م ، وكان يتطلع لأن تشهد سهول وخسمة كبرى انتصاراته كما شهدت عار الهزيمة قبل ذلك بقليل ، فحاول عبثا اخراج رامIRO من الحصن ، وحينذاك رأى ملك ليون أن الحكمة تقتضيه عدم المساعدة في معركة يفرضها المسلمين ، وخلف عبد الرحمن جزءا من جيشه أمام وخسمة المحاصرتها ، وتتابع هو سيره ناحية الشمال وارتكب رجاله - لاسيما المغاربة الذين كانوا لا يعرفون الرحمة - فظائع جمة في الطريق وفي أرض العدو ، ففتكوا على مقرية من برغش (عاصمة قشتالة) بجميع وهباني دير بطرس قديس شرطانيس الذين بلغ عددهم حوالي المائتين (٥١) ، ودمروا العاصمة وعددًا كبيرا من الحصون (٥٢) .

غير أن إلال لم تلبث أن تطورت في الجهات الشمالية تطورا مخيفا

فتكون حلف قوى ضد الخليفة ، وكان أشد المحرضين عليه صاحب سرقة سطة : محمد بن هاشم التجيبي .

أما بنو هاشم الذين نزلوا أرجونه منذ أيام الفتح فقد أدوا خدمات جليلة للسلطان محمد وقت أن كان بنو قصى (٥٣) لا يزالون في أوج مجدهم في هذا الأقليم ، كما ظلت أسرتهم تتوارث مناصب الحكم والولاية في المناطق الشمالية أكثر من أربعين سنة ، وكانت هي العائلة الوحيدة التي أبقي لها عبد الرحمن الثالث مظاهر التفозд والعظمة ، على حين قد سلبهما من جميع الزعماء العرب ، ومع ذلك لم يكن محمد بن هاشم على وفاق مع الخليفة ، ولربما كان مرجع ذلك الرغبة الملحة في محظاهات التي حاقت بجماعته ، أو لعله لم يكن يرى في عطف عبد الرحمن عليهم إلا ضرورة فرضها عليه خسوفه منهم ، أو لعل [محمدًا نفسه] كان يتمنى (٥٤) العرش لنفسه ولأولاده من يده فتحالف مع ملك ليون وأبدى استعداده للاعتراف بسيادته عليه إن هو شد أزره ضد الخليفة ، ووجدت عروضه من راميرو أذنا صاغية .

وفي أثناء حملة ٩٣٤ م (= ٣٢٤ هـ) رفع محمد راية العصيان برفضه الانضمام إلى الجيش الإسلامي (٥٥) ، ولم تمض غير ثلاث سنوات حتى اعترف بتبعيته لراميرو ، فأبى بعض قواه متابعته في خيانته و اختلقوا عليه فائقيل راميرو برجاته إلى الأقليم وحاصر قلاعه واستولى عليها وكانت لا تزال تابعة للسلطان ، واستنزل القواد من معاقله وأسلفهم إلى محمد ابن هاشم التجيبي ، فلما تم ذلك تحالف راميرو ومحمد مع أقاليم نفاراة التي كان يحكمها غرسية تحت وصاية أمه « طوطة » أرملاة شانجة الكبير . حينئذ أصبح الشمال كله يدا واحدة ضد الخليفة وبذلك أطل ثانية برأسه الخطر الذي كان قد اخترى ، غير أن الخليفة واجهه بحزمه المأثور إذ قام في سنة ٩٣٧ م على رأس جيشه وسار توا إلى قلعة أيبوب التي كان يحكمها مطرف (بن منذر) أحد أقارب محمد (بن هاشم التجيبي) وتحالف حاميتها من فريق من نصارى « ألبة » ، الذين بعث بهم راميرو ، وقتل مطرف في الواقعة الأولى فخلفه في القيادة آخره الحكم الذي طلب الصلح والأمان الشامل لنفسه ولجنده المسلمين حين رأى نفسه مكرها على الجلاء عن البلد والارتداد عنه إلى القلعة التي أسلماها إلى الخليفة .

أما الليويون الذين لم يশلهم الأمان فقد قتلوا عن بكرة أبيهم بحد السيف (٥٦) . وقد أدى هذا الفتح إلى استيلاء عبد الرحمن على ما يقرب من ثلاثة حصنا ثم وجه جيشه بعد ذلك ضد نفاراة وسرقة سطة التي وكل حصارها إلى قريب له هو الأمير أحمد بن اسحق قائد الفرسان وولاه حكومة الأرض الشمالية ، إلا أن هذا القائد سرعان ما كان سببا في أمور آلت النفس .

على الرغم من أنّ بنى اسحق هؤلاء عاشوا في أشبيلية أمداً طويلاً . عيشة خاملة كلها شطف وشدة ولم يتبعنها مخالطة من هم دونهم مرتبة إلا أنه لم يكن لطامعهم حد تتفق عنده ، إذ كان كثيرون أئمداً يتطلع إلى ولادة العهد ، بل انه لم يتزور عن آثاره حفيظة الخليفة بأن انفذ إليه كتاباً يفصح له فيه عن قصده ، وفي الوقت ذاته لم يكن صادق العزم في نيته تجاه سرقسطة ، فاستنشاط الخليفة غضباً من هذا السفه ، وكتب إليه وهو حاذق عليه - يقول له :

«أما بعد فانا كنا نزى الاشتھاد اليك استصالحا لك ، فأبى الطبيع التریزی الا ما استحکم منه فيك الا أن استحوذ علىك ... فاللقرن يصلحك ، والفناء يطغيك اذ لم تكن عرفته ولا تعودته ... أو ليس أبوك كان فارساً من فرسان ابن جحاج أخسمهم ما لا عنده وأنت يومئذ تخاف العمير باشبيلية ، فاقبليت علينا فاريناكم ونصرناكم ، وشرفتناك ومولناك واستوزنا أبيك ، وقلدناك أعنزة الخيل أجمع وفوضتنا اليك أمر ثغراً الأعظم فتهاونت بالتنفيذ لنا وقلة المبالغة بنا ثم مع هذا الترشح للخلافة ... فائى حسب أو نسب وفيكم قال القائل :

انتس خشار الخشار وليس خسر كخيسن
ان كنتموا من قريش تزوجوا من قريش
او كنتموا قبط مصر فذا تعالى لايش ؟

اليست أمك كان حمدون الساحرة (٥٧) ، وأبوك الجنووم ، وجده بواب حوثرة بن عباس يقتل العجال في الطوانة ، ويختيط الحلفاء على باب داره ؟

فلعنك الله ولعن من أنسينا في الاستخدام بك .
فيما مأبون ويا مجنووم ويا ابن الكلب والكلبة ... أقبل
حساغراً (٥٨) .

فلما عزله مبغوضاً قام أئمداً بمساعدة أخيه أمية (بن اسحق) يدبران مكيدة لل الخليفة الذي اكتشف تآمرهما ونقاهم ، فاستولى أمية على شنطرين ، وجاهر بالعصيان ، وكاتب ملك ليون عارضاً عليه العمل معه ، وموضحاً له نواحي الضعف في الدولة الإسلامية وهي النواحي التي يمكن منها التغلب عليها ، وخرج (٥٩) ذات يوم عن المدينة فقام أحد قواده وأعاد إليها سلطان الخليفة (٦٠) ثغر أمية اذ ذاك إلى زامير وظل آخره (أحمد بن اسحق) مقيناً على ما هو عليه من تدبير المكائد والمآمرات بعزيمة لا يقل غربتها ، ورسم خطة يسلم بمقتضها الاندلس إلى الفاطميين الذين اتصل ببلاطمهم ، غير أن عبد الرحمن أحبط مسعاه وقبض عليه وحاكمه ورماه بتهمة التشيع وقتلها (٦١) .

في هذه الأثناء رافق التوفيق الخليفة في الشمال وحاصر سرقسطة وفيها محمد (بن هاشم) الذي استسلم له ، ولا كان محمد هذا أقوى رجل في الدولة وأبرز شخص بعد الخليفة فقد عفى عبد الرحمن عنه وأقره على ما بيده (٦٢) .

أما «طروطه» (٦٣) التي كانت تبني آمالاً جساماً فقد جاءت تطلب مساعدة الخليفة وتعبره حامى نفارة (٦٤) ، ومن ثم أصبح عبد الرحمن السيد المطلق على جميع إسبانيا باستثناء مملكة ليون وجزء صغير من قطالونيا .

الفصل الثالث

الناصر يقرب الصقالبة والخصيان لغرب الأشراف -
استعداده لغزة القدرة • خروج بعض القادة العرب عليه .
هزيمتا شلمونقة والخندق • النزاع بين ملوك التصانوية
الاسبانية • فرناند كونثالث • ثورة ابى يزيد البربرى ضد
الفااطميين • انتصاراته • تغير سلوكه وتحول الناس عنه .
نهايته • النزاع بين رامiro وفرناند • موت رامiro الثاني
والنزاع حول العرش • اشتداد قوة الفاطميين .

الفصل الثالث

ظهور فرناند كونثالث

كانت الأعوام السابعة والعشرون الأولى من عهد عبد الرحمن الناصر أعوام نجاح موصول ، غير أن الحظ تجهز له فما لبث الزمن أن تغير وحدث في المملكة انقلاب كبير ، ذلك أن القوة الملوκية قضت على ما كان للأشراف في الماضي من صولة كرها عبد الرحمن الذي كان يرى أن الواجب يفرض على الحاكم أن يسلب ما في يد الأشراف من سلطة حتى لقد قال (١) ذات يوم لسفير بعثته إليه أوتو الأول « انتي أعتقد أن ملوككم حاكم مفكرون حاذق غير أنني أرى في سياسة ما لا يرضيني أذ يترك بعض المسائل لأنتباعه يعالجوها بأنفسهم بدلاً من أن يأخذ هو مقاليد الأمور جميعها في يده »، ثم انه يترك لهم ولاياته ظنا منه أنه بذلك يستميلهم اليه وتلك هفوة جسيمة منه ، فليس للرعاية التي يديها نحو الأشراف من عاقبة غير العمل على زيادة تسلطهم ودفعهم إلى التمرد » .

ومع أن الناصر لم يقع قط في الخطأ الذي عاشه على ملك ألمانيا إلا أنه ارتكب حماقة لا تقل عما أخذه عليه ، ذلك أنه على الرغم من أنهم الأمور كلها في يده وعلى الرغم من أنه لم يصطفع غير « الحاجب » (٢) إلا أنه خلع كثيراً من المناصب الرفيعة على رجال أخساء وطلقاء وأثواب وأرقاء ، وقصارى القول انه جعلها في أيدي رجال ليس لهم ما يزيكيهم سوى قرب منزليتهم اليه ، لأنهم كانوا آلات طبيعة لينة العريكة يحرکها كيف شاء ، وكان الصقالبة أكبر من خصمهم بثقته فلم يظهر نفوذهم الا في عهده دون سواه فلعبوا دوراً بارزاً في تاريخ إسبانيا العربية ، ومن ثم يتبعى أن نلم بهم في شيء من التفصيل .

كان لفظ « الصقالبة » يطلق في الأصل على الأسرى الذين تأسفهم الشعوب герمانية في حروبيها ضد الأمم الصقلية ثم يبيعونهم (٣) إلى مسلمي إسبانيا ، ولكن ما لبث هذا الاسم أن انسحب على أناس من أجناس أخرى (٤) حتى شمل جميع الأجانب الذين كانوا يستخدمونهم في الحرب أو الجيش أياً كان أصلهم .

وهناك شهادة أوردها رحالة عربي في القرن العاشر للميلاد مؤدّها
أن بين الصقالبة الذين يستعملهم خليفة إسبانيا كثيراً من الفالسيين
والفرنجية (أي من الأлан والفرنسين) وبعضاً من سكان السواحل الشمالية
للبحر الأسود (٥)، وكان من بين هؤلاء رجال وقعوا في أسر القرصنة
الأندلسيين ومنهم من اشتروا في موانئ إيطاليا إذ كان اليهود يستغلون
فرصة فقر الناس ويعملون إلى شراء أطفالهم - ذكروا كانوا أو إناثاً -
ويجلبونهم إلى الموانئ البحرية حيث تأتى سفن الأغريق أو الهنادقة في
طلبهم وتعود بهم إلى المسلمين .

كما كانت هناك طائفة أخرى تعرف بالخصيان يستعملون للخدمة
في العرقي ويؤتى بهم من فرنسا التي كانت فيها أسواق الخصيان الضخمة
التي يصرف أمرها اليهود وأشهرها جيحا سوق « فردان » (٦) وغيره
في الجنوب (٧) .

ولما كان أغلب هؤلاء صغار السن عنده وصولهم إلى إسبانيا فقد
كان من اليسير عليهم اعتناق ديانة مادتهم واللام بلغتهم والتشبيه بهم
في طباعهم ، وأصاب الكثيرون منهم حظاً وافراً من التعليم المتقد حتى
لقد بلغ الأمر بهم أن كانت لهم مؤلفات وفيهم من نظم الشعر ، وهناك
كثير من الأدباء الصقالبة منهم صبيب الذي ألف كتاباً برمته درس فيه
أشعار الصقالبة ورحلاتهم (٨) .

كان عدد الصقالبة ضخماً في بلاط أمراه قرطبة وجيوشهم ، غير
أنهم لم يصلوا من الكثرة ما بلغوه في عهد عبد الرحمن الناصر ، إذ يذكر
البعض أنهم بلغوا ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسمائين (٩) رجالاً ، ويدرك
آخرون أنهم كانوا ستة آلاف وسبعة وثمانين شخصاً ، وترفعهم بعض
الروايات إلى ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين فرداً ، وربما كانت هذه
الأرقام تشير إلى عددهم في فترات مختلفة من عهد عبد الرحمن ، لأنه من
الثابت أن هذا الأمير لم يكتف أبداً عن الاستكثار من الصقالبة ، ومع أنهم
كانوا رقيقاً إلا أنهم كانوا يملكون الضياع الواسعة .

وقد عهد عبد الرحمن إليهم بالشئون المربية وقليلهم المناصب الدينية
الهامة وذلك لكراسيه الشديدة للطبقة الاستقراطية حتى أنه أرغم ذوى
الأخساب التibleة - وهم من نسل أبيطال صحراء العرب - على الخضوع
لهؤلاء القوم الجدد الذين كان العرب يحتقرنهم كل الاحتقار .

كان هؤلاء الأشراف العرب ناقمين على الخليفة حين أُعلن عن رغبته
على النهوض بحملة ضد ملك ليون تشو وسابقتها في خطوها ، فرصد لها
مبانٍ طائلة واستدعى تحت لوائه مائة ألف رجل ، ولما كان واتقاً من

النصر القشيب فقد بادر إلى تسمية هذه الحملة « بغزاة القدرة » (١٠) ، لكنه للأسف اختار لقيادتها صقلبياً يدعى « نجدة » فقضب القادة العرب من هذا الاختيار ، وأقسموا وهم في مسورة حنفهم أن يكفر الخليفة عن امتهانه الارستقراطية القدية بالهزيمة الساحقة .

فإذا كانت سنة ٩٣٩ م = شوال ٣٢٧ هـ [نهض الجيش قاصد شلمقنة فخرج لخازلته راميرو الثاني وحليفته الملكة طوطة الوصية على نقارة .

وفي الخامس من أغسطس اشتباك الجانبان في القتال فترك بعض القادة العرب ساحة القتال وارتدوا على أعقابهم ، ولا شك أنهم لم يتبرروا العاقبة ، فقص أهل لون أثر المسلمين حتى إذا أصبحوا على مقربة من ناحية تعرف بالخندق جنوب شلمقنة وعلى ضفاف نهر دويرة جمع المسلمون شملهم ثانية ونازلوا العدو غير أنهم باذوا كلهم بالهزيمة ونجا الخليفة بعد أن أوشك أن يكون نهاياً لسيوف النصارى ، وألت الحال - بعد وقعة الخندق - من ارتداد إلى هزيمة فادحة واضطراب النظام ، وعمت الفوضى ، واختلطت الصور بعضها ببعض ، وصاح القوم يريدون إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، واحتلوا الماء بالنابل والقرسان بالمشاة ، وامتلأت الطرق بجيف القتل من العسكر والقادة ، وحاق التمار بكتائب ياكملها .

كان لانتصار راميرو الهاائل وفوزه الزاهي دوى عظيم في جميع الجهات حتى بلغ ألمانيا وأقصى بلاد الشرق ، وإن اختلفت المشاعر إزاءه في كل ناحية عنها في الأخرى ، فاحتارت نفوس طرباً وامتلأت أخرى خماً وحزناً ، ورأى البعض فيما حدث نصراً لقوم ، وعلمه آخرون نكبة فادحة (١١) .

أما الخليفة فقد تسرب الوهن إلى نفسه بعد أن لاقى « نجدة » مصرعه (١٢) .

اما عامله على سرقة سبط محمد بن هاشم الذي أسر (١٣) في المعركة الأولى في وقعة شلمقنة (١٤) فقد ظل يبكي حظه العابر في سجن ليون ، وأدت الهزيمة إلى القضاء على جيش الخليفة الذي كاد هو نفسه أن يكون بين القتلى أو الأسرى لو لا أنه أُنقذ بمعجزة ، وكان الذين نجوا معه تسعة وأربعين رجلاً فقط ، فكان لكل هذا تأثيره على نفسه . خلِم يرافق جيشه بعد ذلك أبداً في آية حرب خرجها الجيش .

كان من حسن حظ الخليفة أن شبت الفتنة بين النصارى فحالت بين راميرو وبين جنى ثمار انتصاره ، اذ تطاعت قشتالة لاقتسام مملكة ليون . التي كانت قد شبت فيها ثورة أيام أردونيو الثاني والده راميرو ، وتظاهر الملك برغبته في حسم النزاع فأعلن عزمه على عقد مؤتمر في طليارة (١٥) . على شاطئي كريون الذي يفصل ليون عن قشتالة .

ودعى الملك الأمراء القشتاليين الأربع للحضور إليه فلدوا الدعوة ، غير أنه القى القبض عليهم وضرب أعناقهم ، فاستنكر أهل ليون – على يكرة أبيهم – هذا المسلاك الشاذ البعيد عن العدل ، لكنهم لم يملكون إلا أن يؤيدوا ملكهم (١٦) .

وأما القشتاليون فلم يوافقوهم فيما ذهبوا إليه ، ولكن لما لم يكن لديهم قادة يسلمون إليهم زمامهم فقدوا واحوا يتطلعون إلى اللحظة التي يرون فيها على رأسهم رجلاً قادرًا على الثأر لهم من الليونيين الخونة .

ثم حانت أخيراً الساعة التي كانوا يتربونها بفارغ الصبر حين وجدت قشتالة أملها في الكونت فرناندو كونثالث الذي صار فيما بعد أحد الأبطال المحبوبين عند شعراه العصور الوسطى والذي لا زال اسمه يتتردد حتى اليوم على السنة القشتالية بالأكبار العظيم .

بينما كانت جيوش عبد الرحمن الثالث المروعة تدمر كل ما في طريقها من الأديرة والقلاع غير مستثنية العاصمة نفسها ، كان من المستحيل على فرناندو العظيم Egregius Comes – كما كانوا يسمونه حينذاك (١٧) .

ـ آن يفكر في تخليص وطنه [من نير (١٨) الليونيين] ، لكنه رأى في الوقت ذاته أن ليس هناك ما يخشأه من جانب العرب ، ومن ثم أعلن الحرب على الملك (١٩) واستغل الخليفة هذه الفرصة لاعادة تنظيم جيشه الذي ما وافى شهر نوفمبر ٩٤٠ م (= صفر ٣٢٩ هـ) حتى كان على أمم أهبة للغارة على الأراضي الليونية بحملة جعل قيادتها إلى أحمد ابن يعلي (٢٠) حاكم بطليوس (٢١) .

والظاهر أن القدر أراد في الوقت ذاته أن يuous علىه في إفريقيا ما خسره في إسبانيا .

الواقع أنه حتى هذه اللحظة كان الخليفة يخرج من نصر إلى نصر في إفريقيا ، غير أن الأقدار أخذت تعاكسه فتوالت هزائم أنصاره ، وفشلت الخطط التي رسماها ليسروا بمقتضاهما ، ومرت لحظات عجز فيها عن أن يمنع القتال من النشوب فيما بينهم ، الا أنه نجح على أية حال في إبقاء

الفاطميين بأفريقية والجبلولة دون رسومهم على الشاطئ الاندلسي ، وكان ذلك منتهى غايتها وهدفه ، واذ ذاك استطاع أن يتفرغ لبني نمار ما أتاحه له هذا الطرف .

غير أنه حدث أن قام بالثورة ضد الفاطميين علو ييز في خطره كل عدو آخر لهم ، ونعني به أبيا يزيد من قبيلة بنى يفرن البربرية ، وهو ابن تاجر اعتنق منذ نعومة أظفاره عقيلة الخوارج الذين كان لا يزال لهم بأفريقية أتباع كثيرون وأشياخ عديدون ، ثم أنه أملق بعد موت أبيه فراح يتكسب من وراء تعليم صبيان القرى وأصبح داعية كما هو الحال بازاء مؤسس الامبراطورية الفاطمية ، وأخذ يشير البربر باسم الدين والحق ، والحرية ، ومنهم بتكونين حكومة جمهورية حالما يتخذون القبروان عاصمة لهم ، واتسم توفيقه بما يشبه المعجزة كما حدث لأعدائه من قبل . يسبتونات فتلاشت جيوش الفاطميين تلاشى الشلح في . الربيع أمام هذا الرجل القمي القبيح الظلمة ، المتخد من الصوف الخشن له لباسا ، والممتطر حمارا أشطر ، وكان السنين قد نعموا على الفاطميين كفراهم ولم تعد لهم قدرة على مطاردتهم فتقاطر تزمرهم آفواجا تحت لوانه ، كما حمل الفقهاء والشهداء السلاح لنصرة هذا القائد الخارجي ، وكانت أخذ على عاتقه تحقيق أملهم فما وافت سنة ٩٤٤ م (= ٣٣٣ هـ) . حتى دخل العاصمة وترجم على الخليتين الأولين (٢٢) اللذين أمر الفاطميون بعلنهما ، وطلب إلى أهل البلدة أن يأخذوا أنفسهم بعثب الإمام مالك الذي أبطله الفاطميون ، فقررت نفوس أهل السنة واستطاعوا أن يفلوا ويروحوا آمنين ، وسارت مواكبهم تتحقق فرقها الأعلام وتدق أمامها الطبول . بعد أن حرموا من ذلك أعواما طويلا ، وأخذ أبو زيد يقودهم بنفسه في هذه الاحتفالات العامة ، ثم قدم لهم برهانا جديدا على تسامحه فتحالف مع خليفة الأندلس وأوفد إليه وفدا ، ان لم يكن قد اعترف بسلطانه الزمني فلا أقل من أنه على صاحب السلطة الروحية على الأقطار الفسيحة التي استولى عليها (٥٣) .

ويظهر أن الفاطميين أصبحوا على وشك النمار ، ففي خلال الوقت الذي كان فيه أبو يزيد بالمهدية يضيق الخناق على سلطانهم القائم (٤٤) استطاع حاكم إسبانيا - بفضل أتباعه ومواليه الأفريقيين - أن يستحوذ على الشمال الشرقي باجمعه تقريبا ، وأثار الناس في كل مكان ضد عدوه ، ثم حالف ملك إيطاليا Hugues de Provence الذي كان يود أخذ الثار لجنوة التي نهبتها (٤٥) أحد قواد الاسطول الفاطمي ، كما عقد

محالفة أخرى مع امبراطور القسطنطينية الذي كان يتلهف لاستخلاص
حقلية من يد القائم (٢٦) .

لكن سرعان ما تبدل الأمور ذلك أن أبيا يزيد أثملته نشوة انتصاراته
فشنى عطفه عليها ولم يقنع بما بلغه من قوة وما حازه من سلطان ، ونسى
الطرق التي نهجها حتى بلغ ذلك فنطاع المظهر والأبيهة الكنادتين ،
واستبدل بعباته الصوفية الخشنة ثوبا من الحرير ، وبمحاربه الأشمط
جوادا مدهما ، فكان دماره في غفلته هذه اذ تخلى عنه أغلب أتباعه وهم دعاة
المساواة والجمهوورية فجرحهم هذا الرجل في أيامهم ، وغادره بعضهم إلى
يادهم وانضم آخرون إلى عدوه ، فأيقظ ذلك أبيا يزيد من غفلته ، فنبأ
ظهوريا مظاهر البليهنية والترف وعاد إلى عباته الخشنة وإلى حياته الأولى
بالبساطة الجافة ، لكن الصيف كانت قد ضيّعت اللbn فقد تلاشى ما كان
له من ثروة ، ولعله كان لا يزال معتمدا على معاونة أهل السنة لو لم يفتح
أعينهم - في لحظة من تعصبه الوحشي - على حقيقة هذا التسامح المزعوم
ذلك أنه في عشية أحدى المعارك أمر رجاله بتترك جند القiroان - وهم
أخوانهم في السلاح - يلقون وحدتهم نسمة الفاطميين ، فاستجابوا لأمره
وقتل الكثيرون من أهل السنة الذين اشتقد خوفهم منه منذ ذلك الحين ،
وأخذوا يوازنون بين طاغية وطاغية ، وبين هرطيق وهرطيق فائزوا الركون
على الخليفة الفاطمي .

وكان المنصور الذي خلف أبياه ، أقدر أسلافه على تصريفه الأمور ،
ترفع أبو زيد الحصار عن المهدية رغم أنهه ورجل إلى القiroان التي تأمر
أهلها عليه فلم ينج من كيلهم إلا بكل مشقة ، وظل يحارب جند الفاطميين
رديحا طويلا سقط بعده أسيرا في أيديهم مشخنا بجراحه فوضعوه في
قفص من حديد ، ولما مات سنة ٩٤٧ م (= ٣٣٦) حشوا جلده تبنا
وطافوا به شوارع القiroان ، ثم علقوه على أسوار المهدية ، وظل على هذه
الحال حتى تناولت أوصاله اربا اربا (٢٧) .

كان فشل الخوارج صدمة عنيفة لعبد الرحمن الثالث لا تقل في
الملاها عما لاقاه في من هزيمة في شامنة والختنق ، وسرعان ما استعاد
الفاطميون في الغرب أراضيهم التي فقدوها وأرغموا رجال عبد الرحمن
على اللجوء إلى طرطية .

أما في الشمال فكانت الحال على غير ما هي عليه هنا ، فقد جرت
الأمور وفق مشيئة عبد الرحمن أو بعبارة أخرى كان هذا الاقليم فريسة
للمفتنة الطخيماء ، فنشبت الحرب - كما رأينا - بين راميرو الثاني وبين
فرناند كونثالث وخرج الأول منها ظافرا اذ باعث خصميه وألقى به في

أحد سجون ليون (٢٨) ، ثم جعل حكم قشتالة - يادى ذى بدء - في يد ليوني اسمه أسور فرماندى Assur Fernandez كونت مونزن (٢٩) . القوى، بها، من بعده إلى ابنه شانجية (٣٠) (سانشو) ، وصادر أملاك فرناندو أن لم يكن اعتبرها ملكاً له ، ثم أراد التقرب إلى الشعب فوهب بعضها لذوي النفوذ القوى في الأقاليم من الفرسان ورجال الدين (٣١) ، لكنه لم يبلغ هدفه إذ استفاد القشتاليون من تساهل الملك رامiro وظلوا باقين - قلباً وروحاً - على ولائهم لولاهم الأسير ، ولم يروا فيما هنهم رامiro إلا احتلاساً ، فكانوا في صكوك البييع والهداة وما شاكلاها من الأمور التي يذكرون فيها بعد التاريخ اسم الملك والكونت يذكرون - في بعض الأحيان - الكونت الذي فرضه عليهم الملك (رامiro) ، لكنهم كانوا لا يعمدون إلى ذلك إلا حينما لا يجدون مهرباً ، والا حين يكون للسلطة تدخل في الأمر . وكانوا في العادة يذكرون اسم فرناند كونثالث .

كذلك أوضحوا بطريقة أخرى ما يكتونه له من الحب حيث أقاموا له تمثلاً وأدوا شعائر الاحترام لهذه الكتلة الصخرية (٣٢) ، ولما عيل صبرهم من طول أسر فرناند كونثالث أجمعوا العزم على الانتقام له ، ولندع ذلك للقصة الجميلة (٣٣) المعروفة باسم Turamento LLovan التي تقول :

« لقد أقسم الجميع في صوت واحد على لا يرجعوا إلى قشتالة من غير سيفهم الكونت فنصبوا تمثلاً الحجرى في مركبته ، وألوا على أنفسهم إلا يعودوا بذوته . لقد أقسموا رافعين الأيدي على لا يترك الصفوف أحد ما منهم دون أن يصحبهم (٣٤) الكونت . . ولتأدية فروض الطاعة له ركزوا علمه إلى جانب تمثالة وقبل الجميع - صغيرهم وكبيرهم - يد النصب وغادروا برغش وأرباضها المجاورة ، ولم يتخلل بها غير النساء والأطفال » .

خاف رامiro من تقسيم القشتاليين فأذعن بعد لاي وأطلق سراح فرناند بعد أن أخذ عليه الموائق الغلاظ والشروط المهيضة ، فأقسم فرناند كارها على الولاء والخضوع له والتخلي عن أملاكه ، وتعهد أن يزوج ابنته أوراك Uraque من أردونيو أكبر أبناء الملك (٣٥) ، وبذلك استرد فرناند كونثالث حرريته ، وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يتمتع بتاتاً عن مدد يد المعونة إلى ملك أكرمه على اعضاء معاهدة كهنه المعاهدة .

أما القشتاليون الذين فشلوا في استرجاع السلطة إلى من لازالوا يمسدونه عليهم فما زالوا ناقمين على رامiro الذي فقد بذلك مساعدة أهل سل رجائه ومعونة قومه الصنادييد مما أضعه بأسه ، فشن المسلمون

الفارة عليه في سنة ٩٤٤ م (٣٢٣ هـ) وقاموا باثنتين غيرهما (٣٦) خلال عام ٩٤٧ م (٣٢٦ هـ) ، ولم يستطع أن يمنعهم من إعادة بناء وتحصين مدينة سالم التي أضحت منذ ذلك الحين عصبة الامبراطورية العربية ضد قشتالة (٣٧) .

أصبح (رامiro) صاحب انتصار شملنقة والخندق (٣٨) في موقف الدفاع بعد أن كان في موقف الهجوم ، ولم يتمكّن بأية غارة جديدة على الأراضي الإسلامية بعد ذلك إلا سنة ٩٥٠ م (٣٩ هـ) فلازمه النصر فيها على مقاربة من طلبيرة ، لكنه كان آخر انتصار أحرزه إذ ما وافيه شهر ينساير من العام التالي [= ٩٥١ م / شعبان ٣٣٩ هـ] حتى قبضه (٣٩) الموت .

مات رامiro فنشبت المعركة اثر وفاته من أجل العرش ، ذلك أنه كان قد تزوج مرتين فأنجب من زوجته الغاليسية الأولى ابنها سماه أردونيو ، ومن الثانية وهي أوراك (اخت غرسية ملك نفارة) ولها آخر سماه شانجة ، وكان أردونيو هو الابن البكر فطالب بطبيعة الحال بالعرش ، غير أنه شانجة نافسه اعتمادا على معاونة التغاريين (٤٠) له ، وجده أن يذهب إليه كلما من فرناند كونثال والقتاليين ، وبذلك لم يكن من الصعب على فرناند أن يختار الانضمام إلى أحد المجانين .

حقيقة أن أردونيو كان زوج ابنته ، لكن كيف يساعدمه وهو مقوت إليه مبغوض عنده؟ ثم انه الى جانب ذلك لا يشعر في نفسه بأدنى ميل اليه؟ ولذلك فإنه أيد شانجة لما بينهما من وشيعة القربي (٤١) وبدافع من مصلحته الشخصية ، وكانت الى جانبها طوطة ملكة نفارة وهي حماة فرناند الذي كان لو تردد لتغلبت هدايا شانجة العظيمة على تردده ، فوعله الأمير بارجاع كل أملاكه المصادرية اليه وكذلك إمارة قشتالة ، ومن ثم انضم فرناند الى جانبها ودعى رجاله الى حمل السلاح واستتصحب شانجة وجيشاً تغارياً وتقاتلاً جميعاً على مدينة ليون لاستخلاص الناج من أردونيو الثالث (٤٢) ، ويقول أحد المؤرخين العرب (٤٣) انه جرى بين أردونيو وبين أردونيو وبين غرسية اختلاف من الله به على المسلمين ، والواقع أنه بينما كان النصارى يقتل بعضهم ببعض أمم أسوار ليون كان قواد عبد الرحمن يخرجون من نصر الى نصر في كل خطوة يخطوتها عند الحدود ، ولم يكن رسول يقد من الشمال الا ويحمل الى القوم في قربة فبا غزوة موقفة ، او خبر انتصار جديد حازه المسلمين ، حتى لقد استطاع الخليفة أن يرى الشعب أكواها من التواقيس والصلبان والرؤوس المقطوعة التي عدوها ذات مرة في سنة ٩٥٥ م (= ٣٤٤ هـ) فكانت

خمسة آلاف رأسن معظمها لرجال من قشتالة سقطوا في ميدان الوغى
الذى خاضوا عماره وحملوا لوامه (٤٤) .

وإذا كان فرناند كونثالث قد انتصر على مقرية من شنت استبيين
دى جرمان (٤٥) فإن أردونيو الثالث رد أخاه وثار من لشبونة بتدميرها
وأرغم أهل جليقية على الطاعة له بعد أن كانوا من التائرين (٤٦) عليه
غير أن هذا لم يكن غير تعويض تache للمخسارة التي أنزلها المسلمون
بالنصارى *

أما أردونيو الذى كان يخشى قيام ثورات أخرى فقد كان يتلهف
على السلام ، وقد لوفند من أجله سفيرا إلى قرطبة عام ٩٥٥ م [٣٤٤ هـ] .
ولما كان عبد الرحمن راغبا هو أيضا في السلام كى يوجه جيوشه شطر
ناحية أخرى فقد لبين رغبات أردونيو ، وبعثت في العالم التالي (٣٤٥ هـ)
إلى ليون بجماعة من رجاله فيهم محمد بن حسين والعالم اليهودي حسان
بن شبروط (٤٧) ، وكان حسانى هذا هو المشرف على الخراج *

لكن هذا التحالف لم يصر طويلا .

ولما كان أردونيو قد أبدى استعداده للمفاوضة عارضا التنازل أو
هدم بعض حصون معينة فقد توصل الفريقان إلى خطوط معاهدة بينهما
قفل بها الرسل إلى قرطبة ليصدق عليها الخليفة *

وعلى الرغم من أن المعاهدة المقترجة كانت مشرفه للعبده الرحمن وفي
صالحه الا أنه لم ير فيها كل ما كان يرجوه ، ولما كان قد نيف على
السبعين ولم يعد له أمل في الغد فقد رأى أن المسألة تتعلق بابنه الحكم
أكثر مما تتعلق به هو ذاته ، فاستشاره وسألته الرأي . فأفاض إليه
ابنه - وكان هادئا الطبع محبا للسلم - بوجوب امضائها (٤٨) ، ولم
ينقض غير قليل من الوقت حتى أقر اتفاقا آخر مع فرناند كونثالث (٤٩) .
بذلك لم يبق من خصوم إسبانيا الإسلامية سوى النصارى .

* * *

إذا كان عبد الرحمن قد أبدى في هذه المرة كثيرا من الدين عن ذى
قبل فمرجع ذلك هو رغبته في الانصراف إلى محاربة الفاطميين الذين
أخذ يأسهم في التزايد يوما بعد يوم ، ولما كانوا يتحرقون للثأر من حكام
أوربا الذين كان لهم ضلوع في محاولة ابادتهم فقد بدأوا في الانتقام منهم
في شخص أميرطور القسطنطينية وذلك بتخريب قلهاورية (٥٠)

ثم جاءت سنة ٩٥٥ م (= ٣٤٤ هـ) تحمل كل مظاهرها أن تفكير
ن الخليفة الفاطمي الرابع كان منصبا على مهاجمة الأندلس

ونجحت اذ ذاك أن بعث الناصر بمركب شديد الضخامة محملة بالبضائع إلى الاسكندرية فالتقت في البحر بسفينة قادمة من صقلية وعلى ظهرها رسول مو فيه من قبل حاكم هذه الجزيرة إلى المعز (لدین الله الفاطمی) .. والظاهر أن هذا الأمر لم يكن مجهولا عند ربان السفينة الاندلسية ، وربما ارتات عبد الرحمن في أن تكون في الرسائل التي حملها المبعوث خطوة مهاجمة إسبانيا ، ومن ثم أفقد أمره إلى الرياند بمعارضتها . ومهما يكن الأمر فقد هاجم ربان السفينة المركب الصيقلي وسلبها واستولى على ما فيها من الرسائل .

لكن سرعان ما انتقم المعز اذ أمر حاكم صقلية أن يبحر بالأسطول إلى المرية ويستولى أو يحرق كل ما يجده من السفن بهذا النفر ، فاستولى على نفس المركب التي كانت سببا في تلك الحملة والتي كانت راجحة من الاستكبارية وعلى ظهرها جماعة من المغتليات والبضائع التفيضة إلى الخليفة ، فلما أنجز البحارة الصيقليون ما عهد به اليهم من تخريب المرية عادوا إلى مراكبهم (٥١) .

ولقد عزم عبد الرحمن على الرد على هذه العملية فأمر ببناء الفاطميين . كل يوم في الصلوات العامة (٥٢) كما بعث بقائمه غالب أمير البحر (٥٣) إلى سواحل إفريقيا كي يخبرها ، الا أن تلك الحملة لم تصادف من التجاج ما كان يؤمن به الخليفة الناصر – ذلك أنه على الرغم مما أصابه الأندرسونيون من الفنائهم في يادي الأمر إلا أنهما ارتدوا على أعقابهم أمام القوات التي كانت تحرس تلك الناحية والتي أكرهتهم على ركوب البحر ثانية .

كان عبد الرحمن قد وصل إلى هذا الحد في محاربة الفاطميين في الوقت الذي دارت المفاوضات فيه بينه وبين ملك ليون ، وطبعي أنه كان يتلهف على مسالمة مسيحيي الشمال حتى يوجه كل قوى دولته وثرواتها لمحاربة إفريقيا ، فكان ذلك مدعاه لعدم تشدده في فرض شروطه الخاصة .

وما كاد عبد الرحمن يحقق المداععة حتى ركز كل اهتمامه ضد إفريقيا ، فأعاد حملة كثيفة لم تدع للعمال في الصانع دقيقة وحالة من الراحة ، وكانت الكتاب تند من جميع البقاع شطر الموانئ وسجلت اسماء الملائين . غير أن مساراتي الخليفة لم تثبت أن توقفت مرة واحدة حينما مات أردونيو الثالث في ربیع (٥٤) سنة ٩٥٧ م [٣٤٦ هـ] .

* * *

لقد رأينا آنفا أن أردونيو لم يحصل على السلام المنشود إلا بعد أن قدم عروضا معينة ليس من شك في أن أهمها هو أن يسلم إلى عبد الرحمن

حصونا معينة أو يهدم بعضها ، غير أن شانجه – منافس أخيه القديم – الذي ول العرش بهذه دون أي عقبة رفض تنفيذ هذا الشرط ، لذلك وجه عبد الرحمن ضد ليون كل ما كان قد جهزه لغزو إفريقية ، وأغرى قائد الصنديد أحمد بن يعلي حاكم طليطلة (٥٥) فقام بهذه الحملة ، وما وافق شهر يوليو حتى ظهر ظهوراً مؤزراً على ملك ليون (٥٦) ، فكان هذا النصر من غير شك عزاءً للخليفة الذي لم يكن راغباً قط في هذه الحرب الجديدة والذي لم يكن يتاخر عن تفاديهما لو أنه وجد سبيلاً إلى ذلك ليس فيه ما يخشى شرفه ، وسرعان ما شعر بالراحة تغمره حين وجد علوه في موطن قديمه .

الفصل الرابع

شانجة بن راميرو . خلعه عن العرش . اختيار أردونيو الرابع مكانه . استنجد شانجة بعده طوطة التي قامت ببعث سفارة إلى الناصر لمعاونة حفيدها . سفارة حسداي بن شبروط اليهودي . طوطة وحفيدها في بلاط الناصر . شانجة يسترد عرشه ويعرف بفضل الناصر عليه . موت الناصر سنة ٣٥٠ هـ . تقدير أعماله . ضبطه لأمور المملكة . تأسيسه الأزهراء .

الفصل الرابع

شانجة وموت الناصر

يقول أحد المؤرخين العرب (١) أن شانجة كان محارباً أجوف فارغاً ، وليس من شيك في أنه استعار هذه العبارة من مؤرخ ليوني (٢) معاصر ، ويقصد الكاتبان الاشارة الى أن شانجة جعل هدفه تحطيم نفوذ الأشراف واسترجاع ما كان لأسلافه من السلطان المطلق عليهم مما جعلهم يخسرون بالمقتلة والكرامة دون أن تتوفر له القدرة التي كان عليها أسلافه .

والواقع أن شانجة أضاع كل الكفاءات التي هيأت له . فنـ بـادـيـءـ الـأـمـرـ تـقـدـيرـ رـعـيـتـهـ العـظـيمـ فـأـصـبـعـ هـذـاـ الـأـمـرـ الـمـكـنـكـ عـاجـزاـ عـنـ اـمـطـاءـ جـوـادـهـ ،ـ وـكـلـاـنـ اـذـاسـارـ قـلـابـدـ لـهـ مـنـ مـرـاقـقـ يـعـتمـدـ عـلـيـهـ ،ـ بـمـاـ لـمـ يـلـبـثـ مـعـهـ أـنـ أـصـبـعـ مـثـارـ السـخـرـيـةـ ،ـ وـأـخـذـ النـاسـ يـتـهـامـسـونـ فـيـمـ بـيـنـهـمـ بـوـجـوبـ عـزـلـ هـذـاـ الـمـلـكـ المـضـحـكـ الـعـاجـزـ (٣)

أما فـرنـانـدـ كـوـنـثـالـتـ الـذـىـ كـانـ يـطـمـعـ أـنـ يـكـوـنـ صـانـعـ الـلـذـكـ وـالـذـىـ حـاـوـلـ ذـلـكـ مـنـ قـبـلـ ذاتـ مـرـةـ وـلـمـ يـفـلـحـ فـقـدـ الـهـبـ حـفـيـظـةـ الـلـيـوـنـيـنـ ضـنـدـ الـمـلـكـ (ـشـانـجـةـ)ـ وـأـثـارـهـ عـلـيـهـ (٤)ـ ،ـ مـاـ أـدـىـ بـرـجـالـ الـجـيـشـ لـتـدـبـرـ مـؤـامـرـةـ ضـدـهـ أـفـلـحـتـ اـذـ خـلـعـتـ فـيـ يـوـمـ صـافـيـ الـأـدـيـمـ مـنـ رـبـيعـ (٥)ـ سـنـةـ ٩٥٨ـ مـ [ـ رـبـيعـ الثـانـيـ ٣٤٧ـ هـ]ـ وـأـخـرـجـتـهـ مـنـ مـلـكـتـهـ .

وـبـيـنـماـ كـانـ هـذـاـ الـمـلـكـ الـمـخـلـوـعـ مـيـمـاـ بــ وـالـحـزـنـ يـمـلـأـ نـفـسـهـ شـطـرـ بـنـبـلـوـنـةـ حـيـثـ يـقـيـمـ خـالـهـ (٦)ـ غـرـسـيـةـ كـانـ فـرـنـانـدـ كـوـنـثـالـتـ مـجـتمـعـاـ بـرـهـطـ مـنـ الـأـشـرـافـ لـاـنـتـخـابـ مـلـكـ جـدـيدـ غـيرـ شـانـجـةـ ،ـ فـوـقـ اـخـتـيـارـهـ عـلـىـ اـبـنـ عـمـهـ (٧)ـ أـرـدـوـنـيـوـ الـرـابـعـ بـنـ أـذـفـونـشـ (ـالـرـابـعـ)ـ الـذـىـ لـمـ يـكـنـ هـنـاكـ مـاـ يـزـكـيـهـ عـنـهـمـ سـوـىـ مـوـلـدـهـ ،ـ فـقـدـ كـانـ قـمـيـنـاـ أـحـدـبـ (٨)ـ مـدـاهـنـاـ مـمـتـهـنـاـ (٩)ـ ،ـ قـدـ بـلـغـ مـنـ لـوـمـ الـطـبـيـعـ حـلـنـاـ تـعـارـفـ مـعـهـ الـقـوـمـ عـلـىـ تـسـمـيـتـهـ بـأـرـدـوـنـ الـخـيـثـ (١٠)ـ ،ـ وـزـوـجـهـ أـمـيرـ قـبـيـتـالـلـهـ بـاـبـتـتـهـ «ـ أـورـاكـ »ـ أـرـمـلـةـ (١١)

أردونيو الثالث التي أصبحت أذ ذاك - وللمرة الثانية - ملكة (١٢)
على ليون .

في اللحظة التي اجتمع فيها القوم لانتخاب خليفة شانجة كان هذا الأخير في بنبلونة يقص نبا الخطب الذي ألم به على جدته العجوز الطامحة « طوطة » التي كانت تدير دفة الأمور في نفارة باسم ولدها على الرغم من بلوغه سن الرشد منذ زمن بعيد ، وقد آلت طوطة على نفسها أن تقف إلى جانب حفيدها وأقسمت لتعيده إلى العرش مما كلها ذلك من ثمن ، ولم يكن هذا الأمر ميسراً حينذاك أذ لم يكن شانجة في مملكته القديمة من صديق ذي نفوذ يستطيع الركون إليه والاعتماد عليه ، ناهيك بما كانت عليه نفارة من الضعف الذي يستحيل عليها معه أن تهاجم بمفردها ليون وقشتالة معا ، فكان لزاماً على طوطة حينئذ أن تنشد لها خليفاً قوياً ، أضف إلى ذلك أنه كان ينبغي على شانجة - وهو يريد استرداد عرشه المسلوب - أن يستحصل ما جعله هزةً بين الناس ومداعاة لسخريتهم به ، وهو أن يعالج كرش بطنه الذي لم يكن طبيعياً عنه ، بل نشأ من علة جثمانية كان لا بد لها من أن تزول لو توفر لها الطبيب الحاذق والتطاخي الباهر ، غير أن هذا الحكيم المرتجى كان في قربة التي كانت رقنت مجتمع العبريات ، ولم يكن من العسير عليه أن يجد فيها بغيته ؛ لذلك رأت طوطة أن تبحث في قربة عن الخليف المنشود فعزمت على أن تسأل الخليفة أن يرسل لها أحد الأطباء لعلاج حفيدها ، وأن يمدّها بجيش لارجاعه إلى عرشه ، ولا مشاحة في أن هذا العمل كان جرحاً لكباريائها ، كما كان من أنكى الأمور على نفسها أن تجد نفسها مكرهة على التماس المعونة من « كافر » ظلت تناصبه العدا ، والغروب أكثر من ثلاثة سنّة ، كما أنه هو نفسه لم يكن يدع عاماً يمر دون أن يغير على مملكتها فيخرب سهولها ويحرق قراها ، غير أن حبها لحفيدها ورغبتها الملحة في أن تراه على العرش ثانية وغضبها لما عومل به من مذلة ٠٠٠ كل ذلك كان أقوى من حقدتها الطبيعي على الخليفة ، فأوفدت سفاره (١٣) من لدنها إلى قربة .

ولما أفضى السفراء إلى الخليفة بما جاؤوا إليه فيه أجابهم بأنه سعيد أذ يرسل إلى شانجة مطبياً ماهراً وآنه على استعداد لمعاونته بالرجال حتى يسترد عرشه المسلوب ، ولكن على شروط خاصة سيحملها أحد وزرائه إلى بنبلونة .

وعاد المبعوثون النفاريون ، وأرسل عبد الرحمن في طلب اليهودي حسدائي وزوجته بتعاليمه ثم أذن له في الشخصوص إلى بلاط نفارة ، وكان الخليفة موقعاً كل التوفيق في اختياره حسدائي لما كان يجمعه في شخصيه

من كل الصفات التي تؤهله مثل هذه المهمة ، فقد كان يجيد الحديث بلسان النصارى اجاده تامة ، كما كان في الوقت ذاته طبيباً عظيماً وسياسياً محنكاً ، وكان الجميع يثنون على آرائه ومواهبه وفطنته ومقدراته البالغة ، كما أنه حدث قبل قليل أن وفد رسول من المانيا فذكر أنه لم ير قط رجلاً بلغ من الحنكة والدهاء ما بلغه حسداً (١٤) بن شبروط ، الذي ما كاد يبلغ بنيلونة حتى اكتسب ثقة شانجة لما أخذه على نفسه من إبرائه من عمله ووعده بالصحة العاجلة ، ثم أخبره أن الخليفة يطلب منه ثمن وقوفه إلى جانبه وهو أن يتخلّى له عن عشر قلاع ، فوعده شانجة باجابة طلبه حالماً يتبوأ العرش .

لم يكن هذا كل ما طلبه حسداً بل سائل طوطة الحضور إلى قربة في صحبة ابنها غرسية وحفيدها شانجة ، وأصر الخليفة على هذا الطلب ارضاء لكرياته ، ورغبة منه في أن يرى شعبه مشهداً لم يسبق له أن أبصر مثيله أبداً حين ترکع عند قدميه ملكة نصرانية وملكان مسيحيان متسللين إليه أن يعيّنهم بجيشه .

ويحق للمرء أن يتوقع الرفض من ناحية طوطة المتكبرة ، إذ الواقع أن رحلتها إلى قربة كانت أكثر أدلةً من أن تكون مصادفة مع عدوها القديم ، لذلك كان هذا الجانب من مهمة حسداً أكثر جوانب سفارته دقة وحساسية وكان أمر تأديبة هذم المهمة – لاسيما اقناعها بالسفر إلى قربة – يتطلب حنكة كبيرة ومهارة فائقة ، غير أن حسداً أثبت ما عرف عنه من أنه من أمر رجالات عصره إذ استطاع التغلب على ملكة نفارة المتكبرة بسحر حديثه ونضيج تفكيره وسعة دهائه ، وقوة مكره كما يقول أحد شعراء هذا العصر من اليهود ، فاقتنعت طوطة أن ليس من ثمن غير هذا لارجاع حفيدها إلى ملكه ، وجاهدت نفسها جهاداً عنيناً حتى رضيت بالرحلة التي أرادها عليها اليهودي حسداً .

حينذاك أبصرت إسبانيا الإسلامية مشهداً غريباً حيث سارت ملكة نفارة في وراء ميممة شطر قربة ، ووراءها جمع غفير من الأشراف والقسس ، وفي صحبتها غرسية وشانجة التمس الذي لم يكن قد استرد عافيته تماماً ، والذي كان يسير متكتناً على حسداً .

وإذا كان هذا المشهد قد أرضى كبار المسلمين الوطني فقد كان أكثر ارضاء لكريات اليهود الذين رأوا أن تمام الأمر إنما كان على يد رجل من بنى جلدتهم فتباري بشعراً لهم في تمجيد عودته ، وقال أحدهم :

طاطشى الهام أيها الجبال فهذا شيخ يهودا حيالك .

ولتمتليء جميع الأفواه بالضحك والفرحة .

ولتنحن الأرض الجدباء ولتبتسم الصحراء ولتزدهر الورود

جاء شيخ الجميع ٠٠٠

لقد جاء وفي ركابه الطرب والغناء

لقد كانت المدينة العظيمة هنا – وقت غياب حسداى عنها – تعلو
 مبانيها الرائعة الكابة ويلفها كلها الظلام ٠
 أما فقاراؤها الذين لم تعد عيونهم تكتحل بمرآة الوضاء كالنجوم ٠
 فقد علتهم غيره ٠٠

واستبد بنا المجبرون وأخذوا في يبيتنا وشرائنا كما لو كنا عبيدا
 وتلمظوا لازداد ثرواتنا ، وزأروا زئير الليوث
 فاكتتبتنا الفزع وتملكتنا الرعب لأن المدافع عنا لم يكن موجودا
 لقد وهبنا الله إيه زعيما ، وقربه من الملك مكاننا علينا ٠
 فسماه بالأمير ورفع منزلته على كثيرين غيره ٠
 فهو أن سار لم يجزئ أحد على فتح فمه
 وقد أمن ضراوة خنازير الغابات والمدن بفضل لسانه وحده
 لا اعتمادا على العراب والسيوف (١٥)

ولا بلغت الملكة والملكان وأتباعهم قرطبة تلقاءهم الخليفة في قصره
 بمدينة الزهراء (١٦) لقاء رائعا كان له وقعة على الغرباء ، وكان ذلك
 مناسبا كل المناسبة لاعطائهم فكرة بالغة عن سلطانه وثرائه ، ولا شك أنها
 كانت لحظة مسروor بالغ لعبد الرحمن حين أبصر عند قدميه ابن عدوه اللنود
 راميرو الثاني (١٧) الذي انتصر في وقعتي شلمونة والخندق ، كما سره
 أن يرى الملكة الشموس المتکبرة التي قادت بنفسها الجيوش الغالية في
 هاتين الوقعتين الحالتين ، ولكن مهما كان شعوره الداخلي فقد كتمه
 واصطنع البشاشة في لقاء ضيوفه فجدد له شانجة ما كان قد قطعه على
 نفسه لحسداى من تسليمه القلاع العشر التي أرادها الخليفة ، كما تم
 الاتفاق على أن يهاجم الجيش الإسلامي مدينة ليون في الوقت الذي يهاجم
 فيه النفاريون قشتالة استدراجا لقوات فرناندو كونثالث للخروج من هذه
 الناحية (١٨) ٠

في هذه الأثناء لم يكن عبد الرحمن قد حول بصره عن إفريقية ،
 بل كان مجددا كل الجد في تجهيز قواته واعدادها ، وفي نفس السنة التي
 وصلت فيها ملكة نفاراة إلى قرطبة أبجر (١٩) أحمد بن يعلى بجيشه كثيف
 قوامه سبعون سفينة ٠

ولازم التوفيق هذه الحملة فأحرقت مرسى الخزر المعروف اليوم
 باسم La Calle وخربت أرباض سوسة وطبرقة (٢٠) ٠

كذلك لم ينصرم غير وقت قليل حتى زحف الجيش الإسلامي على مملكة ليون وفي صحبته شانجة الذي تخلص من بدانته المفرطة بفضل عناء حسدي له ، وأصبح – كما كان في سالف أيامه – سرير الحركة نشيطا (٢١) .

كانت سحورة أول بلد سقطت في يد المهاجدين (٢٢) . وما جاء شهر ابريل ٩٥٩ م (= صفر ٣٤٨ هـ) حتى كان كثير من جهات المملكة قد دانت بالطاعة لشانجة (٢٣) ، ومع ذلك فقد ظلت العاصمة في يد أردونيو الرابع ، لكنه ما لبث أن ول عنها مدبرا طلبا للنجاة عند الاشتوريين (٢٤) ، ومن ثم خلصت في النصف الثاني من سنة (٢٥) ٩٦٠ م (= ٣٤٩ هـ) لشانجة الذي ما كاد أن يسترد لها ويسترد مملكته حتى أنه وفدا إلى الخليفة شاكر الله يده عليه ومعاونته آياه، وكتب في الوقت ذاته إلى جميع جيرانه يعلن اليهم نبأ استرداده عرشه ، وأخذ – في كتبه هذه – يسلق بالسنة حداد كونت قشتالة (٢٦) لغدره به ، وغير بعيد أنه كان لا يزال يخشى جانبه ، ييد أنه إذا كان هذا صحيحا إلا أنه سرعان ما تلاشت مخاوفه فقد شن النصاريون الغارة على قشتالة وفق ما تم الاتفاق عليه من قبل ، وفي هذه السنة ذاتها – أعني سنة ٩٦٠ م (= ٣٤٩ هـ) – أوقعوا الهزيمة بالسكنون ، وأسعدتهم ظروفهم فأخذوه أسيرا ، ومنذ ذلك الوقت حاقد الفشل بأردونيو (أردون الرابع العربي) وأصبح ممقوتا محقرًا في عيون الجميع إذ لم يستطع التمكّن من العرش حتى ذلك الوقت إلا بفضل نفوذ فرناندو الذي أوجده وصنعه (٢٧) ، ومن ثم طرده الأشتوريون من إقليمهم ودانوا بالطاعة لشانجة فلاذ أردون ببرغش (٢٨) ، وستانلي بي فيما بعد .

★ ★ ★

بينما كانت هذه الأحداث تجري في الشمال إذا بال الخليفة يغاطر بنفسه من غير تبصر وسط رياح مارس الهرباء ، فطرقته علة خيف عليه منها ، إلا أن أطباءه نجحوا هذه المرة في إنقاذه ، فلما كان شهر يوليوليو (ربيع الآخر) نقه من مرضه واستقبل كبار رجاله ، لكن عافيته لم تكن إلا أمرا ظاهريا فيما لبث المرض أن عاوده فلطف نفسه الأخير في السادس عشر من أكتوبر (٢٩) سنة ٩٦١ م [الثالث من رمضان ٣٥٠ هـ] ، وقد أوفى على السبعين من عمره بعد أن حكم تسعة وأربعين عاما .

ليس ثمة اعتراض في أن عبد الرحمن الثالث كان أعظم خلفاءبني أمية الذين حكموا الأندلس ، وكانت أعماله آية الاعجاز في إنجازها فقد جاء في وقت كانت الأندلس فيه نهبا للفوضى والحرروب الأهلية كما أنها كانت قد تفرقت أحزانا وتقاسمها رهط من الأمراء من مختلف

الجنسيات ، كما كانت عرضة لغزوات مسيحيي الشمال المستمرة بلا انقطاع ، وكان البلد على وشك أن يذهب لقمة سائفة لليونيين أو [لفاطميين (٣٠)] افريقيا .

ولقد تخطى عبد الرحمن كثيرا من العقبات الكاداء التي اعترضت طريقه ، فأنقذ بلاد الأندلس من أوصابها الداخلية ومن السيطرة الأجنبية على السواء ، وجعلها أقوى مما كانت عليه في الماضي ، وبوأها مكانة لم تشغلها قط من قبل ، فانتظمت أمورها بفضل سياساته : وعدها الرخاء ، كما بلغت الدولة من الهيبة والاحترام في الخارج مبلغا عظيما وزادت ماليتها بعد أن كانت مشرفة على الأفلان وقت توليه الحكم ، حتى أوقفت على الجندي ثلث جباية الإمبراطورية الذي كان يبلغ في العام الواحد (٦٢٤٥٠٠) ستة ملايين ومائتين وخمسة وأربعين ألف دينار) واحد آخر الثالث الثاني لوقت الحاجة وخصص الباقي للعمارة (٣١) ، حتى إذا كان عام ٩٥١ م (= ٣٤٠ هـ) بلغ مجموع ما في خزائنه عشرة عشر ملايين دينار

ويؤكد أحد الرحالة المسلمين - وكان خيرا بالشئون المالية - أن عبد الرحمن الثالث والحمداني - حاكم الجزيرة اذا ذاك - كانوا أغنى أبناء هذا العصر (٣٢) .

ولقد عم الرخاء الأندلس وأصبح الناس في سعة ، وازدهرت الصناعة والزراعة والتجارة والفنون والمعارف ، وكان نظر الغريب لا يقع في البلاد إلا على حقول مخضرة ، تبروي وفق نظام دقيق قائم على أساس علمية ثابتة أحال الأراضي إلى جنات مشمرة دائنة القطف ، كما استرعى انتباه (ابن حوقل) هذا النظام (٣٣) الكامل الذي كان سائدا في الأقاليم البعيدة والذي كان الفضل فيه يرجعها إلى سياسة عبد الرحمن اليقظة ، كما أدهشه رخص أسعار الغلال والفاواكه اللذيذة ، وأعجبه ما كان ينعم به الناس من فاخر الثياب ومن الشراء الذي كان يسمح لكل فرد بركرוב البغال بدلا من الترجل (٣٤) .

وشهدت قرطبة والمرية وغيرهما من البلدان كثيرا من الصناعات ، وتقدمت التجارة فكانت رسوم الصادر والوارد تؤلف الجزء الأعظم من دخل الدولة كما جاء ذلك في تقرير رئيس الجمارك (٣٥) .

ولم يكن يدانى قرطبة في كثرة سكانها الذين بلغوا نصف مليون نسمة، ومساحتها التي بلغت ثلاثة آلاف مسجد، وقصورها الفخمة التي أربت على ثلاثة عشر ألف بيت ، وحماماتها الثلاثمائة وأرباraphها الثانية والعشرين (٣٦) . أقول لم يكن يضاهى قرطبة في ذلك كله وفي سعتها وبهايتها غير بغداد التي يميل أهلها لمقارنتها بها (٣٧) . وشرق

جسيت قرطبة وغرب حتى بلغ أقصى ربع ألمانيا فسمها القاضي السكسوني رزفيينا « زينة الدنيا » (٣٨) وهو الكاهن الذي ذاع اسمه في النصف الثاني من القرن العاشر بما نظمه من القصائد وألفه من المسرحيات اللاتينية، ولم تكن المدينة المتنافسة لها [وهي الزهراء] التي بناها عبد الرحمن بأقل منها بهاء ، فلقد سألته احدى محظياته يوماً أن يوصي لها بضيغ جسميم كان قد نجاه جانباً لافتداء من وقع من المسلمين أسرى في يد العدو فأنبأه عماله أنهم لم يجدوا أسيراً واحداً في مملكته نفارة أو ليون بعد أن جاسوا خاللهم تفيفيشاً عن الأسرى ، فلما سمعت جاريته الزهراء ذلك قالت له : « اشتئتيت لو بنيت لي مدينة تسميتها باسمي وتكون خاصة بي » . فوقعت هذه الفكرة عند الخليفة موقع الرضا ، وكان يهوي اقامة العمار شأنه في ذلك شأن جميع الأمراء العظام .

فلما كان يوم ١٩ نوفمبر (٣٩) سنة ٩٣٦ م [أول المحرم سنة ٣٢٥ هـ] وضع في الشمال من قرطبة أساس مدينة سميت بالزهراء ، ولم يأت جهداً في جعلها آية في الفخامة وجعل في بنائها عشرة آلاف عامل واستعمل ألفاً وخمسمائة دابة . واستغرق إنشاؤها ربع قرن من الزمان .

ومع ذلك فقد مات منشئها قبل أن يتم الفراغ منها ، وكان الخليفة قد وعد كل مقيم بها أربعمائة درهم ، فتقاطر الناس لسكنها . وأما قصر الخليفة الذي اجتمع فيه عجائب الشرق والغرب معاً (٤٠) فقد كان بالغ الضخامة ، كما كان يوجد في حريمه ست آلاف امرأة (٤١) .

لقد كانت قوة عبد الرحمن مكينة فمكنته عمارته البحريدة الفخمة من منافسة الفاطميين في سيادة البحر الأبيض المتوسط ، وضمنت له الاستحواذ على سبعة مفاتيح بلاد المغرب – كما كان عنده جيش كثيف كامل السلاح لعله أحسن جيوش عصره (٤٢) ، وهو الجيش الذي أثار له الغلبة على نصارى الشمال ، فخطب وده الملوك الشامخون بآتونفهم تيها ، وجاءاته رسول إمبراطور القسطنطينية وملوك ألمانيا وإيطاليا وفرنسا تشنده صداقته .

وطبيعي أن تؤدي هذه الحال إلى خير النتائج ، غير أن الذي يبعث الباحث على الاعجب والدهشة حين يدرس هذه الفترة العظيمة هو الفاعل نفسه أكثر من العمل ، وكذلك ألمعية هذا الذكاء اللوذعى الذي كانت لا تفوتة شاردة إلا وعاها ، ولا واردة إلا حفظها ، والذي أبدى اهتماماً عظيماً بكل ما يعرض مهما دقت تفاصيله .

وليس من شك فى أن هذا الرجل الطلعة الحكيم الذى تبلورت فيه
وحدة الأمة والقوة ، والذى استطاع أن يوجد نوعا من توازن القوى
بفضل محالفاته ، والذى بلغ من تسامحه أنه كان يستشير الرجال أيا
كان دينهم . . . أقول ليس من شك فى أن هذا الرجل كان يعد من
حكام العصور الحديثة المثاليين أكثر من أن يكون ملكا من ملوك العصر
ال وسيط .

الفصل الخامس

أوليات خلافة الحكم بن عبد الرحمن . وصول أردونيو
الخيثى إلى مدينة سالم وترحيب الخليفة به . أردونيو فى
الزهرا . الحكم يعد بالتأييد والنصر وهو يعد بالوفاء . شانجة
يخاف المواجهة بين الحكم وبين أردونيو فيبعث فى طائب تجديد
الاتفاق الذى كان بينه وبين عبد الرحمن الناصر . ثم
يتراجع لموت أردونيو . الحكم يؤدب السكونات
فيعودون للمواجهة . شانجة يهاجم جليقية ثم موته مسموما .
ابنه رامiro الثالث يخلفه تحت وصاية عمته الراهبة . اهتمام
الحكم بالكتب والمكتبات . طلبه كتاب الأغاني . المدارس
بالمجان . جامعة قرطبة وعلماء الشرق بها .

الفصل الخامس

خلافة الحكم بن عبد الرحمن

مات عبد الرحمن الثالث فلم يحزن لموته أحد في بلاط ليون ولا ببنبلونة على الرغم من الخدمات الجليلة التي أداها لهما ، بل الذي حدث فعلا هو أن كلاً منها رأى في موته الفرصة المتاحة لنقض الاتفاقيات التي كانت بينه وبين المسلمين للتخلص من السيادة الإسلامية التي رأى فيها كلَّاهما غلاً ثقيلا له بعد أن لم يعد له صالح ما في يقائهما منْ زمن بعيد ، وخيل إلى رجال هذين البلطيقين أن هذه خير فرصة يتبعُى عليهم انتهازها للخلاص من كل ما التزموا به للمسلمين لاسيما وأن الحكم الثاني خليفة الناصر كان رجلاً أميل إلى الإسلام والموادعة ، وكان الظن به عندهم أنه لن يصر على تنفيذ معاهدة عقدها أبوه . وعلى أية حال فقد كان من الحكمة التريث حتى تشبِّحُ حرب تكشف عن مقدار نجاحه بالنسبة لسلفه .

وسرعان ما تهيأت الظروف لأن يستلتفت الحكم انتباه جيرانه ، ذلك أنه لما طُلب شانجيه بالوفاء بتسليم القلاع المتفق عليها أخذ يماطل ويسوف ويتحايل لتأجيل الوفاء بهذا الوعد (١) ، كما رفض غرسية سؤاله بتسليميه أسيمه فرناندي كونثالث (٢) ، بل لقد ذهب أبعد من ذلك فرد عليه حريته بعد أن وعده أن يكون معه في مصاولة صهره أردونيو الرابع ، وبر له بوعده فأمر بأن ينتزع أردونيو في فظاظة من بين زوجته وأبنته فكان له ما أراده وانتزعوه من بينهم ، ثم نسأله حرس قوى إلى الأقليم الإسلامي (٣) ، وحينئذ قام فرناند ولم يكن مقيداً قط بمعاهدة كملكي نفاره ولیون - وجاهر المسلمين بالعداء (٤) مما دفع الحكم في فبراير ٩٦٢ م (= ٣٥١ هـ) للكتابية إلى قواه وعماله بالتأهب للحرب (٥) .

في هذه الأثناء وصل أردونيو الخبيث إلى مدينة سالم يصحبه العشرون نبيلًا الذين ظلوا وحدهم مقيمين على الولاية له ، فشاهدوه في هذه المدينة ما أعده المسلمون للحرب ، فنظرت هذه الحال الأميـن في نفس

أردونيو ، ولما كان ابن عمه قد استرد العرش على يد عبد الرحمن فقد فكر في أن يكون رجوعه هو الآخر إلى عرشه على يدي ولده الحكم ، فأبى ل غالب والي مدينة سبتة رغبته في الشخصوص إلى قرطبة ليسائل الخليفة حمایته أيام ، فشاور غالب الخليفة الحكيم . ماذا يكون رده عليه واجبته إيساه .

أما الخليفة الذي لم يسطعه أن يكون تحت يده مدع والذي لم يمت في الموضوع نهائيا فقد أجاب بأن في استطاعة غالب أن يسوق أردونيو وحاشيته إلى قرطبة ، وخرجت لقائهم كوكبة من الفرسان بعث بها الحكم لصحابتهم ، كما لقيتهم كوكبة أخرى أكثر من سبقتها عدا عند أرباض العاصمة ، ولم يدخل أردونيو وسعا في اكتساب الطف الجميل من عسكر الخليفة الذين أخذوا يتعلّقون ، فما كاد يدخل قرطبة حتى سأله القوم أن يأخذوه إلى قبر الناصر فلما أوقفوه عند القبر تقدم نحوه في خشوع والتفت إليه وجشى على ركبتيه واستمطر الرحمة على روح السلطان الذي خلعه عن العرش قبل موته بقليل ، لكن كان الأمل في استرداد الصوابان قد ملك عليه نفسه فأنساه كل شيء فلم يعد يحجم عن قبول أية أهانة تلحقه مادامت تبلغه هدفه وتحقق له بغيته .

وقضى أردونيو يومين في قصر (٦) فخم أعد لنزوله ، ثم جاء الأذن بالتوجه إلى مدينة الزهراء مقابلة الخليفة فتدثر برداء وعباءة من الحرير الأبيض ، وكان ذلك بطبيعة الحال دليلاً جديداً على ولائه للأمويين فقد كان البياض شعارهم ، ووضع على رأسه قبعة رصعت بالأحجار الشمينة وأقبل عليه أمراء الأندلس النصارى كالوليد بن خيزان قاضي قرطبة وعبيد الله بن القاسم مطران طليطلة ليحضوا به إلى الزهراء ويفقهون على آداب اللقاء ومراسيمه التي كان بلاط قرطبة يوليها غاية اهتمامه .

وسار أردونيو ورفاقه الليونيون بين صفوف الجنود الذين اصطفوا على جانبي الطريق إلى مدينة الزهراء ، ظهرت البهشة على الأمير النصراوي ورجاله ، وعاتهم الرهبة . من بهذه المظاهر الحربية فغضباً من أبعاصهم ورسموا الصليب على صدورهم ، حتى إذا بلغوا أول باب من أبواب القصر ترجلوا جميعاً سوى أردون ورجاله الليونيين ، فلما بلغوا الباب المسمى بباب « السدورة » ترجل الآخرون ، ولم يبق على الخيل سوى أردونيو والقائد ابن طملس فقد ظلا على جواديهما حتى صارا على مقربة من آيوان صفت فيه الآرائك ليتخذ منها هو ورجاله مجلسهم . ولقد شاهد هذا الآيوان من قبل شانحة ينتظر الأذن له بالدخول بين يد الخليفة حينما جاءه ملتمساً مساعدته .

ومضت فترة من الوقت أذن بعدها للبيونيين بدخول قاعة الاستقبال .

فَلَمَا بَلَغَ أَرْدُونِيُو بَابَهَا نَزَعَ قَبْعَتَهُ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ وَخَلَعَ عَبَاءَتَهُ وَبَرَّسَهُ دَلِيلًا عَلَى الاحْتِرَامِ ، ثُمَّ تَقْدَمَ حِينَ أَمْرَ بِالْتَّقْدِمِ حَتَّى صَارَ قَبْلَةَ الْعَرْشِ الَّذِي كَانَ الْخَلِيفَةُ جَالِسًا عَلَيْهِ وَحَوْلَهُ أَخْوَهُ وَأَقْارِبَهُ وَوَزَرَاؤُهُ وَقَاضِيهِ وَفَقَهَاؤُهُ ، وَجْهَنِي عَدَةَ مَرَاتٍ ، وَكَانَ كُلَّمَا تَقْدَمَ خَطْوَةً خَرَ ساجِدًا حَتَّى وَاجَهَ الْخَلِيفَةَ فَمَدَ هَذَا إِلَيْهِ يَدَهُ فَقَبَلَهَا أَرْدُونِيُو ثُمَّ تَرَاجَعَ إِلَى الْوَرَاءِ بَظُورِهِ وَجَلَسَ عَلَى أَرْبَعَةِ مِنْ الْحَرَبِيِّ الْمَشْجُرِ عَلَى بَعْدِ خَمْسَةِ عَشَرَ قَدْمًا مِنَ الْعَرْشِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ السَّادَةُ الْلَّيْوَنِيُّونَ وَفَعَلُوا فَعْلَ مَوْلَاهِمُ مَعَ الْخَلِيفَةِ وَقَبَلُوهَا يَدَهُ ثُمَّ عَادُوا إِلَى مَكَانِهِمْ مَصْطَفَيِّنَ وَرَاءَ سَيِّدِهِمُ الَّذِي كَانَ يَقْفَى عَلَى كَثْبِ مِنْهُ الْوَلِيدِ بْنِ خَيْرَ زَانَ (٧) الَّذِي قَامَ بِالتَّرْجِيمَ بَيْنَ الْطَّرَفَيْنِ .

وَأَطْرَقَ الْخَلِيفَةُ لِحَاظَاتٍ حَتَّى أَفْرَخَ رُوعَ الْمَلَكِ السَّابِقِ مَا شَاهَدَهُ مِنْ لَقَاءِ رَائِعٍ لَمْ يَكُنْ يَدُورَ قَطُّ بِخَلْدِهِ ثُمَّ قَالَ الْخَلِيفَةُ لَهُ « لَيْسَرُكَ اقْبَالَكَ ، وَيَغْبِطُكَ تَأْمِيلَكَ فَلَدِينَا مِنْ حَسْنِ رَأْيِنَا وَرَحْبُ قَبْولَنَا فَوْقَ مَا قَدْ طَلَبْتَهُ » ، فَلَمَّا تَرَجَّمَتْ هَذِهِ الْكَلْمَاتُ الْعَذَابُ لِأَرْدُونِيُو تَهَلَّلَ وَجْهُهُ بِالْبَشَرِ وَهُبُّ وَاقْفَا وَتَقْدَمَ فَقَبْلَ الْبَسَاطِ الَّذِي يَغْطِي سَلَالَمَ الْعَرْشِ وَقَالَ : « أَنَا عَبْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَوْلَايِ الْمُتَوْرِكِ عَلَى فَضْلِهِ ، الْقَاصِدُ إِلَى مَجْدِهِ ، الْمَحْكُومُ فِي نَفْنَتِهِ وَرَجَالِهِ ، فَحِيشَاهَا وَضَعَنِي مِنْ فَضْلِهِ وَعَوْضَنِي مِنْ خَمْتَهِ رَجَوْتُ أَنْ أَتَقْدِمَ فِيهِ بَنْيَةً صَادِقَةً وَنَصِيبَعَةً خَالِصَةً » ، فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : « أَنْتَ عَنَدَنَا بِمَحْلِ مِنْ يَسْتَحْقُ حَسْنَ رَأْبَنَا ، وَسِينَا لَكَ مِنْ تَقْدِيمِنَا لَكَ وَتَفْضِيلِنَا إِيَّاكَ عَلَى أَهْلِ مَلْكِكَ مَا يَغْبِطُكَ وَتَعْرَفُ بِهِ فَضْلُ جَنُوحَكَ إِيَّاكَ وَاسْتَظِلَالَكَ بِظَلَّ سَلْطَانَنَا » .

فَلَمَا فَرَغَ الْخَلِيفَةُ مِنْ كَلَامِهِ هَذَا عَادَ أَرْدُونِيُو فَخَرَ ساجِدًا وَابْتَهَلَ دَاعِيَا لَهُ ثُمَّ أَفْصَحَ عَنْ مَرْمَاهِ بِقُولِهِ : « أَنْ شَانِجَةُ ابْنِ عَمِّي تَقْدَمَ إِلَى الْخَلِيفَةِ السَّابِقِ مُسْتَجِيراً بِهِ مِنْ فَكَانَ مِنْ أَعْزَازِهِ إِيَّاهُ مَا يَكُونُ مِنْ مُثْلِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَلُوكِ وَأَكَارِمِ الْخَلِفاءِ مِنْ قَصْدِهِمْ وَأَمْلِهِمْ ، وَكَانَ قَصْدُهُ مُضْطَرُّ مُضْطَرَّ قَدْ شَانَهُ رَعِيَّتَهُ وَأَنْكَرَتْ سِيرَتَهُ وَاخْتَارَتْنِي مَكَانَهُ مِنْ غَيْرِ سَعْيِنِي – عَلَمَ اللَّهُ ذَلِكَ – وَلَا دُعَاءً عَلَيْهِ ، فَخَلَعَتْهُ وَأَخْرَجَتْهُ عَنْ مَلْكِهِ مُضْطَرِّ مُضْطَهِداً ، فَتَطَلَّوْلُ عَلَيْهِ – رَحْمَهُ اللَّهُ – بِأَنْ صَرَفَهُ إِلَى مَلْكِهِ وَقُوَّى سَاطَانَهُ وَأَعْزَزَ نَصْرَهُ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَقُمْ بِفَرْضِ النَّعْمَةِ التَّيْ أَسْدَدَتْ إِلَيْهِ ، وَقَصَرَ فِي أَدَاءِ الْمَفْرُوضِ عَلَيْهِ فِي حَقِّهِ وَحَقِّ مَوْلَايِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِ . وَأَنَا قَدْ قَصَدْتُ بَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَغَيْرِ ضَرُورةِ مِنْ قَرَارَةِ سَلْطَانِي وَمَوْضِعِ أَحْكَامِي ، مُحَكَّماً لَهُ فِي نَفْسِي وَرَجَالِي وَمَعَاكِلِي وَمِنْ تَمْوِيَّهِ مِنْ رَعِيَّتِي ، فَشَتَّانَ مَا بَيْنَنَا بِقَوْةِ النَّقَةِ وَمَطْرَحِ الْهَمَّةِ » .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : « قَدْ سَمِعْنَا قَوْلَكَ ، وَفَهَمْنَا مَغْزَاكَ ، وَسَوْفَ يَظْهُرُ مِنْ أَقْرَاضِنَا إِيَّاكَ عَلَى الْخَصْوصَةِ شَانَهُ وَيَتَرَادُفُ مِنْ احْسَانَنَا إِلَيْكَ بِهِ أَضْعَافَ

ما كان من أبينا رضي الله عنه إلى تدرك ، وإن كان فضيل التقدم بالجنوح إلىينا والقصد إلى سلطاناً فليس ذلك مما يؤخرك عنه ولا ينقصك مما أللناه ، وسنصرفك مغبوطاً إلى بذلك ونشد أواخى ملوك ونعتقد لك بذلك كتاباً يكون بيده تقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك ، وسيترافق عليك من أفضالنا فوق ما احتسبته ، والله على ما نقول وكينل ٠

فكسر أردونيو الخاضوع وأسهب في الشكر ثم انتصب واقفاً وغادر الغرفة مستديراً ، فلما دخل الحجرة المجاورة أفضى ملوك كان يتبعه من الخصيان عدا بهره وأذلهه من جلال المشهد الذي أبصرته عيناه حتى لقد خر ساجداً أمام مقعد اعتماد الخليفة الجلوس عليه ، ثم أخذوه بعد ذلك إلى جعفر الحاجب فأظهر أردونيو له الاحترام وهم بتقبيل يده لولا أن جذبها الحاجب وعانقه ثم أجلسه إلى جواره ، وأكد له أن الخليفة لا بد وأن يبر له بكل ما قطعه على نفسه من عهد له ، ثم ناوله الخلع التي جلعتها الخليفة عليه وعلى من معه ، كل قدر استقامته ومرتبته ، وخرج الجميع مع ملوكهم بعد توديعهم الحاجب قاصدين البهو فوجد أردونيو فرساًقطواناً في سرجه ولجامه أخرجوه من أجله من استبل الخليفة فامتراه ، وعاد والأمل يملأ جوانحه مع رجاله الليبيين والقائد ابن طمس ومضوا إلى القصر النازلين به (٨) ٠

ولم ينقض زمان طوبل حتى أسلموه معااهدة ليمهرها قاطعاً فيها على نفسه العهد أن يعيش في سلم دائم مع الخليفة ، وأن يسلمه ابنه غرسية رهينة لتأكيد العهد ، وألا يخالف أبداً فراناند كونثالت ، فأمضى أردونيو ذلك كله واذ ذاك وضع الحاكم تحت تصرفه فريقاً من الجيش بقيادة غالب (٩) ، ولم يكن بهدا بل جعل له بعض المستشارين كالوليد قاضي نصارى قرطبة ، وأصبح (١٠) بن عبد الله بن نبييل كائزليكتها (١١) وعيبد الله بن قاسم مطران طليطلة (١٢) بعد أن أمر الذين وكل إليهم العناية بغرسية أن يبذلوا كل ما في وسعهم لارجاع الليبيين إلى طاعة أردونيو (١٣) ٠

كان لهذه الاستعدادات دوى عظيم في كل مكان ، ولم يكن القوم مخطئين حين طمعوا أن يدب الخوف في نفس شانجة الذي أدرك حرج مركزه وصعوبة موقعه ، إذ كانت جلية تتذكر عليه مكانته ولا تعرف به (١٤) ، لذلك لم يكن من العسير على أردونيو الاعتماد على معونة هذا الأقليم له إن هو دخله بالجيش الإسلامي . أما أقاليم المملكة الأخرى التي خضعت مكرهة لشانجة فقد توقع الجميع أنها سوف تؤثر خلجه للمرة الثانية بدلاً من أن تغامر بنفسها في حملة من أجله

كذلك استعد شانجة من جانبه فأرسل (١٥) في شهر مايو إلى الخليفة بقرطبة بعض الأشراف والمطارنة مجددين له البيعة التي قطعها على نفسه في تنفيذ كل ما تضمنه المعاهدة (١٦) ، لهذا لم يفكر الحكم – وقد نال كل ما ابتهج – في الوفاء بالعهود التي قطعها لأردونيو، وذهب أدرج الرياح كل ما أبداه أردون الأمة البعض من التذلل المعيّب، والظاهر أنه لم يستطع تحمل ضياع آماله بدوا فلم يعد أسفه يجري على ألسنة الأندلسيين أذ يقال انه ما لبث أن مات (١٧) بقرطبة ، وكل ما هناك يحمل على الاعتقاد أنه مات قبل نهاية سنة ٩٦٢ م . وبموته تلاشت مخاوف شانجة الذي ما لبث أن أعلن استقلاله ونكلت (١٨) بعهوده اعتمادا منه على مساعدة (خصمه فرناندو) كونت قشتالة وملك نفارة والكونتين القطلونيin بوريل ومieron له . وحينذاك اضطر الحكم إلى شن الحرب على النصارى فزحفت جيوشه أولا على قشتالة مستولية على حصن شنت اشتيبن دي جرمان سنة ٩٦٣ م (= ٣٥٢ هـ) فارغمت بذلك كونت فرناندو على طلب الصلح (١٩) الذي نكله قبل أن ينعقد ، فحاربه غالب وكانت المعركة بينهما في أنتيسة وكان النصر لغالب ، كما أن يحيى بن محمد التجيبي – حاكم سرقسطة – هزم الملك غرسية الذي فقد مدينة قلهرة الهمامة التي أحاطها الحكم باستحكامات جديدة (٢٠) ، كما أعاد في نفس الوقت ترميم ما تهدم من حصن شنت اشتيبن في قشتالة وشحنه بالرجال والمقاتلة .

وقد انتهى القول أنه على الرغم من كراهية الحكم للحرب التي قامت رغم أنه إلا أنه أibil فيها البلاء الحسن حتى اضطر أعداء للسعى في الصلح ، فكان أولهم شانجة ملك ليون سنة (٢١) ٩٦٦ م (= ٣٥٧ هـ) واقتفي أثره بوريل ومieron اللذين حاقت بهما المصائب الجمة فتكثلا بهدم أسوار قلاعهما القريبة من التخوم الإسلامية (٢٢) ، وبعد غرسية ملك نفارة – بعض الأمراء والقساوسة إلى قرطبة ، كما أن شريفا جليقيا هو الكونت روزيريك فولسك أنهض أنه رسول من قبله إلى الخليفة في طلب الصلح فلقيها الحكم بالترحاب العظيم ووصلها بخلعة (٢٣) ثمينة .

كان السلام الذي عقده الخليفة مع جل جيرانه طويلا المدى إذ كان الحكم نفسه يميل للسلم بكل جوانحه ، كما أصبح النصارى في حال من الفرض الشاملة فلم يعودوا للتفكير في امتناع السيف من جديد ضد المسلمين .

بينما كانت المفاوضات جارية بين الخليفة وبين شانجة قام الأخير بمهاجمة جليقية التي كانت دائمة الثورة عليه ، في اخضاع كل النواحي

الواقعة الى الشمال من نهر دورو ، ثم حدث أن الكونت جونزالف – الذى جمع جيشا ضده بالجنوب من هذا النهر – طلب مقابلته وتمت المقابلة غير أن جونزالف الخائن دس للملك . فاكهه مسمومة ما كاد يأكلها حتى غشى عليه وعلى الرغم من تأثير السم على قلبه الا أنه لم يمت ل ساعته ، وأخذ شانجة يفضى الى جماعته – أنا بالاشارة و أنا بالكلمات المتقطعة – برغبتة فى أن يذهبوا به الى ليون ، لكنه مات فى اليوم الثالث وهو فى الطريق (٢٤) .

* * *

مات شانجة خلفه على العرش ولده رامiro الثالث الذى كان فى الخامسة من عمره فقامت بالوصاية عليه عمه « الفيرة » الراهبة بدير سان سلفادور دي ليون ، غير أن وجود الملكة عن عليهم أن يخضعوا لامرأة و طفل لم يشب بعد عن الطوق فبادروا الى اعلان استقلالهم (٢٥) وبذلك أصبحت الملكة نهب جماعة من الأمراء الصغار ناهيك بما آلت اليه من الضعف الشديد ، ومضت ثلاث سنوات (٢٦) على جليقية يخرب أراضيها جيش قوامه ثمانية آلاف دانيميرى كانوا بادئ ذي بدء فى خدمة ريتشارد الأول دوق فرمنديا الذى بعث بهم بعد ذلك الى اسبانيا حين أصبح فى غير حاجة اليهم ، ومن ثم لم تعد الفيرة الوظيفة تعطى بشن غارة على المسلمين (٢٧) .

استمرت الغارات تتواتى على قشتالة فترة من الزمن (٢٨) ، غير أن موت فرناندو كونثالث عام ٩٧٠ م (= ٣٦١ هـ) أتاح للخليفة مددو البال من هذه الناحية ، ومن ثم استطاع التفرغ لرعاية الآداب والعناية بتقدم بلده ورخائه .

والحق أن اسبانيا لم تشاهد من حكامها حاكما مثله ، و على الرغم من أن جميع أسلافه كانوا أهل ثقافة ميالينilli مكتباتهم بالكتش الا أنه لم يكن فيهم من عنى عناته الكثيرة باقتناه الكتب القيمة والنادرة ، فكان له وكلاء فى القاهرة وبغداد ودمشق والاسكندرية يتضيدون له الكتب القديمة والحديثة على السواء وينسخونها أو يشترونها له دون أدنى تفاتح الى ارتفاع أثمانها ، فازدحم بها قصره ، وكان به جناح لا تقع العين فيه الا على النساخ والمجلدين والمنقين . كما أن فهرست مكتبه وحده كان يقع فى أربع وأربعين كراسة ، ويقول البعض انه كان فى كل كراسة عشرون ورقة ، ويقول آخرون بل خمسون اقتضى فيها على عناوين الكتب ولم تشمل وصفتها – ويدرك بعض الكتاب أن مجلداتها بلغت أربعين ألف مجلد قيل انه قرأها وعلق على الكثير منها ، وكان يكتب فى أول الكتاب او نهايته اسم مؤلفه ولقبه وينسبه الى عائلته وقبيلته مع الاشارة الى عام مولته وسنة وفاته وذكر أخباره ، وكانت هذه ملاحظات قيمة ولم

يُكَنْ هُنَاكَ مِنْ أَحَدٍ يَجْارِي الْحُكْمُ فِي الْمَامِهِ بِالْتَّارِيخِ الْأَدْبَرِ - حَتَّى تَقْدِيْكَ كَانَ جَلَّةُ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ يَعْدُونَ تَعْلِيقَاتَهُ مَرْجِعاً ، وَطَالَمَا أَلَمْ بِالْكِتَابِ الْمُوْضِوَّةَ فِي فَارِسٍ وَالشَّامِ قَبْلَ أَنْ تَطَالِعَ فِي الشَّرْقِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَسْمَعَ بِخَيْرِ عَالَمٍ إِنْ فِي عَلَمٍ إِلَّا عَرَبَ الْعَرَاقِ (وَهُوَ أَبُو الْفَرْجِ الْأَصْفَهَانِيِّ) وَأَنَّهُ وَضَعَ كِتَاباً جَمِيعَ فِيهِ بَيْنَ دَفَتِيهِ أَخْبَارَ الشَّعْرَاءِ وَالْمُغَنِّيِّينَ الْعَرَبِ حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْهِ أَلْفُ دِينَارٍ سَائِلًا إِيَّاهُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِنَسْخَةٍ مِنْهُ حِينَ الْفَرَاغِ مِنْ وَضُعِهِ ، فَبَادَرَ أَبُو الْفَرْجِ - وَقَدْ اسْتَخْفَهُ السَّرُورُ - بِتَلْبِيَّةِ طَلْبِهِ قَبْلَ اذْعَانَةِ مَجْمُوعَتِهِ الْفَاتِقَةِ الْمُسَسَّةِ بِالْأَغْنَانِ الَّتِي مَا زَالَتْ حَتَّى الْيَوْمِ مَحْلَ اكْبَارِ الْأَدْبَرِ .

وَكَانَتِ النَّسْخَةُ الَّتِي بَعَثَهَا إِلَى خَلِيفَةِ الْأَنْدَلُسِ مُتَقْنَةً وَقَدْ أَرْفَقَهَا بِقَصْبِيَّةٍ فِي مَدْحَهِ وَبِبَحْثٍ عَنْ نَسْبِ الْأَمْوَاءِ - فَوَصَّلَهُ الْحُكْمُ بِصَلَةٍ أُخْرَى (٣٩) .

وَمِنْ جَمِيلِ القَوْلِ أَنَّهُ لَمْ يُكَنْ هُنَاكَ حَدْ لِعَطْفِ الْحُكْمِ عَلَى الْعَالَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَالْأَجَانِبِ عَلَى السَّوَاءِ ، فَازْدَحَمُ بِهِمْ بِلَاطَهُ ، وَامْتَدَ عَطْفُهُ فَشَمِلَ الْجَمِيعَ وَأَفَاءَ عَلَيْهِمْ ظَلَ رِعَايَتِهِ لَمْ يَسْتَشِنْ مِنْ ذَلِكَ أَحَدًا حَتَّى الْفَلَاسِفَةُ الَّذِينَ حِينَما لَادُوا إِلَى كَتْفِهِ إِنَّا لَادُوا بِكَهْفٍ مُنْبِعٍ اسْتَطَاعُوا فِي ظَلِهِ أَنْ يَتَابُوُا درَاسَاتِهِمْ دُونَ أَنْ يَخْشُوُا نَقْمَةَ الْأَتْقِيَاءِ أَوْ غَضْبِهِمْ عَلَيْهِمْ أَوْ قُتْلَهُمْ إِيَّاهُمْ (٤٠) .

وَطَبِيعِي أَنْ تَزَدَّهُرْ جَمِيعُ فَنُونِ الْعِلْمِ فِي عَهْدِ أَمِيرِ مُثْقَفِ كَهْدَا الْأَمِيرِ ، فَكَثُرَتِ الْمَدَارِسُ وَآتَتْ أَكْلَهَا ، وَكَادَ جَمِيعُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ أَنْ يَكُونُوا مَلَمِينَ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ أُورِبَا الْنَّصَرَانِيَّةُ - بِجَمِيعِ رِجَالِهَا ذُوِّيِّ الْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ عَدَا الْقَسِيسِ - فِي حَالَةِ مِنَ الْجَهَالَةِ طَخِيَّةِ . وَقَامَتِ الْمَدَارِسُ (٤١) بِتَدْرِيسِ النَّحْوِ وَالْبَيَانِ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَانَّ الْحُكْمَ كَانَ يَرِى أَنَّ التَّعْلِيمَ غَيْرَ مَنْتَشِرٍ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ، وَقَدْ دَفَعَتِهِ الرَّغْبَةُ فِي تَقْتِيفِ الطَّبَقَاتِ الْفَقِيرَةِ لَأَنَّ يَنْشَئَ فِي عَاصِمَتِهِ سِبْعَاً وَعِشْرِينَ مَدْرَسَةً يَنْتَلِعُ فِيهَا أَبْنَاؤُ الْعَامَةِ حَظَا مِنَ الْعِلْمِ مِنْ غَيْرِ أَجْرٍ يَدْفَعُونَهُ ، مَتَكَفِّلًا هُوَ بِدَفْعِ رَوَاتِبِ الْمُدْرِسِينَ مِنْ جِيَّبِهِ الْخَاصِّ (٤٢) .

وَطَبَقَتِ الْخَافِقَيْنِ يَوْمَذَاكَ شَهْرَةِ (٤٣) جَامِعَةَ قَرْطَبَةَ ، فَجَلَسَ لِلْمُحَدِّثِ بِهَا أَبُو بَكْرِ (٤٤) بْنَ مَعَاوِيَةَ الْقَرْشَى ، كَمَا أَمْلَى بِهَا أَبُو عَلَى الْقَالِ - وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادِ - مِجْمَوَّةً كَبِيرَةً طَرِيقَةً فِي الْغَرِيبِ مِنْ أَخْبَارِ الْعَرَبِ الْقَدَمَاءِ وَأَمَاثِيلِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ ، وَقَدْ طَبَعَتْ هَذِهِ الْمِجْمَوَّةُ فِيمَا بَعْدَ تَحْتَ اسْمِ « الْأَمَالِ » (٤٥) .

وَقَامَ بِتَدْرِيسِ النَّحْوِ إِبْنُ الْقَوْطِيَّةِ الَّذِي كَانَ أَبُو عَلَى بَعْدِهِ أَكْبَرُ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ فِي هَذَا الْفَنِ (٤٦) .

فُيبرز في العلوم الأخرى رجال أفتاد لا يقلون عن هؤلاء شيئاً،
فوفد على دروسهمآلاف من الطلاب الذين كان أكثرهم شديدي الولع
بدراسة الفقه الذي يؤهل صاحبه لأرفع المراتب شيئاً (٣٧) .
وفي أحضان هذه الجامعة الجامدة الفتية ظهر رجل لم يقتصر شهرته
على إسبانيا وحدها بل دوت في جميع أنحاء العالم أجمع وينبغى أن نلم
بأمره في هذا الصفحات (٣٨) .

الفصل السادس

أوليسات المنصور بن أبي عامر . أحلامه العظيمة .
أصله . التحاقه بالقصر و تعرفه بصبح البشكنسية . تلقمه
عندما وعنه حريم القصر . تدفق الأموال بين يديه .
حب الناس له . خروجه لمحاربة ابن طملس القائد الأندلسي
والحسن بن كنون الأدريسي . حملة غالب أمير البحر ضد
ابن كنون . اخضاعه الادراسة .
ابن طملس القائد الأندلسي والحسن بن كنون
الأدريسي .
حملة غالب أمير البحر ضد ابن كنون . اخضاعه
الادراسة .
المنصور قاضى قضاة المغرب . مراقبته الجيش هناك .
محاصرة ابن كنون فى صخرة النسر واستسلامه . ظهور
الوزير المصحفى . و موقفه من ابن كنون . انشغال الحكم
باستخلاف ولده عبد الرحمن ثم هشام . أخذه البيعة لهشام .
وفاة الحكم .

الفصل السادس

المنصور بن أبي عامر

في مستهل ولاية الحكم الثاني جلس خمسة من الطلاب يتناولون غدائهم في حديقة بضاحية من ضواحي قرطبة ، واستبدلت النسوة بهم فمضوا يتذمرون بالحديث ، غير واحد منهم لزم الصمت واستغرقه التفكير ، وكان شاباً غريباً طويلاً القامة ترسم على وجهه اهارات النبل ومخايل العظمة وسمات الكبراء وتدل جميعها على أنه خلق للزعامة (١) ، ثم استفاق أخيراً من تفكيره وصاحت بهم على غرة منهم : « ماذا ترون ان صارت مقاليد أمور هذا البلد في يدي يوماً ما ؟ » ، فضحك أصحابه لهذا الخاطر ، غير أن الشاب تابع كلامه قائلاً في هدوء : « ليختر كل منكم خطة أوليه اياماً إذا أفضى إلى الأمر » .

فقال أحدهم : « توليني حسبة السوق فاني أحب هذا الأسفلن » (٢) .

وقال آخر : « توليني كورة (رية وهي) مالقة وطني وأعمالها ، فاني يجبني هذا التين الذي يجيء منها » .

وقال الثالث : « انى أوثر فرطبة ، وأقصى ما أتمناه أن أصير والياً عليها » .

لكن رابعهم لاذ بالصمت إذ أستخطه تفكير اخوانه العجيب ، فقال له : « وأنت أما طلبت ما تمنى ؟ » فهب واقفاً وأمسك بلحيته وقال : « اذا أفضى إليك الأمر فمر ان يطاف بي قرطبة كلها على حمار ووجهي لذنبه وأنا مطل بالعسل ليجتمع على الذباب والتجل » .

فتفسر هذه السائل ملياً وحدجه بنظرات يتطاير منها الضب وكنه كظم غيطه ثم قال : « ليكن ما أراده كل منكم ، وسيأتي الزمن الذي تنداكرون فيه هذا اليوم وستجاب طلبة كل منكم » (٣) .

ولما فرغوا من طعامهم ذهب كل لطيته ، أما الفتى المستسلم لأحلامه وأماله الضخمة فقد عاد إلى بيت أحد أقاربه لأمه حيث كان يستضيفه ، فأخذنه صاحب الدار إلى حجرة بالطابق الأعلى وحاول أن يجاذبه الحديث ، غير أن الشاب كان غارقاً في لجة أفكاره فكان رده كلمات متقطعة ، فلما رأى الآخر فشله في حمله على الكلام حياته وانصرف ، فلما جاء الصباح لم يحضر الفتى للافظار فظنوه لايزال نائماً ، فمضى المضيف إلى حجرته ليوقظه وكم كانت دهشته عظيمة حينما أبصر الفراش لم يمس ، والطالب جالسته على الأرضية وقد تدللت رأسه على صدره ، فقال له : « ما أراك نمت الليلة ؟ » (٤) .

قال : كلا ! ..

قال : في ماذا كنت تفكراً وما أسرحك ؟ ..

قال : « فكرة عجيبة ، لقد فكرت إذا أفضى إلى الأمر وما ت محمد بن بشير القاضي (٥) فيمن استبدلها ومن ذا الذي يقوم مقامها ؟ فجلت الأندرس كلها بخاطري فلم أجدهم رجالاً إلا واحداً » ..

فقال له : « لعله محمد بن السليم » (٦) ..

فأجابه : « هو والله . لشيد ما اتفق خاطرى وخاطرك » (٧) ..

كانت هناك فكرة استولت على الشاب فشغلته نهاره كله ، وحرمته رقاده بالليل ..

فمن كان هذا الشاب الضائع بين جمهور العاصمة الجب ؟ ..

ومن هذا الذي تضطرب نفسه بمثل هاتيك الآمال الجسام ، والنذى كان يؤمل فى قرارة نفسه بأنه سيجد يوماً المتصرف فى شئون البلاد على الرغم من أنه لم يكن له سند فى البلاد ؟

كان هذا الفتى يدعى أبي عامر محمد من بنى أبي عامر ، وهى أسرة تتبعى إلى قبيلة معاشر اليمينية ، ومع أنها لم تكن من الأسر البارزة إلا أنها كانت شريفة المحتد ، فجده السابع عبد الملك أحد أولئك العرب القلائل الذين كانوا فى الجيش المغربي الذى خرج به طارق إلى إسبانيا ، ثم ذاع صيته حينما قاد كتيبة من الجنود استولت على قرطاجنة إلى كانت أول مدينة إسبانية تقع فى أيدي المسلمين فأرادوا مكافأته على انتصاره فأقطعوه حصن طرش الواقع على نهر الوادى الكبير باقليم الجزيرة وما حوله من الأراضى ، ولكن قلن أن سكن أبناؤه من بعده هذه الناحية

الا نادرا ، اذ جرت العادة أن يقضوا أيام شبابهم بقرطبة ليسعفهم ذلك بأن يكونوا من رجال البلاط أو القضاة ، وهذا ما فعله مثلا أبو عامر محمد بن الوليد الحميد الأكبر عبد الملك ، وكذلك ابنه عامر الذي شغل كثيرا من المناصب ، وأحبه السلطان محمد حتى أمر بتنقش اسمه على السكة وتطرizه على الأعلام - كما تقلد محمد - جد صاحبنا - قضاة أشبيلية مدة ثمانية أعوام زمن السلطان عبد الله (٨) ، كما كان أبوه عبد الله فقيها مبرزا شديدا الورع والتعزى ، حج إلى مكة (٩) ، ومن ثم كانت هذه العائلة تطمح على الدوام للاتصال بنوى الشرف ، فتزوج جد محمد من ابنة العلخ يحيى بن أسحق النصراوي (١٠) طبيب عبد الرحمن الثالث ثم أصبح وزير بطليوس وعاملها عليها ، وكانت أم أبي عامر تدعى « بريئه » وهي ابنة القاضي ابن بطل التميمي (١١) .

وعلى الرغم من قدم أسرةبني عامر وما تتمتع به من الاحترام الا أنها لم ترق إلى مرتبة الطبقية العليا فلم يكن لها من النبل غير ثوبه ان جاز استعمال هذا التعبير ، ولم تصل إلى هذا بحد السيف .

وإذا استثنينا عبد الملك الذي صحب طارق بن زياد لم نجد عامريا سواه مارس الحرب وولج ميدان الوجى الذى هو أشرف منازل الحياة (١٢) . فكان العامريون جميعهم أما قضاسة أو موظفين في القصر . وقد قدر لحمد - هو الآخر - أن يسلك سبيل القضاة ، ففي ذات يوم في صدر شبابه ودع هذه الحصون المنيعة وذلك القصر الموروث وشخص إلى العاصمة في طلب العلم حيث سمع من أبي بكر بن معاوية القرشى وأبى على القالى وابن القوطية (١٣) ، وكان شابا ذكى الفؤاد ، سريع الفهم ، مشبوب العاطفة ، مرهف الحس سريع الفضب ، يؤثر من الكتب الحوليات القديمة عن تاريخ (١٤) أنته ، وكان أهم ما يستر على انتباذه في هذه الأخبار الغابرة صور المخاطرات التي قام بها أولئك الرجال الذين نشأاً أغلبهم بين طبقات دون طبقته بكثير ودرجوا في المناصب حتى بلغوا أسمى المراتب ، فاتخذهم مثلا يحتذيه ، وكان لا يمكن مطامحة عن أقرانه لذلك طالما اتهموه بالجنون وليس به مس منه ، الواقع أنه لم يكن يسيطر عليه غير فكرة واحدة شغلت كل تفكيره لكنها لم تكن ضربا من الجنون بل ترجع إلى العقيرية ، كما كان على جانب كبير من المواهب العظيمة ، فكان خصب التفكير ، شديد الباس ، جريئا حيث تشبعى الجرأة ، كما كان لين العريكة مدبرا ، يختار للأمر أن دعت الحال إلى ذلك . أضف إلى هذا أنه كان قليل التشکك فيما هو بسبيله من الطرق التي تمهد له الوصول إلى هدفه العظيم ، كما كان قوى الثقة فيها

بجميعها، وكان جم النشاط يتبع الفكرة المرموقة في وناء وتمهل ، وكان اذا استهدف هدفا وجه اليه همه وآل على نفسه الا أن يبلغه مهما كلفه الأمر، ثم يمضي قلما اليه لا يثنيه عنه ثان ، ولا يرده عنه راد .

ولقد بدأ حياته معموراً مجهولاً فلما أتم دراسته دفعه الbusui لكسس العيش الى فتح مكتب بجوار باب القصر لكتابة الرقاع التي يرفعها الناس الى الخليفة يسألونه شيئاً (١٥) .

ثم شغل بعد ذلك وظيفة صغيرة في محكمة قربطبة ، لكنه لم يحظ بعطف رئيسه القاضي ، وكان الذي يشغل منصب القضاة يومئذ ابن السليم الذي كان محمد يجله عن حق وينزله من نفسه أربع منزلة لبروزه في العلم والشرف ، كما كان من أحسن القضاة الذين شهدتهم قربطبة (١٦) ، غير أنه كان في الوقت ذاته جاف الجامدة منطويًا على نفسه شديد البعد عن ليسوا على شاكلته ، فغاظه أكبر الغيظ آراء مرؤوسه الشاب الغريبة وذهوله الدائم ، فكان لا يتنمى شيئاً سوى الخلاص منه ، وشاءت الصدفة وحدهما أن تؤدي الكراهة التي يحسها القاضي محمد (بن أبي عامر) لأن ينال هذا الأخير ما اشتهره من الاتتاق بالباطل ، فقد شاكه القاضي إلى الوزير المصحفي سائلًا أيام الحاق هذا الشاب بمهمة أخرى فوعده المصيحي بتتحقق طلبه ، ولم يلبث الحكم الثاني ان طلب وكيلًا ماهرًا لإدارة أملاك ابنه البكر عبد الرحمن الذي كان في الخامسة من عمره (١٧) إذ ذاك ، فحبب المصيحي إليه مهدياً بن أبي عامر وذكاه عنده ، ولم يقع هذا التعيين موقع الرضى من الخليفة وحسنه فحسب بل ومن الجارية السلطانية صبح أيضاً ، وكانت « صبيع » بشكنسية المولد لها دالة كبيرة على زوجها ، وتقدم إليها كثيرون لم تقبل منهم غير ابن أبي عامر فقد راقها منه حسن طلعته ولطف معاملته ، فاختير دون سواه ، وفي يوم السبت (١٨) ٤٢ فبراير ٩٦٧ م عين مشرفاً على أملاك عبد الرحمن بمرتب شهرى قدره خمسة عشر ديناراً ، وكان له من العمر يومذاك ستة وعشرين سنة .

لم يكن ابن أبي عامر يدع فرصة الا ويغتنمها كي يزداد اعجاب صبيع به ، وصاحبته التوفيق فاختارت له إدارة أملاكه الخاصة هي أيضاً ، ولم تنقض سبعة أشهر على التحاقه بالقصر حتى اختير مديرًا للشئون المالية (١٩) ، فهياً له هذا المنصب الأخير الفرصة لتوفير المال الجم بين يديه ، فتوسل به لايجاد أصدقاء له من بين الكبار ، فكان اذا أشرف أحدهم على الأفلان (وتلك حال كان يؤديهم اليها في الواقع اسرافهم) هب محمد بن أبي عامر لتجده ، ويقال ان محمد بن أبي أفلح - أحد موالي الخليفة وموظفي البلاط (٢٠) - كان قد أستدان مبالغ طائلة لتجهيز

ابنته فمضى الى بيت المال وقدم الى ابن أبي عامر حلقة مرصعة بالجوادر الكريمة رهنها عنده لقاء مبلغ يريده قائلًا له انها الشيء القيم الوحيد الذي يبقى له ، فلم يكدر يفرغ من كلامه حتى أمر ابن أبي عامر أحد موئسيه بأن يزن له زنتها فضة ، فأخذها ابن أفلح وأذهله هذا الكرم لشدة الحديد والجلد اللذين صنعت منها الحلقة ، ولم يصدق ابن أفلح أذنيه فيما أمر به صاحب بيت المال ، غير أنه أمن أن أذنيه لم تخوناه حين جاؤه بعد لحظات طالبين إليه بسط عباءته مكدسين فيها قدراً كبيراً من الفضة لا تكفي لسد ديونه فحسب بل ولتجعله في بسطة من العيش ، فانطلق لسانه قائلًا (٢١) : « أحببت ابن أبي عامر حتى لو دعاني إلى معصية الحكم — وهو مالك رقى وأمامي — لما قعدت عنه » .

بهذه الوسيلة استعمال ابن أبي عامر إلى جانبية كثيرة من الناس فكانوا مؤيدين له ، غير أنه كان يرى أن واجبه الأول إنما هو تلبية كل رغبات السلطانة (صبح) واغراقها بهدايا لم يسبق أن رأت لها قط مثيلاً من قبل ، ونجحت خطته بطبعية الحال ، من ذلك مثلاً ما حدث ذات مرة من أنه بذل كثيراً في صنع قصر صغير من الفضة فلما تم كما أراد أمر بحمله على رؤوس الخدم إلى القصر الخليفي ، فاستبد العجب بأهل العاصمة الذين لم يروا أبداً مثل هذا العمل الفخم ، وكان هذا (القصر) هدية لصبح التي لم تكتم اعجابها الشديد به ، ومنذ ذلك الوقت لم تكن تدع فرصة تمر دون أن تمتلك موهاب وكيلاً وتطلب زيادة راتبه (٢٢) .

وتمكنـت أواصر المودة بينهما تـمكـنا عـظـيمـاً أـتـاح لـبعـض الـوشـاة أـن يـلغـوا بـالـقول السـيـء » .

كذلك أغدق ابن أبي عامر هداياه على غيرها من الغريم فأسرهن كرمه ، وأعجبتهن رقة حديثه وجميل خصاله ، ولم يفهم الخليفة العجوز شيئاً حتى لقد قال ذات يوم لخاصة أصدقائه (٢٣) : « ما الذي استطاف به هذا الفتى حزيناً حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن حتى صرنا لا يصفن إلا هداياه ولا يرضيهن إلا ما أتاهم ؟ .. انه ساحر عليل ، وخدم لبيب ، وانى لخائف على ما بيده » .

الواقع أن المدين الشاب لاقى الأخطار الجسام من تلك الناحية ، فلقد كان يبسط يده بمال من بيت المال إلى أصدقائه ، ولما كان تدرجه السريع في مدارج العلياء داعياً بطبعية الحال إلى ايجاد حساد له فقد اتهمه أعداؤه ذات يوم عند الخليفة بالسرقة ، فطلب أن يحضروه إليه ل ساعته ليسؤلـه عـما بيـدـهـ منـ المـالـ الذـيـ استـؤـمـنـ عـلـيـهـ فـوـعـدـ بالـمـلـوـلـ ،ـ لـكـنـهـ

أسرع في البحث عن وزير ابن حذير وصارحه بخرج موقفه وما يتحقق به من الخطر ، وتوسل إليه أن يقوم بسداد ما يحتاجه من المال ليدفع الخطر المولىك أن يلم به ، فأعطاه ابن حذير للحظته ما سأله ، ومضى ابن أبي عامر إلى الخليفة وأطلعه على التقارير المالية وعلى المال الذي ينبغي أن يكون في بيت المال بين يديه ، فأفحسم متوانيه والجم السنتهم ، وبدلا من الشر الذي أرادوه له فانهم مهدوا له سبيل النجاح العظيم فعاملهم الخليفة معاملة النمائن ، وراح يمتدح مهارة وكيل بيت المال وأمانته (٢٤) ، وعهد إليه بمهام أخرى ، ذلك أنه في مستهل ديسمبر ٩٦٨ م اختاره ناظراً لبيت المال ، ثم جعله بعد أحد عشر شهراً قاضي اشبيلية ولبلة ، ولما مات عبد الرحمن الصغير وكان طفلاً اختير ابن أبي عامر مشرفاً ومديراً لأملاك هشام الذي صار ولـي المهد في يوليو ٩٧٠ ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد إذ أنه في فبراير ٩٧٢ م اختير مديراً للقسم الثاني من الشرطة الذي كانت مهمته المحافظة على المدينة (٢٥) ، ولما بلغ الحادية والثلاثين من عمره كان في يده خمس أو ست وظائف هامة مربحة (٢٦) ومن ثم تقلب في بلهنية من العيش قل أن كان يتقلب فيها غير النساء .

ولم يكن هناك قصر يضارع في الأبهة قصره الذي شيده في الرصافة لما احتشد فيه من الكتبة والموظفين الذين اختيروا من أرفع طبقات المجتمع ، ولم يجعل حجاباً بينه وبين أي طارق لباشه الذي كان مفتواحاً على الدوام لطلاب الحاجات غير مسدود في وجوههم ، أضف إلى ذلك أنه لم يكن يدع فرصة تمر دون أن يتقرب فيها إلى الشعب ونجاح في ذلك كل النجاح ، فأجمع الكل على امتداح كرمه ، وتعنوا بمعطفه ، ولوهجه السنتهم بالثناء على رحمته وكرمه طباعه ، ولم يختلف في ذلك اثنان (٢٧) .

وعلى الرغم من أن تلميذ طرش كان قد بلغ مرتبة رفيعة إلا أنه كان يطمع فيما فوقها ، وجعل ذلك الهدف نصب عينيه ورأى الضرورة تحتم عليه مصادقة القواد ، وقد أتاحت له أحوال المغرب تلك الفرصة .

لم تضع الحرب أوزارها لحظة في هذا القطر بين أتباع الفاطميين وبين الوالي الأمويين إلا أنها اتخذت أسلوباً آخر ، ذلك أنه إذا كان عبد الرحمن الناصر قد حارب الفاطميين لحفظ بلده من غارة أجنبية فإن هذا الخطر لم يهد له وجود إبان الفترة التي تتكلم عنها الآن ، فقد وجه الفاطميون جيوشهم نحو مصر ففتحوها عام ٩٦٩ م (= ٣٥٩ هـ) ، وبعد ذلك بثلاث سنوات غادر خليفتهم المعز المنصورية عاصمة دولته وأقام على ضفاف النيل ، واستعمل على بلاد المغرب وأفريقية الأمير الصنهاجي أبو الفتوح يوسف بن زيري ، فأمنت الأندلس منذ ذلك الحين عادية من

يسمون أنفسهم بالعلويين ، وربما كان الحكم مصنيبا في عزمه على ترك هذه الأقطار الأفريقية التي كانت ترهقه ماليا أكثر مما تفيده ، إلا أنه رأى في هذا الترك ما يثلم شرفه فأخذ في توسيع حدوده بدلا من ترك هذه الممتلكات ، فخرج غازيا أمراء الدولة الادريسية الذين كانوا يديرون بالولاء للفاطميين :

كان أحد هؤلاء الأمراء هو الحسن بن كنون (أو جنون الادريسي) حاكم طنجة وأرزيلة وبعض الأماكن الساحلية الأخرى ، وكان ابن كنون يميل تارة إلى الأمويين وتارة إلى الفاطميين وإن كان إلى الآخرين أكثر ، إذ كان يخيل إليه أنهم أقل خطرا من الأمويين الذين تاخته ممتلكاتهم ، وكان (الحسن) أول من انضم إلى جانب أبي الفتوح حينما دخل ذلك الوالي بلاد المغرب فاتحا ، فنقم عليه الحكم بسبب تمرده ، وبعد أن غادره أبو الفتوح أغزى الحكم قائمه ابن طملس (٢٨) للقصاص من ابن كنون ورده إلى طاعته .

وفي مستهل أغسطس ٩٧٢ م (= شوال ٣٦٣ هـ) أبحر ابن طملس على رأس جيش عرمرم بعد أن انضم إليه عدد كبير من عسكرو سبتة التي كان ابن كنون مقينا بها فخرج لطرده غير أنه مني بهزيمة نكراء حتى أنه لم يستطع الرجوع إلى طنجة التي تركت بمفردها وسرعان ما استسلمت وخضعت للقائد الأموي الذي حاصم ميناءها . أما الجيش البربرى فقد احتل ناحية أرزيلة (٢٩) . وكانت العساكر الأموية حتى ذلك الوقت ظافرة منتصرة ، غير أن الحظ أخذ في مناؤاتها إذ جمع ابن كنون تحت رايته جنودا آخرين وذخف بهم على طنجة (٣٠) وهزم ابن طملس الذي خرج لصده فلقي حتفه في هذه المعركة ، وأذ ذاك شق جميع الأمراء الأدارسة عصا الطاعة وجاهروا بالثورة ، كما كتب قادة الحكم الذين عادوا إلى طنجة يبئرونه بضياع الممتلكات الأموية في بلاد المغرب ويسألونه أن يسرع إلى تجديتها بالأمدادات .

شعر الحكم بفداحة الخطر فعم على ارسال أحسن جنده إلى Africique في التو واللحظة وجعل القيادة فيها إلى أعلى قائد عنده وهو غالب العجوز فاستدعاه إلى قرطبة وقال له : « امض يا غالب ولا تعودن الا غالبا ، فإن لم تستطع فخير لك أن تلقى منيتك على ظبا السيف ، ولا تسخرن مالا بل فرقه في الثوار ، وانلجم جميع بنى ادريس واستنزلهم إلى الأندلس » .

وعبر غالى المضيق وفي صحبته تخبة من عساكر الأندلس ، وأرسى عنده قصر مصمودة بين سبتة وطنجة ، وراح يتقدم فحاول ابن كنون

تعويقه ، ومع ذلك فلا يمكن أن يقال انه جرت موقعة ما بل كان القتال مناورشات استمرت بضعة أيام حاول غالب أثناءها زشوء زعماء جيش عدو ، ونجح في مقصده ، فلأنضم معظم قواد ابن كثون إلى الراية الأموية بفضل ما قدم اليهم من مال وما خلع عليهم من الشياط الفخمة وما أصابوه من السيف المحلاة بالجواهر التي خطف بريتها أصحابهم ، وحينذاك لم يجد الأدارسة بدا من الاعتصام بقلعة قائم على قمة جبل قريب من « سبطة » تسمى ياسسم يطابق الواقع ألا وهو « صخرة النسر » (٣١) أو « حجر النسر » (٣٢) .

تلقي الخليفة نبأ هذا النصر الأول بالغبطة والارتياح لكنه لما علم بما بذله غالب من المال في سبيل استئصال زعماء البربر وجد أن قائمه لم يتصرف بالحكمة ، وسواءً أكان مال الدولة قد بعض في المغرب أم امتدت إليه يد النهب والسرقة فالواقع أن النفقات التي تحملها الخليفة جاوزت كل تصور ، وأراد الحكم وضع حد لهذا الاسراف أو تلك اللصوصية فلما على نفسه أن يبعث إلى بلاد المغرب رجلاً محنكاً ليكون مراقباً للشئون المالية فندب لذلك ابن أبي عامر وجعله قاضي قضاة المغرب وعهد إليه بمراقبة جميع أعمال القادة لا سيما المالية ، كما أنه أمره إلى ضبطه الحريبيين ورجاله المدنيين في الوقت ذاته ألا يبادر أحد هم عملاً إلا باستشارة ابن أبي عامر وموافقته .

وهكذا وجد ابن أبي عامر نفسه - ولأول مرة في حياته - على صلة بالجيش وزعيمائه وكان ذلك أقصى ما يتمنه ، غير أنه كان بلا شك يرجو أن يكون هذا الحدث في ظروف غير هذه الظروف ، فكانت المهمة التي وكل إليها القيام بها شاقة شائكة ، فدفعه صالحه الخاص لتوثيق علاقاته بالقادة ، وإن لم تغفل عنده في الوقت ذاته عن مراقبتهم ، وفي هذا نجاحه أو فشله ، ومع ذلك فيرجع الفضل كل الفضل إلى مهاراته البارعة في أداء واجبه ومعرفته لأهدافه ، وكان قيامه بكل ما عهد به الخليفة إليه خير قيام حامل الخليفة على الرضا عنه كل الرضا ، كما أنه أحسن معاملة الموظفين الذين كان يخشى كراهيتهم له فانطلقت ألسنتهم بمدحه والثناء عليه ، كما أكد في الوقت ذاته أواصر الصداقة بينه وبين الأمراء الاقريقيين وشيوخ القبائل البربرية ، تلك الصداقة التي عادت عليه في النهاية بغير ما يحب ، وألف حياة المسكرات وأكتسب محنة الجندي الذين أهتم بهم غريرزتهم أن في مسحورة هذا القاضي جندياً .

بعد أن تم لغالب اخضاع جميع الأدارسة الآخرين ظل محاصراً ابن كثون في صخرة النسر ، واذ كان من العسير اقتحام هذه القلوبية

لحساباتها فقد بعث الخليفة الى المغرب عسكراً جديداً أخذهم من الكتاب
التي كانت تحرس حدود الامبراطورية الشمالية ، وجعل على رأسهم الوزير
يعيني بن محمد التجيبى نائبه في الثغر الأعلى ، وفي أكتوبر ٩٧٣ م ،
وصل هذا المدد واشتد الحصار واتسم بالوحشية والضراوة التي أرغمت
ابن كنون على التسليم في الأيام الأخيرة من شهر فبراير ٩٧٤ ، وحينذاك
سألهم البقاء على حياته وحياة عائلته وجنده ، وترك أمواله لهم ، فأجيب
إلى ما طلب ، ويقال انه سلم حصنه ومضى الى قرطبة .

واستقرت الحال في المغرب وعبر غالب المضيق ثانية عائداً إلى
الأندلس وفي صحبته جميع الأمراء الأدارسة ، وخف الخليفة وجميع
أشراف قرطبة لاستقبال النازى فكان دخوله ظافرا يوم ٢١ سبتمبر ٩٧٤
(= ٢ محرم ٣٦٤ هـ) من أفحى المناظر التي شهدتها عاصمة الأمويين ،
وأظهر الخليفة عطفاً كبيراً على المغلوبين لاسيما ابن كنون ، ووصلهم
بالعطايا الجمة ، وضم جندهم - وهم زهاء سبعمائة فارس - لخدمته ،
وأثبتهم في ديوان جنده لما شهد به لهم من الشجاعة (٣٣) .

كان دخول غالب العاصمة آخر أيام السعادة في حياة الخليفة ،
فما وافي شهر ديسمبر حتى داهمهه مرض خطير هو الصرع (٣٤) ،
فيما أحسن بدنو أجله إنصرف للأعمال البر فأعتقد رقاب مائة من عبيده ،
وتنازل عن سلس الجباية الخليفة في الأقاليم الإسبانية التابعة للدولة ،
وأمر أن يوقف ما جبى له من حوانين سروجية قرطبة على تعليم الأطفال
القراء (٣٥) . أما أعمال الدولة التي لم يكن يستطيع الالتفات إليها
القليل فقد وكل القيام بها إلى وزيره المصحفى (٣٦) ، وكان من الواضح
أن يداً أخرى كانت هي التي تسير الأمور .

ونلاً كان المصحفى أكثر اقتصاداً من مولاً فقد وجد أن إدارة الولايات
الافريقية والاحتفاظ بالأمراء الأدارسة يكلفان الدولة كثيراً لذلك بعث بهم
إلى تونس ومنها إلى الاسكندرية (٣٧) بعد أن أخذ عليهم المواثيق الغلط
الا يدخلوا المغرب ، ثم بعث في استدعاء الوزير يحيى بن فحمد التجيبى
إلى الأندلس وكان التجيبى نائبه على الممتلكات الإفريقية منذ رحيل
غالب ، وعهد المصحفى بادارة هذه الأقاليم إلى أميرين من أهلهما هما
جعفر ويحيى ابنا على بن حمدون (٣٨) ، ولم يكن الاقتصاد وحده هو
الذى أمل على المصحفى هذه الخطة بل دفعه إليها الرعب الذى قدّه فى
قلبه نصارى الشمال الذين شجعهم ما تراهم إلى سمعهم من نبأ مرض
الخليفة وغياب أحمسن جنده ، فعادوا في ربيع ٩٧٥ م (٤ = ٣٦٦ هـ)
يُجاهرونه بالعداء ، وحاصروا كثيراً من قلاع (٣٩) المسلمين بفضل مسطعاته

أبي الأحمس (٤٠) معن لهم ، وهو من عائلة التجيبي المقيبة في سرقسطة ،
فأقعن المصحفي أنه ينبعه ، عليه في مثل هذه الظروف أن يعني قيل كل شيء
بالدفاع عن البلد ، فما كاد البطل يحيى بن محمد يعود حتى أسرع فولاء
ولاية الشغر الأعلى (٤١) .

أما الخليفة فلم يكن يشغل باله طوال هذه الأشهر الأخيرة من حياته سوى شاغل واحد ذلك هو ضممان اعتلاء ابنه العرش من بعده وان كان لا يزال طفلا ، وكان قبل توليه الحكم لا يرى أن أمنيته الغالية قد تحققت وهي أن يكون أبا لاسيما وقد تقدم به العمر تقدما كاد أن يتأس معه حتى اذا وافت سنة ٩٦٢ هـ (٣٥١ م) ولدت له صبيحة ولدا سماه عبد الرحمن، ثم أنجبت له بعد ثلاثة أعوام ولدا ثانيا هو هشام ، فكان سرور الخليفة يخدمهما عظيميا ، ومنذ ذلك الحين تزايد نفوذ صبيحة على زوجها (٤٢) [الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر] تزايدا ما لم يحد ، غير أن سروره لم يتم اذمات ابنه البكر (عبد الرحمن) معتقد وجاته ولم يبق سوى هشام ، ولم يهدى يشغل بال الحكم الا الخوف من أن تقوم الرعية فتسقى العرش الى واحد من أعمامه ايثارا له على طفل حدث ، ولم يكن من المستغرب أن يسيطر عليه ذلك الماطر ، فلم يحدث قط أن اعتلى عرش قربة سلطان صغير كهذا السلطان هشام ، أضعف الى ذلك كراهية العرب لفكرة الوصاية ، وكان تصارى أهل الحكم أن يخلفه ابنه فقد كان القوم يؤمدون بنبوءة قديمة تقول ان أسرة بنى أمية ستزول من الحكم اذا ما خرج العرش عن البيت (٤٣) *

لم ير الخليفة أمامه من وسيلة لضمان العرش لولده الا أن يسارع باخذ البيعة له ما وسعه الاسراع ، ومن ثم استدعي كبار رجال مملكته الى مجلسه ، واجتمعوا يوم الخامس من فبراير ١٩٧٦ م ، حيث أفضى اليهم بقصده داعيا ايام جميعا للتتوقيع باعتباره ولـى عهده من بعده ، فما استطاع أحد أن يرفض طلب الخليفة .

حيى بذلك كلف الحكم ابن أبي عامر وكاتبته ميسورا - وكان من حررته (٤٤) صيغ - أن يستنسخ عدة صور من هذا القرار ، وبعث بها إلى جميع ولايات الأندلس وأفريقيا ودعى الأشراف والعلماء للتوقيق على هذا القرار (٤٥) .

وأنجز الأمر في ساعته وبادر الجميع إلى تحقيق ما طلبه الخليفة
دفما لسعنه أنه ينزل بهم .

أضف الى هذا أن اسم هشام أصبح منذ ذلك الحين يذكر في
الصلوات العامة ، فلما وافى الموت الحكم (٤٦) يوم أول أكتوبر ٩٧٦ م
(= ٢ صفر ٣٦٦ هـ) حمل الى قبره وهو مطمئن الى أن ولده هشاما
سيخلفه لاسيما وان ابن أبي عامر والمصحفى – الذى أصبح حاجبا (٤٧) –
لابد وأن يحمل أهل الأندلس على احترام العهد الذى قطعوه على أنفسهم .

الفصل السابع

الخصيان الصقلييان فائق وجوده يخفيان خبر موته
الحكم لتدبير من يحكم بهده . تقريرهما صرف الخلافة عن
هشام الى عمه المغيرة . ظهور المصحفى على مسرح الاحداث .
ايشاره هشام بن الحكم . ابن أبي عامر يتهدى للمصحفى
بالتخلص من المغيرة . الحلفاء الاصدقاء في القصر . اخذ البيعة
لهشام وتفسخ نسوز المصحفى وابن أبي عامر . حوادث
الاغتيال .
الحملة لمطاربة نصارى الشمال بقيادة ابن أبي عامر .
نجاحها وأثر ذلك على ابن أبي عامر .

الفصل السابع

أحداث استخلاف هشام بن الحكم

لقطع الحكم المستنصر نفسه الأخير بين بين أذرع كبيرى خصيائمه :
فائق (١) وجودر ، فلم يعلم أحد سواهما بنبأ موته الذى آلياً أن يبقى
سراً مكتوماً حتى يتم الاتفاق بينهما على الخطة التى يسلكانها .

وعلى الرغم من أنها كانا عبدين إذ كان أحدهما يلقب بصاحب
البرد والطراز والأخر بصاحب البيازرة الا انهما كانوا أصحاب شأن ضخم
يتمتعان بسلطان كبير ونفوذ غير منكرو ، وكان فى خدمتهما ويعيش على
حسابهما الخاص جمع من الخدم المسلمين الذين لم يكتنوا خصيائنا
ولا عبيداً ، زد على ذلك أنه كان تحت أمرتهما قرابة ألف صقلبي من موالي
ال الخليفة لكنهم كانوا بالغى الشراء لما يملكون من الأراضي الفسيحة والقصور
الجميلة ، وكان رجال هذا الجيش من الخدم ينعمون بكثير من الامتيازات ،
كما كان ينظر اليهم بأنهم زينة البلاط وأبهى حلل المملكة ، لكنهم جاروا
على القرطبيين وأساعوا السيرة معهم كل السوء ، وعلى الرغم مما أثر عن
ال الخليفة من اياته العدل وحرصه على تطبيقه الا أنه كان دائم الاغضاء عن
قبائلهم وجرائمهم فإذا حاول أحد تنبيهه الى ذلك أجاب : « هم أهنازنا
وتقاتنا على الحرم ، فينبغي للمرعمة أن تلين لهم وترفق فى معاملتهم فتسسلم
من معرتهم ، اذ ليس يمكننا فى كل وقت الانكار عليهم » (٢) .

ولم تكن المعاملة الحسنة لترى أولئك الصقالبة الا صلفاً وعتراً ،
فكأنوا أكثر هيئات الحكومة قوة ، حتى خيل الى زعييهمما فائق جودر
أن اختيار خليفة جديد أمر موكل اليهما وحدهما فحسب لا يشاركتهما فيه
أحد ما . ولقد تربى على هذا الظن أن انصرف كل منهما عن هشام لما ادر كاه
في اعتلاء هذا الطفل العرش من ظهور نفوذ المصحفى (٣) الوزير الذى
يكرهانه ويودان لو تخلص نفوذه الشخصى (٤) . الواقع أن العامة كانت

قد أقسمت يمين الولاء لهشام بن الحكم لكن الخصيين لم يكونوا يقيمان وزنا ليمين سياسية ، ادراكاً منها أن معظم من أقسموه إنما أقسموه قسرا ، كما كانوا يعرفان أن الشعب لا يقبل لفكرة الوصاية وأن هناك ثلاثة من الناس لا ترغب أن ترى العرش يساق إلى حاكم طفل لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره ويكون له الحكم الزمني والروحي . كما أنهما كانوا من ناحية أخرى يطمعان في استبقاء البقية الباقية من حب الشعب لهما بأسقط طريق وذلك يعقد الإمامة لأمير بالغ عاقل ، ثم إنهم يعلمون أن مثل هذا الأمير لا بد وأن يشكر لهما يدهما عليه أذ أخذنا به إلى العرش ومن ثم يستطيعان التصرف في أمور الدولة باسمه من غير معارضة لهما من جانبها ، لذلك صمما على المبادرة إلى اقصاء هشام وصرف الخلافة إلى عمه المغيرة وكان في السابعة والعشرين من عمره آنذاك واشترطا عليه أن يعلن ابن أخيه خليفة له ، كراهية منها في أن يظهرها بمظاهر المعارض لرغبات مولاهم الراحل .

فلما اتفقا على هذا القرار قال جوذر لصاحبه : « ينبغي أن نحضر جعفر بن عثمان [المصحي] ونضرب عنقه فيتم بذلك أمرنا » .

لكن فكرة القتل هذه أفزعت فائقا الذي كان أقل دهاء من صاحبه كان أكبر منه مقاما ، ومن ثم اعتزما على اكتساب المصحي باللين فيعشا مولانا وشيخ من مشيختنا دون ذنب ولعله لا يخالفنا شيئا نريده مع افتتاحنا الأمر بسفك الدم ؟ »

لم يكن جوذر يؤيد هذه الفكرة لكنه تخلى عما قال مرغما لأن فائقا كان أكبر منه مقاما ، ومن ثم اعتزما على اكتساب المصحي باللين فارسله في طلبه إلى التصر فلما جاء أفضيا إليه بموت الخليفة وأطلاعاه على المشروع الذي أجمعوا العزم عليه ، تم طلبا إليه معاونته .

كانت خطة الخصيين تختلف تمام المخالفة رأى الحاجب ولكنه تظاهر بقبولها خوفا من بطشهما به ، وقال لهما : « هذا والله أسد رأى وأفق عمل ، والأمر أمر كما ، وأنا وغيري فيه تبع لكما ، فاعزما على ما أردتا واستعينا بمشورة المشيخة فهي أقوى للخلاف ، وأنا أسير إلى الباب فأضيّعه بنفسي وأنفذ أمر كما إلى بما شئتما » (١) .

ولما أدرك المصحي نجاح خطته في خداع الخصيين واطمئنانهما إليه استدعى أصحابه ، وأعلم بالأمر ابن أخيه (٧) هشاما وابن أبي عامر (٨) وزياد بن أفلح (٩) أخذ موال الحكيم وقاسم بن محمد (بن القائد

ابن طملس الذى لاقى حتفه فى افريقية فى محاربة ابن كنون) وبعض الشخصيات الأخرى ذات المكانة البارزة ، كما أحضر كذلك قوات الكتائب الإسبانية ورؤساء الكتائب الافريقية التى كان جل اعتماده عليها إلا وهم بنو برباز ، وعندهما تكامل عقد الجميع أفضى اليهم بنباً موت الخليفة وبما دبره الخصيان ثم ختم كلامه اليهم بقوله :

« ان نحن جبستنا الدولة على هشام أمنا على أنفسنا وصارت الدنيا في أيدينا »

« وان انتقلت الى المغيرة استبدل بنا وطلب شفاء أحقاده »
وأتفق ميسول الحاضرين وميسول المصحفى ، فاجتمع هو واياهم فيما بينهم على احباط مشروع الخصيين وذلك بقتل المغيرة قبل أن يعلم بممات أخيه ، واستتصوب المصحفى هذه الفكرة لكنه لم يوجد من يقوم بهذا القتل حين طلب من القوم رجلا ينفذه ، اذ لم ينشأ أحد أن يخضب يديه بدم المغيرة أو أن يتحمل تبعه هذا العمل »

حيينذاك تقدم ابن أبي عامر وقال : « ياقوم انى أخاف فساد أمركم ونحن تبع لهذا الرئيس فينبغي الا تخالفوا عليه ، وأنا أتحمل ذلك عنكم ان هو أنفذنى .. فخفضوا عليكم » .

أثارت هذه الكلمات دهشة الجميع اذ لم يكن أحد يتوقع أن يرى موظفا مدنيا يتقدم لإنجاز القتل في الوقت الذي أحجم فيه رجال مارسوا الحرب وألدوا رؤية الدماء واعتادوا سفكها ، فبادروا إلى قبول عرضه وقالوا له : « أنت أحق بتولى كبره لخاصتك بال الخليفة هشام ومملكتى في الدولة » .

سرعان ما امتنع ابن أبي عامر جواده مستصحبا القائد بدرا أحد موالى عبد الرحمن الثالث ومائة محارب وكوكبة إسبانية ويمموا جميعا ناحية قصر المغيرة فلما بلغوه أوقف ابن أبي عامر الحراس بالباب واقتصر هو بالآخرين الدار فلما صاروا في ردهته دخل وحده البهو فوجده به الأمير فأفضى إليه بممات أخيه الخليفة الحكم المستنصر وخبر اغتيال ابنه هشام العرش وقال له : « انهم خشوا خلافك فأنفذوني لامتحان القصة » .

فامتنع الأمير حين سمع هذه العبارة وأدرك ما وراءها ، ورأى السيف مصلتا على رأسه فقال في صوت متخفف : « لقد استووجعت بالموت أخي ولكنني استبشرت بملك ابنه ، فأعلمهم أنى سامع مطيع ، وواف ببيعتي ، فتوثقوا منى كيف شئتم » .

ثم أقبل يستلطف ابن أبي عامر ويناديه الله في دمه ويسأله
المراجعة في أمره (١٠) .

وعطف ابن أبي عامر على شبيبته وخلاه لطيبة قلبه واعتقد وفاته
فيما تعهد به ، وما كان له أن يتراجع عن قتله ان قضت بهذا القتل مسافة
الدولة وأيدته مصالحه الخاصة ، ولكنه لم ينشأ أن يخضب يديه بدم رجل
لا يراه مداعة خوف ومن ثم كتب للمصحفى منبنا آيات أنه وجده الأمير وفق
ما يهوى ولم يقف على ما يخشأه منه ، وعلى ذلك فانه يطلب منه الاذن فى
الابقاء على حياة المغيرة، وبعث بهذه الرسالة الى الوزير مع أحد الجند الذى عاد
إليه بعد قليل حاملا رأس المصحفى وقد جاء فيه « غررتنا من نفسك فانفذ
لشأنك أو فانصرف نرسل سواك » .

أظهر ابن أبي عامر للحقيقة هذه المقالة التى تتضمن الأمر بقتله ،
ولما كان ابن أبي عامر راغبا عن مشاهدة هذا الحدث الفظيع الذى لا بد من
تنفيذه فقد غادر البهو وأمر رجاله بالدخول مكانه ، فعرفوا ما هو المطلوب
منهم ، فخنقوا الأمير وعلقوا جثته فى حجرة مجاورة لمكان خنقه وأسرعوا
إلى الخدم بأنه قتل نفسه حينما عرف أنهم مرغموه على النهاية إلى ابن
أخيه لقطع يمين الولاء له ومبايحته ، وسرعان ما أمرهم ابن أبي عامر بادخال
الجثة إلى البهو وتسمير الأبواب .

ولما أتعجز ابن أبي عامر هذا العمل عاد إلى الوزير المصحفى وأخبره
بتتنفيذ أمره ، فشكراه المصحفى شakra حارا وأجلسه إلى جانبه اظهارا منه
لعرفانه يده عليه ، ولم يلبث ثائناً وجودز أن أدركه أن المصحفى مسقطهم
وأنه أحبط مشروعهم فخافاه لاسيدما جودز الذي قال لصاحبه : « تنصحت
لك بقتل المصحفى فلم تسمع مني » ، ومن ثم كانوا مضطرين للتکفير عن
زلتهما فدخلوا على المصحفى معتذرین ذاكرين له انهما تنكبا مجحة الصواب
وأن ما فعله هو الأمر الصحيح وأنه خير مما فكرا فيه (١١) .

كانت الكراهية متبادلة بين الطرفين غير أن الوزير لم يكن قادرًا في
هذه اللحظة على الانتقام منها فتظاهر بتصديقهما وعاد السلام بينه
وبينهما (١٢) .

وفي صباح اليوم التالي ، أعنى الاثنين ٢ أكتوبر [= ٣ صفر] نودى
في أهل قرطبة بالشخص إلى القصر بما بلغوه حتى وجدوا الخليفة الغلام
في قاعة العرش وعلى كثب منه المصحفى ، ورأوا فائقا على يمينه وجودز
على يساره ، أما بقية رجال الدولة ففي أماكنهم

وتقدم القاضى ابن السليم فاستخلف أعمام الخليفة وأبناء عمومته ثم الوزراء فرجال القصر فالزعماء القرشيين فوجوه أهل العاصمة ، وتم ذلك بمساعدة ابن أبي عامر وبقية الجماعة ولم يكن ذلك بالأمر اليسير لوجود المعارضين ، غير أن ابن أبي عامر تمكّن بطلاقه لسانه وقوّة اقناعه من الوصول إلى ما يشتتهى ، فلم يبق على الرفض سوى اثنين أو ثلاثة ، وأثنى الجميع على هذه الخطة وامتدحوا قدرة صاحب دار الضرب في تلك الفرصة (١٣) .

* * *

كان كل شيء قد تم حتى هذه اللحظة وفق هوى المصحفى ورهطه ، ولم يجد فى سماء المستقبل ما يعترضها فان فى ظهور الشعب بمظهره الهادىء الراضى بما تم دليلا على قبوله فكرة الوصاية التي كانت تفزعه ويذكرها ولا يهضمها ، لكن مظهريه هذا لم يكن سوى خديعة اذ كان يخفي الحقيقة فى سره خفاء النار تحت الرماد اذ راح يلعن فى الخفاء أولئك الجشعين أصحاب القوة الذين استهلاوا عهدهم بقتل الميرة البائس ، كما راح الخصيابان يعملان من جانبهما على اثارة روح التنمر بين أهل العاصمة ، فلم تنقض غير فترة وجيزة حتى سرت هذه الروح بين الجميع وحتى أوشكت أن تضرم الثورة ، ولم يفت ذلك ابن أبي عامر لذلك بادر بالاشارة على المصحفى أن يرهب الأهلين بظاهرة توقد فيهم ما كانت تتطوى عليه صدروهم من الحب لحكامهم وذلك بأن يظهر لهم الخليفة الصغير وأن يسقط عنهم بعض الخراج ، فاستتصوب الوزير رأيه ، وعزم على أن يركب الخليفة فى الناس فركب يوم السبت ٧ أكتوبر (= ٨ صفر) .

و جاء المصحفى فى ذلك اليوم ، ولم يكن ينعت حتى هذه اللحظة الا بالوزير ، فلقب نفسه بالحاجب ، ورفع ابن أبي عامر - كما شاعت صبح (١٤) - إلى مرتبة الوزير ، فشارك المصحفى بذلك فى ادارة دفة شئون الدولة ، وخرج هشام الثاني (بن الحكم) ممتظيا صهوة جواده ، واخترق شوارع العاصمة محاطا بشلة كبيرة من الجنسد وفي صحبته ابن أبي عامر ، ثم أذيع فى نفس الوقت منشور سقطت بمقتضاه ضريبة الزيتون وكانت من الضرائب المعقولة كما كانت عبئا فادحا لا سيما على كاهل الطبقات الدنيا ، وقد أدت هذه الأعمال - لاسيما الأخيرة منها - إلى النتيجة المأوللة فنسب أنصار ابن أبي عامر إليه ابطال هذه الضريبة لما شاهدوه من حرصه على ذلك فتظاهرت العامة بالمشاهرات وأعلنته الصديق الحقيقي للفقراء (١٥) .

لكن على الرغم من ذلك فقد استمر الخصيان في بث الدسائس كما حمل جواسيس المصحفى اليه أن بعضها من الأشخاص المشكوك فيهم يقومون بدور الوسيط بين الخصيان وأصدقائهم فى الخارج وانهم يدخلون ويخرجون عبر « باب الحديد » فأمر الحاجب بسته ولا يكون دخول القصر الا عن الطريق المعروف « بباب السدرة » ، وزاد المصحفى على ذلك بأن طلب الى ابن أبي عامر أن يبذل قصارى جهده ويعمل غاية ما في وسعه حتى يقصى من حول فائق وجذور من الخدم المسلمين من غير الخصيان والعبيد .

وأخذ ابن أبي عامر على عاتقه القيام بذلك العمل الذي نجح فيه غاية النجاح اذ لم يقصر في وصل البعض بالمال يغدقه عليهم ، وبذل الموعيد لغيرهم حتى نجح في حمل خمسمائة منهم على التخلص عن خدمة الخصيان والانضمام اليه فنظم ياسه وضمخ نفوذه حتى فاق ما كان له تنافسيه وذلك أيضا بفضل استطاعته الاعتماد على معونة قوات بنى برزال الافريقية ، ولم يخف ذلك على جوزر فخاف مقبة الأمر فقدم استعفاه عن بزيارته سائل السماح له بمقادرة القصر الخليفي ، ولم يكن ذلك كله منه الا مناورة فقد ظن أنهم لن يستطيعوا الاستفناه عن خدماته ، واعتتقد أنهم سوف يرفضون طلبه هذا ومن ثم تباح له الفرصة لأن يملى على خصمه الشروط التي يريدها لقاء استمراره في الخدمة ، لكن تبدل أمره هباء فقد قبل استعفاؤه ، فاشتد حنق أنصاره غضبا له واندفعوا يسبون المصحفى وابن أبي عامر ويتوعدونهما ، وكان أحد زعمائهم واسمه : « الفتى الصغير الدرى » قد عرف على الأنصار بذلاقة لسانه ، لذلك أوعز المصحفى الى ابن أبي عامر بالبحث عن آية طريقة للتخلص منه ، ولم يكن ذلك صعبا أو مستحيلا ، ذلك أن الدرى كان صاحب الأمر في « بسياسة » التي ضج أهلها بالشكوى منه لبطشه واستبداده بهم ، كما تنمروا من جشع عماله ، فاغتنم ابن أبي عامر هذه الفرصة ودس الى أهل « بسياسة » من أفهمهم انهم سف يجدون في الحكومة انصافا لهم واستيماعا لشكواهم ان هم رفعوها اليها ، فلم يترددوا عن الاقدام على ذلك ، وفعلوا الذى أوحى به اليهم واذ ذاك صدر أمر خليفى للدرى بالتوجه الى دار الوزارة لمواجهة مواليه فلبى الأمر لكنه ما كاد يصل الى هناك حتى هاله ما أبصر من العسكر الكثير ، وتبين الشر فى وجوه القوم فأراد الرجوع سالما فمنعه ابن أبي عامر وأمسكه من رقبته ، وجرت مشادة بينهما جنب فيها الدرى ابن أبي عامر من لحيته فدعى ابن أبي عامر الجندي لنجاته ولكنهم لم يتحرّكوا احتراماً منهم للدرى .

أما بنو بروزال الذين لم يكن عندهم مثل هذا التوقير له فقد هطعوا
مسرعين للنداء وأمسكوا بالدرى وضربوه ضرباً موجعاً ، وأطارت ضربة
سيف رأسه فبادروا بحمله إلى مخدعه حتى يطلع الصباح .

على أن الوزيرين توجساً شرّاً جسيماً من جانب الصقالبة (١٦)
وأدركوا أنهم غير قادرين على دفعه ، ومن ثم شرعاً في الحال في تدبير
خطة حاسمة أذ بعثا إلى فائق وأصدقائه أمراً خليفيًا بمغادرة القصر ،
على أن يستدعيا بعد ذلك للتحقيق في شأن خيانتهما ، وحكم عليهم
بديمات صخمة جداً .

كان فائق معدوداً أخطر الجميع وكان لا يزال شديد البأس ، لكنه
لم يلبث أن مات بعد قليل من نفبه إلى أحدى جزر البليار .

أما الخصيان الذين كانوا دونه خطاً فقد ظلوا في وظائفهم ، وتقلد
أمر القصر والخدم واحد منهم اسمه « سكر » .

وعلى الرغم من أن الدافع على هذه الإجراءات كان الصالح الشخصي
لا أنه رفع ابن أبي عامر والمصطفى في أعين العامة وقربهما منها وذلك
لشدة كراهية أهل قرطبة للصقالبة (١٧) الذين كانوا قد أسرفوا في إيهام
الناس بصورة تمتهن لهم الناس فيها الهاك (١٨) .

زد على ذلك أن الحكومة – من ناحية أخرى – أثارت هممها قوية
بتقادتها تجاه نصارى الشمال الذين رأيناهم يعادون العداء وقت أن كان
الحكم الثاني (المستنصر) نهب المرض ، وبلغت الجرأة بهم أن طرقت
حملاتهم أبواب قرطبة ، ولم يكن المصطفى يعوزه المال ولا الرجال ، لكن
كانت تنقصه الدراء ب بشئونه فسكت عن الدفاع عن البلد سكتاً أزعج
السلطانة صبيحاً لما جره ذلك من تقديم المسيحيين وغضب الأندلسيين ،
ففرزعت إلى ابن أبي عامر وأسرت إليه بمخاوفها ، وكان هو قد أستطعه منذ
وقت بعيد تهاؤن وفيقه وعجزه عن تصريف الأمور ، لكن ابن أبي عامر
طمأن خاطر السلطانة مؤكداً لها أنه واثق من ضرب العدو لو كان في يده
المال وقيادة الجيش (١٩) .

ولما فرغ من حديثه هذا صارح رفيقه بأن الأمر سيغلى من يده مما
قريب من جراء تهاؤنه وتقاعده ، وأن الواجب ومصلحته الذاتية يحتمان عليه
القيام بعمل حاسم في الحال ، فلما تبين المصطفى مكانة الصدق في كلامه
جمع كبار الرجال وأشار بانفاذ جيش لمحاربة النصارى فاستتصوب معظمهم

الأمر وعارضه نفر قليل ، لكن الذى شغلهم جميعا على وجه الخصوص هو موضوع قيادة الجيش ، فقال ابن أبي عامر :

« أيا در إليه على أن اختار من يخرج معى من الرجال ، وأتجهز لفروزة بمائة ألف دينار » .

فاستكثرا أحدهم ذلك القدر من المال فرد عليه ابن أبي عامر قائلا :

« خذ ضعفها وامض وليحسن غناوك » .

فأفحشه كلامه فوجم ولاذ بالصمت ، ثم اتفقت الكلمة على تسليم إلى ابن أبي عامر وتجهيزه بما يحتاج إليه من المال .

وإذا ذاك أخذ في اختيار من يصحبه من خيرة قوات الدولة ، ونهض بحملته في شهر فبراير ٩٧٧ م [= ٣ من رجب سنة ٣٦٦ هـ] وعبر المدود وحاصر قلعة « لويس بانيوس » (٢٠) المعروفة بحسن الحامة وهي أحدي القلاع التي أعاد ترميمها راميرو الثاني بعد انتصاره العظيم في شلمونة . ونجحت الحملة ودانت الناحية لابن أبي عامر فأصاب منها غنيمة ضخمة . ثم انكفا عائدا إلى قريطبة في منتصف إبريل [رمضان] ومعه أسرى . كثيرون .

على الرغم من تقاهة هذه الغزوة إلا أنها أدت بطبيعة الحال إلى موجة من الفرح الشامل اجتاحت العاصمة التي كانت ترقب الأمور دون أن تميل إلى هذا وذاك ، وحق لها أن تفرح فقد أصبح الجيش الإسلامي لأول مرة مهاجما ولقن العدو درسا قاسيا حتى لا يعود التفكير في ازعاج بال القرطبيين وهو أمر لم يكن بال takohe الشئيل في أعينهم ، ولم يكونوا يطلبون إذا ذاك فوق الذي أدركوه .

لكنهم إذا كانوا قد بالغوا في تقدير النجاح الذي أتيح لهم فإنه من المستحبيل تجاهل الأهمية الكبيرة التي تمضخت عنها هذه الحملة بالنسبة إلى ابن أبي عامر نفسه الذي أسرف في بذلك ما عنده من المال بقصد المدد .

لقد بسط ابن أبي عامر يده طوال فترة الحيلة فوسيط مائدته كل وافد عليه رغبة منه في استجلاب محبة الجيش (٢١) الذي ربما لم يكن واثقا تماما الثقة من ذلك القاضي يتولى قيادته الحربية ، ولكن نجحت خطته كل النجاح واطمأن الضباط والمسكر إلى بشاشة ذلك الوزير وكرمه وإلى مهارة طباعيه ، ومن ثم استطاع فيما بعد الاعتماد على أخلاصهم لقاء إيقائه على مكافأتهم لخدماتهم ، فكانوا له الجسد وكانوا له الروح (٢٢) .

الفصل الثامن

أصل المصحفي . سوء سياساته خوفة من خالب صاحب
الثغر الأعلى . ابن أبي عامر يدس بين الرجلين ويحظى
بالتقدير عند كل منهما . انتصار ابن أبي عامر حربياً وأثره .
الخليفة يخلع المصحفي ويحل ابن أبي عامر مكانه . المصحفي
يسعى لصالحة خالب فيفسد ابن أبي عامر عليه سعيه ، ويتزوج
من آسما ، بنت خالب الذي يلقب بدلي الوزارتين . تذهب
نفوذ المصحفي والقبض عليه وعلى أهله . محاكمته ومصادرة
أملاكه والتطاول عليه .

الفصل الثامن

تضاريب نقود المصحفى وابن أبي عامر

كان نجم المصحفى يتضاد كلما ازداد نجم ابن أبي عامر في التأثير والسطوع ، ذلك أن المصحفى كان قليل الكفاءة ، وضيق النسبت ، وكان أبوه ببريريا من أقليم بلنسية اختير لتأديب الحكم فرعى له الحكم ذلك فأذني إليه ابنه منذ الصغر وجاه بعطفه وتقديره وزاد في تقديره في عينيه ما لديه من الموهاب ، فقد كان أدبياً وشاعراً حسن الخط (١) :

استكتبه الحكم أولاً ثم جعله مديرًا للشرطة فحاكمها لجزرية مبورقة ثم استوزره (٢) لكنه لم يوفق أبداً في تكوين أصدقاء له إذ كان مطبوعاً على تجبر المحدث النعمة ، كما أن غطرسته غير المحتملة جرحت كبريات الأشراف الذين كانوا يحتقرونه .

والظاهر أنه لما تقلد الوزارة أراد تدارك هذه الهفوة لكنه سرعان ما عاد إليها وإلى ما كان عليه من تجبر (٣) ، كما أن عدله بين الناس كان موضع ريبة وهو عيب شائع لم يسلم منه غير قلة من الموظفين ، وربما كان القوم يتباورون عن اختلاساته الفضحية لو تقاسمتها مع سواه بيد أنه احتاجن كل شيء لنفسه : الأمر الذي لم يغفر له أحد قط (٤) ، وأخذ عليه الناس استعماله أقاربها في إدارة دفة الأمور ووضعه المناصب الهامة في يد أبنائه وأخواته (٥) . وقصاري القول أنه كانت تعوزه صفات الرجل السياسي ، كما كانت تبهم عليه المسالك إذا خرجت الأمور التي يغالبها عن الاسلوب المألوف فلا يعرف أذا ذاك ما يبرم منها وما ينقض ، فكان هناك رجال يفكرون له وينتفعون بالخطط ، ومن ثم كان من الطبيعي أن يتوجه بالسؤال إلى ابن أبي عامر .

لكن هل كان ابن أبي عامر يرضى أن يظل قائماً ظالماً بدور الأخلاص والمشورة الذي يبتغيه المصحفى ؟

لقد شك أهل البصيرة في ذلك ، وأحسوا احساسا صادقا أن قد دنت اللحظة التي يوشك فيها ابن أبي عامر أن يتقلد الوزارة حين عزم على اسقاط المصحفى ، نشط لذلك مستعينا بالكتمان وان لم يتبدل ظاهر مسلكه ازاء صاحبه وزميله بل استمر على اظهار نفس الاحترام الذى كان يظهره له فيما مضى ، ولكن أبطن مخالفته في كل شيء ، ولم يكن يدع فرصة تمر دون أن يوجه نظر صبع علم صلاحية المصحفى وبيان خطأه (١) كل ذلك والمصحفى لا يشك فيه ولا يرى فيه ما يثير مخاوفه بل يحسبه أوفى الأصدقاء له .

أما قاذف الرعب فى قلبه فهو غالب صاحب التغر الأدنى الذى كان تفوذه عظيما جدا على الجنده (٧) ، والواقع أنه كان يعتقد على المصحفى ويزدريه ولم يحاول ان يخفى ازدراءه اياه ، فد على ذلك أن أكاليل الفخر كانت تخلل هامته لما خاصه من المعارك الجمة ، فلا عجب ان غاظه أن يتولى الوزارة نكرة لم يسبق له أبدا أن مجرد العسام ، ومن ثم ذهب للقول بأن هذه المرتبة إنما هي له (وليس للمصحفى) وأنه أحق بها منه .

أما من الناحية النظرية فقد كان غالبا خاضعا للمصحفى واستطاع بخطته الماكرة أن يفهم الحكومة علم تمكناها من الاعتماد عليه ، ذلك أنه لم يستعمل الشدة فى محاربة الصارى منذ موت الحكم مما يخالف تمام المخالفة ما عرف عنه من العنف والوحشية ، ومع أنه لم يجاهر بالشورة ولم يطلب من التصارى مساعدتهم اياه الا أن سلوكه فتح مجالا للظن بأن هذه الأمور واقعة عما قريب ، وفي هذه الحال يكون سقوط الوزير أمرا لامفر منه ، اذ كيف يكون فى قدرة المصحفى مقاومة أحسن قائده فى الدولة وأمهر قواذها الذين قند ينضسم اليهم أهل قشتالة ولليون ، ومن ثم فان أعداء المصحفى الكثرين كانوا لا يحجمون عن اغتنام أول مصيبة تصيبه لخلعه من وظيفته وتجريه من ثروته بل والفتاك به أيضا .

لم يكن المصحفى من الغباء بالدرجة التى تعميه عن رؤية الخطير الذى يهدى ، وفى وسط هذا الغم سال وزراء المشورة لاسيسا ابن أبي عامر فكان الجواب أن لا بد له من أن يخطب ود غالب بآى ثمن فاتر هذا الجواب ، وكان ابن أبي عامر الوسيط فى ذلك فقال له أن الحملة الخارجية للفتح تقدم الفرصة لفاوضة حاكم التغر الأدنى على شروط المزادعة التى ينشدتها المصحفى .

كانت هذه هي أقوال ابن أبي عامر .

لأنه كان يسعى لأمر جله هدفه الأكبر غير مبال بالخطوة التي ينتهجها لتحقيق أطماعه ، فهو لم يعمل على تهدئة ما بين الخصمين بل كان يفكر فيما يزيد الجفوة بينهما شدة والهوة اتساعا ، وراح يتصرف بما تملبه عليه ظروف لحظته ثقة منه بوقوف المصحفى إلى جانبه وتاييده لصالحه ، فكان يتنى - أمام صبع - الثناء الجميل على غالب ومواهبه العالية، ومضى يكرر في كل لحظة أن المرأة لا يستطيع أن ينسى أعمال هذا القائد وأنه يجب السعي لضمء إلى جانبه بتلقبيه بلقب يفوق كل الألقاب التي نالها .

وأدت حيل ابن أبي عامر أكلها فرقى غالب - بفضل نفوذ صبع - ولقب بنى الوزارتين (٨) ، وأقيمت اليه قيادة جيش الحسود ، ولم يعارض المصحفى هذه الفكرة وسرعان ما بادر إلى تحقيقها تصديقا منه : «قول ابن أبي عامر أنها أول خطة في سبيل الوفاق بينهما .

وفي الثالث والعشرين من مايو (أول شعبان ٣٦٦ هـ) - أعني بعد شهر واحد فقط من المودة إلى قرطبة قام ابن أبي عامر - وقد وكل إليه تدبير جيش الحضرة - بحملته الثانية ، والتى يقال فى مجربط وأقام على خدمته مظهرا له الأكرام والامتثال لأوامره ، واستماله إليه بما حدثه به من اعتباره المصحفى غير أهل أبدا لما فى يده ، وسرعان ما قام تحالف قوى بين القائدين اتفقا فيه على استقطاع المصحفى ، ثم عبرا الحسود وتم الاستيلاء على حصن « موله » (٩) فأصابا كثيرا من السبى والغنائم ، وانتهت الحملة ، وأخذ كل واحد يستعد لمارقة صاحبه ، وحينذاك قال غالب لصديقه الجديد :

« سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل حتى ليشغل الناس السرور عن الخوض فيما تحدثه من قصة ، فاياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتقلدتها أنت منه » (١٠) .

فوعده ابن أبي عامر باتباع هذه الوصية ثم انطلق فى طريقه مهما وجهه شطر قرطبة ، أما غالب فقد عاد إلى مقر ولايته .

والواقع أن فخر هذه الحملة يعود إلى غالب فهو الذى دبرها ورسم جميع خططها ، وما كان ابن أبي عامر غير تابع له فى تنفيذها حربيا ، كما كان حريصا على لا يعارض أبدا قائله مدربا كهذا القائد الذى تمرس بشئون الحرب ورضع أفاويتها .

ولما كان غالب في الوقت ذاته يومى الى تضخيم شأن حليفه الصغير لأنه كان ينظر الى الأمور من ناحية أخرى فقد بادر بالكتابة الى الخليفة منبئا اياه بما جاء به ابن أبي عاص من الأعاجيب ونسب اليه وحده الفضل فيما حازه العسكر من انتصارات باهزة ، وان الواجب يقضى أن يكافأ مكافأة قيمة .

جاء هذا الخطاب الذي تسلمه البلاط قبل عودة ابن أبي عامر بخبر النتائج ، مما تربى عليه أن وكلت اليه شئون العاصمة بدلا من المصحفى ، اذ كيف يتاتى لأحمس ما أن يرفضى مثل هذا الطلب لقائد رد المغير مرة ثانية .

ولم يقتصر الأمر على أن يكون غالب وحده مصدر الثناء على ابن أبي عامر بل امتدح أبطال هذه الحرب جميعهم كفاعة العamerى ومواهبها .

أضاف إلى هذا أنه لم يكن فى استطاعة المصحفى أن يرقى إلى ما ورقى إليه لو لا نفوذ أبيه ، وإذا خلينا جانبا سلوكه الشخصى فأن المصحفى برهن على عدم أهليته لما نيط به (١١) ، والواقع أنه كان شديد الجشح إلى درجة أن الرشوة التقافية كانت كافية لدفعه إلى اغتصاب عينيه عن كل شيء وعن أفظع الجرائم ، ولقد صدق الناس فيما قالوه من انه لم يعد للشرطة وجود فى قرطبة فاندفع اللصوص - سواء أكانوا من علية الناس أم سفلتهم - إلى السلب ، وأصبح الناس يسهرون لياليهم مخافة أن يصابوا وهم فى دورهم بمن يقتسمها عليهم قاتلا أو سارقا ، وقصارى القول أن سكان أي مدينة من مدن الحدود كانوا أكثر أمنا واطمئنانا على نقوسهم من سكان البلد الذى يقيم فيه الخليفة .

عاد ابن أبي عامر يحمل أمر التولدة ويرفل فى رداء الشرف الذى خلع عليه ، وقصد توا إلى مقبرة الرياسة فوجد محمد بن المصحفى جالسا تحوطه مظاهر الأبهة الجديرة بمن هو فى مكانته ، فأطلعه على أمر الخليفة وأخبره أن فى استطاعته الانصراف ، فاتصرف حزينا وأطاعه . مهموما .

لم يكدر ابن أبي عامر مستقر فى عمله الجديد حتى اتخذ جميع الاجراءات العظيمة لاقرار الأمن فى العاصمة ونشر الطمأنينة ، فاقههم الشرطة أنه سوف يضرب بيد من حديد لا تعرف الرحمة كل من تحدثه نفسه بالشر ، لا ينتظر فى توقيع العقوبة إلى مكانته ، وهدفهم بأقصى ضروب الشدة والعنف ان مدروا أيدיהם للرشوة ، فلما أدركوا مكانة الصدق فى قوله وأيقنوا صلابة عوده وتأكد لديهم أنه متعقبهم بعينه النهازة اهتموا

بأداء واجباتهم ، وسرعان ما تبيّنت العاصمة أثر ذلك بعد فترة وجيزة ، فقللت السرقات قلة واضحة ، وندر الاغتيال ندرة بالغة واستقر النظام واستتب الأمن بعد غياب ، وأمن الناس على نقوسهم فناموا هادئين وعيذ الشرطة لاتمام عن وعائهم ، وضرب ابن أبي عامر لهم مثلاً حياً في أنه كان جاداً كل الجد حين قال انه لن يرفق بأحد ما ، فقد ارتكب ابنه جرماً وقع في أيدي الشرطة فأمر أبوه بجنازته ، وما لبث هذا الشاب أن مات بعد قليل من توقيع الحد عليه .

وتحسّرت الفشاعة عن عيني المصحفى ، ذلك أن خلع ابنه الذي تم في غيبته وبغير مشورته لم يترك له مجالاً للشك في ريه ابن أبي عامر . لكن ما الذي يستطيع أن يفعله لمحاربته ؟

لقد أصبح خصمه أشد قوة منه وأعظم شكيمة إذ كان يستطيع الاعتماد على السلطانة التي يقال انه كان عشيقها ، كما كان يستطيع الاعتماد على العائلات الكبيرة التي تربط بالأمويين برباط الولاء ، وهي الأسر التي ورث فيها الأبناء عن الآباء وظائف البلطط ، والتي تؤثر أن ترى على رأس الدولة رجالاً من بيت عريق النسب (١٢) ، يستطيع الاعتماد على الجيش الذي أخذ ميله إليه يزداد شيئاً فشيئاً ، كما يستطيع الثقة بسكان العاصمة الذين شكروا يده عليهم في إعادة الأمن إلى نصابه . فهل يستطيع المصحفى مقاومة ذلك كله ؟ كلا !!

والسبب في ذلك أنه لم يكن يعتمد إلا على أفراد قلائل ربطوا أنفسهم بمصيره وربط هو نفسه بهم ، ومع هذا فهو لا يستطيع الاعتماد كثيراً على تأييدهم له ، وهكذا كان الصراع بين طرفين غير متكافئين ، أعني بهما العبرية والذكاء الضحل ، ولقد عُرف المصحفى ذلك ، وعرف أن لم يهد له غير سبيل واحد للأمان هو التودد إلى غالب مهما كلفه ذلك الأمر من ثمن .

كاتب [المصحفى غالباً] وأسرف في بذل العهود الزاهية له وهي عهود تشataقها النفوس ، وأراد تدعيم تحالفهما خطب ابنه أسماء لابنه عثمان ، وجازت الجبلة على القائد وتناسي حقده على الوزير وقبل عروضه ووافق على الزواج المقترن ، وبادر المصحفى إلى اتمام عقد الزواج ، فلما علم ابن أبي عامر بكل هذه المكائد التي تنسد عليه جميع مشاريعه بادر إلى العمل بكل ما وسعه الجهد لاحياط خطط زميله وافتسب مشاريعه ، ففتح ذوى النفوذ من رجال البلطط على تأييده فأجابوه وكتبوا إلى غالب لاقصاد ما أراده المصحفى ، كما كتب ابن أبي عامر إلى غالب يقول له

ان المصحفى ينصب الشرك لضرره ، ويحيى فى نفسه جميع الأحتشد
المتربطة فى صدره ضد هذا الوزير ، ورجاه أن يبقى على الوفاء على عهوده
التي قطعها على نفسه فى الحملة الأخيرة .

أما عن الزواج المقترح فقد قال انه ان يريد لابنته وجلا شريفا
فما يجوز أن يزفها الى رجل محدث نعمة ، لكن اليه هو ذاته ، يقصد
 بذلك ابن أبي عامر نفسه .

آمن غالب بأنه كان مخدوعا فى المصحفى فأفهمه أن يعتبر الزواج
الذى يتباخرون فيه غير ذى موضوع ، وما وافى شهر أغسطس أو سبتمبر
٩٧٧ م (= محرم ٣٦٧ هـ) حتى عقد عقد جديد زفت به أسماء الى
ابن أبي عامر .

* * *

ما وافى يوم ٨ سبتمبر حتى نهض ابن أبي عامر بحملة جديدة
زحف بها الى طليطلة وضم قواته الى قوات حميـه الجديـد ، وافتتحا حصنين
من حصنـون الصـارـى وبـعـض ضـواـحـى شـامـنـقـة ، ثـم عـاد فـلـقـبـ بـذـى
الوزـارـتـين ، ورـفـع رـاتـبـه الى ثـمـانـين دـيـنـارـاـ في الشـهـر ، وـلـمـ يـكـنـ الحاجـبـ
يـتـناـولـ أـكـثـرـ منـ هـذـاـ المرـتـبـ .

وفي الموعد المضروب لعقد الزواج قام الخليفة - أو بمعنى أدق أنه
التي لم يظهر عليها شيء من الغيرة رغم ما كان يقوله القوم من أنها
عشيقـة المنصور ، وأرسـلـ الخليـفـةـ الىـ غالـبـ يستـدـعـيهـ للـحـضـورـ الىـ قـرـطـبةـ
مع ابنتهـ أـسـمـاءـ ، فـلـمـ قـدـ أـكـرـمـتـ وـفـادـتـهـ وـأـضـافـ الىـ الـقـاـبـهـ لـقـبـ
ـذـىـ الـوـزـارـتـينـ »ـ وـهـوـ نفسـ لـقـبـ الحاجـبـ (١٢)ـ .ـ الذـىـ كانـ حتـىـ هـذـهـ
الـلحـظـةـ لـلـمـصـحـفـيـ وـحـدـهـ ،ـ فـكـانـ جـمـعـ غالـبـ لـهـذـيـنـ اللـقـبـيـنـ جـاعـلـاـ إـيـاهـ
أـكـبـرـ رـجـالـ الدـوـلـةـ ،ـ وـغـدـتـ لـهـ الصـدـارـةـ فـيـ الـاحـتـفـالـاتـ ،ـ فـكـانـ يـجـلسـ
وـالـ يـمـينـهـ المـصـحـفـيـ ،ـ وـابـنـ أـبـيـ عـامـرـ إـلـيـ يـسـارـهـ (١٤)ـ .ـ

وافق زواج ابن أبي عامر من أسماء بنت غالب عيد رئيس السنة
الميلادية الذى كان المسلمين يشاركون فيه أيضا ، وتحمل الخليفة نفقات
العرس لها ، وكانت الموائد باللغة الآية ، ولم يسبق للقرطبيين أن رأوا
مثل هذا الموكب الفخم الذى أحاط بالعروس أسماء حين غادرت القصر
الخليفي ميمونة قصر زوجها .

وأيا كان الدافع له على هذا الزواج فقد كان زواجه موفقا ، اذ كانت
أسماء فتاة مهذبة بارعة الجمال استولت على فؤاد زوجها الذى كان
يُؤثرها على نسائه الأخريات .

أدرك المصحفي - منذ أن رد غالب طلبه - أنه مشرف على الفساد ووجد نفسه منبوذا قد انقض عليه جميع صنائعه والتغروا حول خصمه يحرقون البخور بين يديه وهم الذين كانوا يرون الشرف كل الشرف في مصاحبيه إذا مشي إلى القصر ، أما اليوم فإنه يغدو إليه حين يغدو إليه وجسدا لا رفيق له ، وتلاشت سلطنته ، وأصبحت الأمور - جليلها وصغرها - تدير من غير علمه ، وهكذا رأى هذا الشيخ التعمس اقتراب العاصفة فانتظرها في صبر وإن كان كارها لها ، ثم وقعت النكبة المروعة أسرع مما كان ينتظر في يوم الاثنين ٢٦ مارس ٩٧٨ م [رجب ٣٦٧ هـ] (١٥) صرف هو وأبناؤه وأبناء اخوته عن كل ما بيدهم من الوظائف والأعمال ، وصدر الأمر بالقاء القبض عليهم والتحوط على أملاكهم حتى تثبت براءتهم من الاختلاس الذي رموا به (١٦) .

وعلى الرغم من أن هذا الحادث لم يكن مقايسة للمصحفي إلا أنه كان ذا أثر كبير ووقع شديد على نفسه فقد تأثر كل التأثير فأرقه ضميره الذي أتقلته وضائقته المظالم التي ارتكبها خلال حياته الطويلة ، فلما أخذ في توديع أسرته قال لها : « هنا وقت اجابة الدعوة ، وأنا أرتكبه منذ أربعين سنة » ، فلما سأله عما يعنيه من قوله العجيب هذا قال لهم :

« رفع على أحدهم أيام عبد الرحمن وسعى به إلى فاشرت على أعماله ، فقال أمره إلى ضربه وتغير نعمته وإطالة حبسه ، فيبينما أنا نائم ذات ليلة أذ أتاني آت فقال لي : أطلق فلانا فقد أجيئت دعوته فيك ، وبهذا أمر أنت لابد ملقيه ، فانتبهت متذعرا وأحضرت الرجل وسألته إحالى فامتنع على ، فاستحققته على أعلامي بما خصني به من الدعاء فقال : نعم ، دعوت الله أن يعيتك في أضيق السجون كما أعمرتني حقبة ، فعلمت أنه قد وجبت دعوته ، وندمت حيث لainفع الندم ، وأطلقت الرجل ولم أزل أرتكب ذلك » (١٧) .

سيق المتهمون إلى سجن الزهراء وبها سجن الحكومة ، وكان القائد هشام المصحفي ابن أخي الوزير قد أدى ابن أبي عامر لما تاله من الفخر بانتصاراته في الحملة الأخيرة ، لذلك كان هشام أول ضحية لغضب هذا الرجل القوي ، مما كاد يبلغ المطريق حتى قتل (١٨) .

وقف المصحفي أمام مجلس الدولة فحاكموه محاكمة طال أمدها ولم تعوزهم الأدلة على أدانته ورميه بالاختلاس أيام وزارته ، وقضوا به بمصادرة أملاكه ، وببيع قصره الفخم بضاحية الرصافة (١٩) بالزاد ، وأنهالت الاتهامات بعضها على بعض عليه واستمع إليها الوزراء الذين أرادوا انترب إلى ابن أبي عامر ، ورمي المصحفي بكل جريدة ، فاستصنفو

كل ما ملكته يمينه ، ومع ذلك لم يسلم من التشديد عليه والمساومة يلقاها من جانب كبار رجال المحكمة الذين كانوا يظنون أن لازال عنده شيء (٢٠) .

ولما وقف آخر مرة أمام قضااته كان تقدم السن وطول العجبس بشدة الغم قد تعاونت كلها في الجب من قواه حتى كاد أن يعجز عن قطع المسافة من الزهراء إلى حيث كان قضااته ، كل ذلك وحارسه لا يدف عن الشدة عليه وحنه على الاسراع حتى لا يطول انتظار المجلس له ، وأذ ذاك قال له الشيخ العجوز : « رفقا بي يا بنى فستدرك ما تعجبه وتشتيبه ، وبالبيت أن الموت يباع فأغلى سويعه حتى يرده من قد أطال عليه حومه » ، ثم أنسد (٢١) :

لا تأمن من الزمان تقلبا
ان الزمان باميله يتقلب
ولقد رأى والليوش تخافنى
وأخافنى من بعد ذاك الشغل
حسب السكريهم مذلة ومهانة
إلا ينزل على ثقيم يطلبهم (٢٢)
فلما دخل على قضااته انتهى زاوية من المجلس دون أن يحيى أحدا
منهم ، فصاح به الوزير محمد بن حفص بن جابر الذي كان يتعدد إلى
ابن أبي عامر ويترافق إليه : « يشن الأدب لأدبك ، أما حسيبت ! ! » فلم يقل
المصحح شيئاً ولا زام الصمت .

فعاد ابن حفص يلومه ويعنته فقال له المصحح : « يا هذا جهلت
المبرة فاستجهلت صانعها . وَكَفَرْتُ الْيَدَ فَقَصَدْتُ الْأَذْيَ وَلَمْ تَرْهِبْ
مَقْدَمَهَا ، وَلَوْ أَتَيْتُ نَكْرَا لَكَانْ غَيْرُكَ أَدْرِي ۰ ۰ لَقَدْ نَسِيْتَ الْأَيْادِيَ الْجَمِيلَةَ
وَالْمَبْرَاتِ الْجَلِيلَةِ » .

فبعث ابن حفص لهذه العارة لكنه سرعان ما تمالك نفسه وقال :
« هذا هو البهت بعينه ، وأى أياديك الغر منت بها ؟ » .
ثم أخذ يعدد له أموراً انكرها عليه فلما فرغ من كلامه رد عليه
المصحح قائلاً : « هذا ما لا يعرف ، والحق الذي لا يريد ولا يصرف رفعي
القطع عن يمناك ، وتبليغى لك إلى متراك » .

فأقسم محمد بن حفص على بطلان هذه التهمة ، فانفجر الشيخ
غضباً وقال : « أتَشِدُ اللَّهَ مِنْ لَهُ عَلِمَ بِمَا أَذْكُرُ إِلَّا اعْتَرَفَ بِهِ فَلَا يَنْكِرُهُ » .
فقال الوزير ابن عياش : « قد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسينين ،
وغيرك أولى بك وأنت فيما أنت فيه من محنتك وطلبك » .

**نقل المصحفي : « أحرجنى الرجل فتكلمت ، وأحرجنى إلى ما به
أعلم » .**

وكان هناك وزير آخر هو ابن جبور حاضراً المجلس يستمع النقاش في تفاصيله ، وعلى الرغم من كراهيته للمصحفي وسعيه في إهلاكه إلا أنه عرف أنه ينبع على المرء أن يرعى حرمة خصمه لاسيما إذا استنزل ، وكان ابن جبور من أسرة قدية بارزة كأسرة الحاكم نفسه فتكلم وقال : « أو ما علمت يا ابن جابر أن منكوب السلطان لا يسلم على أوليائه لأنهم ألقوا الرد ، فإن فعلوا أخلاق بهم من سخط السلطان ما يخشى ويُخاف ، وإن تركوا الرد أسلطوا الله وتركوا ما أمر به الله تعالى (٢٣) فصار الامساك أحسن ، ومثل هذا لا يخفى على أبي الحسن » ، فخرج بن محمد بن حفص بن جابر من هذا الدرس القاسي واعتصم بالصمت ، بينما ارتسنت فرحة باهته في عيني الشیعی التعبس .

وتتابع القوم محاجتهم أيام وراحوا يكيلون له كل جديد من التهم ليسليبوه كل ما لديه فصاح بهم : « والله قد استندت ما عندي من الطارف على التليد ، ولا مطعم لي في دروم ، ولو قطعت أرباً أرباً » .
« نتركوه وأمرروا بصرفه إلى محبسه (٢٤) » .

أخذ المصحفي منذ هذا الوقت يتنتقل بين الحرية والأسر ، لكنه كان ثميناً في كل الحالين ، وفيدي ابن أبي عامر وكانه يستأنس بازهاجه ويرتاح إلى مضائقته ، وأنه من الصعب على إنسان أن يفسر المكرahirة الشديدة التي أبداها تجاهه هذا الرجل العادي الذي لم يهد له شيء من العقول ولا القوة ، وإنما كل ما يمكن به تبرير هذا المسلك أنه لم يسامحه على العبرية التي اضطهه إلى ارتکابها وهي قتلته لمغيرة .

ومهما يكن الأمر فقد كان يستصحبه معه أن ذهب دون أن يعطيه ضرورياته القصوى .

وقد قص أحد كتابه أنه رأى المصحفي أثناء أحد الحملات راقداً بالليل قرب فسيطاط سبيله وبابه عثمان إلى جانبه يسبقه خليطاً من الدقيق والماء العكر (٢٥) ، وهو كل ما تمكّن عثمان من الحصول عليه .
لقد أمض الآسى المصحفي وأضعفه اليأس فنفس عن الله وشحونه يقصانه رقيقة رائعة النسج ، بدعة الديباج ، ومع أنه قال ذات يوم للحارسه أنه يتمنى الموت إلا أنه كان شديد التعلق بالحياة .

وكما كانت تنقصه رجاحة المقل والشجاعة أيام حكمه فقد كانت تعوزه كذلك الكرامة أيام محتنته ، فقد كان يسعى لاستعطاف (٢٦) « الشلوب » سعيًا نزل به إلى أحر الأساليب ، وحدث ذات مرة أن توصل إلى ابن أبي عامر أن يكل إليه تاديب أولاده ، ولم يكن المنصور ليتصور أن المرء قد تهون عليه كرامته فيتدنى إلى هذا المزرك ، وظن أن المصحفي يريد الاحتيال عليه وقال : « إن هذا الرجل يريد أن يحصل من قدرى عند الناس لأنهم طالما رأوا بيدهليزه خادماً ومسلماً ، فكيف يرونه الآن بدهليزى معلماً » (٢٧) .

ظل المصحفي خمس سنوات يحيا حياة محنة قاسية ، فلما ظهر تشبيثه بالعيش رغم تقديم العذر ورأوا ما ألم به من التكبيات الكثيرة ، وعرفوا فيه كراهيته للموت أوردوه هم حياض الردى فقتلوه خنقاً أو سماً إذ لم يتعق الكتاب العرب على الصورة التي مات بها (٢٨) ، فلما علم ابن أبي عامر بهلاك خصمه العجوز عهد إلى اثنين من عماله بذفنه ، كان أحدهما كاتبه (٢٩) محمد بن اسماعيل الذي قص لنا الحادث كما شاهدته فقال :

« نظرت إليه ولا آثر فيه ، وليس عليه شيء يواريه غير كساء خلق بعض البوابين ستره به ، فدعني له محمد بن مسلمة بفاسل فغسله – والله – على فرد باب اقتلع من ناحية الدار ، وأنا اعتبر من تصرف الآثار ، وخرجنا بنعشة إلى قبره وما معنا إلا أيام المسجد المستديع للصلوة ، وما تجاسر أحد على النظر إليه ، وإن لي في خبره لشأننا ما سمع بمثله طالب وعظ ، ولا وقع في مسمع ولا تصور لحظ ، وقف المصحفي في طريقة أيام نهيه وأمره ، أروم أن أناوله قصة كانت به مختصة فوالله ما تمكنت من الدنو منه بجيزة لكتافة موكيه ، وكثرة من حف به ، وأخذ الناس السلك وأفواه الطريق عليه ينظرون إليه ويسلمون عليه ، حتى ناولت قصتي بعض كتابه الذين نصبهم على جناحي موكيه لأخذ القصص » « وانصرفت ونفسى من الشرق بحاله والقصص » (٣٠) .

الفصل التاسع

ظهور ابن أبي عامر ومتلاوته بالأمر . الصقالبة يدبرون ما يشينه ويقدح في السلطانة صبيح . جوزد الخصي يتآمر على قتل هشام بن الحكم لكنه يفشل . تحديد إقامة الشسائر الرمادي المتأمر . الغيرة من ابن أبي عامر . حركة منهضة الفلسفة وتتبها . محاولة واد ملكات هشام . انشاء مدينة الزاهرة شرقى قرطبة . منع هشام من تصریف امور الدولة . ابن أبي عامر ينظم الجيش . تفكيره في التخلص من غالب . بلجين الفاطمي . الاكتار من البربر في الجيش الاندلسي . استخدام النصارى فيه . مصرع غالب . الزحف على ليون . تلقيب ابن أبي عامر بالمنصور . فتكه بجعفر أمير زاب .

الفصل التاسع

ابن أبي عامر صاحب الأمر في الحكومة

رفع ابن أبي عامر إلى مرتبة الجاجية (١) يوم عزل المصحفى والقبض عليه ، ومنذ ذلك اليوم أخذ هو وحموه (٢) يتقاسمان السلطة العليا فيما بينهما ، وبلغ هو من القوة درجة خليل للناس معها أن ليس هناك أحد يقايد على مقاومته ولكنه قروراً إذ كانت لا تزال في الوجود تلك الجماعة التي كانت تود أن تسوق الخلافة إلى رجل آخر غير هشام بن الحكم الثاني ، وكان جوهره هو روح تلك الجماعة ومحركها ، وذاعت أنيابه الهجاء التي كان الناس يتناشروها في شوارع قرطبة تحت سمع الشرطة ، ولم يكن ابن أبي عامر ليتسامح أبداً في اتفقه كلمة تشير إلى أي اتهام قد يكون بينه وبين الخليفة حتى لقد أعلم مفتيه دفعها جسديها - تغيباً للوزير في شرائها - إلى انشاد أغنية تبتغى فيها بصبح (٣) .

على أن الناس كانوا ينشدون في ذلك الوقت نفسه في شوارع البلاد أمثل هذا الشعر :

اتقرب الوعد وكان الهاك وكل ما تحببوا قد أتساك
خليفة يلسب في مكتب وأمسك (٤)

ولو اقتصر الأمر على النيل من البلاط لما كان الخطير جسديماً ، لكن جوهر جرأة على الذهاب إلى أبعد من ذلك حين اتفق مع القاضي عبد الملك بن المنذر على تدبير مؤامرة ترمي إلى قتل الخليفة الشاب وإنجاح طفل صغير مكانه من أحفاد عبد الرحمن الناصر يُعرف بعبد الرحمن بن عبيد الله ووساهم في هذه المؤامرة نفر من القضاة والفقهاء والأدباء من بينهم الشاعر الأندلسي الأشعى الرمادي (٥) الذي كان يعتقد على ابن أبي عامر حقداً مزيناً لصداقة خالصة بينه وبين المصحفى ، كما كان أحد الرجال القلائل الذين ظلوا على الولاء له حتى بعد أن قلب له الدهر ظهر المجن ، فكان صدره يضطرم بالرغبة الملحة في الثار له ، ومن ثم أدمى هجوه في ابن أبي عامر شعراً لاذعاً قادعاً (٦) .

اعتمد المتآمرون في نجاح مشروعهم على مشاركة الوزير زياد بن أفلح لهم وهو الذي كان يشغل آذ ذاك ولاية الشرطة بالعاصمة ، فاتفقوا معه على الساعة واليوم اللذين ينفذون فيما خطتهم ، ووكلوا أمر قتل الخليفة (الصغير هشام بن الحكم) إلى جوزر الذي وان لم يهد عن رجال البلط إلا أن مكانته السابقة كانت تبيح له المسؤول على الخليفة ، واتفق شركاء الجريمة على استئلاض عبد الرحمن (بن عبيدة الله بن الناصر لدين الله) حالما يفرغون من الفتاك بال الخليفة هشام .

فلما وافى اليوم المفروض لهذا الجرم غادر زياد بن أفلح القصر الخليفي عائداً إلى مسكنه الواقع في أقصى المدينة مستصرياً عليه جميع رجاله ، وطلب جوزر الأذن بالدخول بين يدي الخليفة فناه ، فلما كان في حضرته استل خنجره وهم بطبعه لولا أن تداركه أحد الحرس واسمه (أحمد بن محمد) بن عروس وكان بالبهو أذري بنفسه على القاتل وحال بيته وبين اتئام فعلته ، وتنسب بينهما عراك تزقت خلاله ثياب جوزر ، فاستعن ابن عروس بالحرس فهربوا مهظعين وأمسكوا بالشخص ، فلما سمع ابن أفلح بفشل المؤامرة بادر بالقدوم إلى القصر فلماه ابن عروس على تناقله وصارحة بوثقه من أن له يداً في الجريمة التي كان زياد ارتكابها ، لكنه أخذ يبرئ مساحتها محتاجاً بالخلاصة للسلطان ، وأراد دفع الشكوك التي حامت حوله فالقي القبض في ساعته على المشتبه فيه (٧) ، وفيهم جوزر نفسه وزوج بهم في سجن الهراء .

واقتيد المتآمرون إلى المحاكمة ولم يثبت أن صدر الحكم بادانة كبيرهم ، لكن القضاة لم يبيتوا على وجه التحديد نوع القصاص الذي يتبع توقيعه ، بل اكتفوا بالإشارة إلى الآية القرآنية الكريمة (٨) (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفروا من الأرض) ، وتفسير القصاص في هذه الآية واضح جداً .

وتركت المحكمة لل الخليفة اختيار العقوبة التي يريد انزلها بهم وأذ ذلك قام زياد بن أفلح - وكان أحد القضاة - فيبذل قصارى جهده لاستعادة ثقة ابن أبي عامر به ، فكان أول من طلب ترقيق أشد القصاص قسوة على الجنابة وظفر وأياه بالتائيد ، فصلب عبد الملك بن منذر ، وقتل عبد الرحمن الذي أرادوا سوق العرش اليه (٩) .

أما جوزر فأننا نجهل ما قرروه بشأنه وإن كانت كل الظواهر تحمل على الظن بأنه قتل مصلوباً ، أما الرمادي فكان مصيره أهون قليلاً وإن لم

يحسد عليه ، اذ كان ابن أبي عامر يرغب في نفيه لكنه استجاب لالتماسات أصدقاء الشاعر فأذن له بالإقامة في قرطبة اقامة مقيدة قاسية ، ونودى في البلد بالعقاب الشديد ينزل بكل من يحاول التحدث معه ، وبذلك حكم على هذا الشاعر بالصمت الدائم المطبق ، وأصبح منذ ذلك الحين - على حد تعبير أحد الكتاب العرب - كالميت وسط الناس الذين تزدحم بهم شوارع قرطبة العاصمة (١٠) .

برهنـت هذه المؤامرة للوزير ابن أبي عامر على أن أشد الناس موجدة وخدعاً عليه إنما يوجدون على وجه الخصوص بين صفوف أولئك الذين درسوا إلى جانبه الآداب وعلم الكلام والفقه ٠٠٠ فهل كان ذلك نتيجة غيرتهم منه ؟ ٠

الرد على هذا بالإيجاب من ناحية ، اذ ليس ثم من ينكر أن ابن أبي عامر كان واياهم منذ قليل على قدم المساواة ورفيقهم في الدرس ، ثم سمي به جده سموا عظيمـا لم يطـهـ الفقهاء ورجال الدين لما اضطـرـمـ في صدورـهمـ منـ الحـسـدـ لـهـ والـحـقـدـ عـلـيـهـ ، وـلـمـ يـقـتـصـرـ الـأـمـرـ عـلـيـ ذـلـكـ بلـ لـقـدـ كـرـهـواـ مـنـهـ أـيـضاـ ماـ رـمـىـ بـهـ لـدـيـهـ عـلـىـ وـجـهـ الـخـصـوـصـ مـنـ نـزـعـاتـ دـيـنـيـةـ مـعـيـنـةـ ، ذـلـكـ أـنـ الـرـجـالـ الـمـتـخـرـجـينـ فـيـ مـدـرـسـةـ مـعـلـمـيـ قـرـطـبـةـ كـانـواـ شـدـيـدـيـ الـتـعـلـقـ بـالـاسـلـامـ اللـهـمـ إـذـاـ اـسـتـشـتـنـيـنـاـ بـعـضـ الـفـكـرـيـنـ الـجـرـيـثـيـنـ وـالـشـعـرـاءـ الـمـفـلـقـيـنـ ، فـكـانـتـ النـتـيـجـةـ أـنـ عـدـ اـبـنـ أـبـيـ عـامـرـ – أـنـ ظـلـمـاـ أوـ حـقـيـقـةـ – مـسـلـمـاـ مـغـمـوزـ الـإـيمـانـ ، وـاـنـ لـمـ يـوـجـدـ الـجـرـيـ، عـلـىـ مـوـاجـهـتـهـ بـالـتـعـنـيـفـ عـلـىـ اـعـتـنـاقـهـ الـأـفـكـارـ الـحـرـةـ وـاعـتـدـادـهـ التـامـ بـمـارـسـتـهاـ ، وـتـهـامـسـ النـاسـ فـيـمـاـ بـيـنـ بـعـضـهـمـ وـالـبـعـضـ الـآـخـرـ بـكـلـفـهـ بـالـفـلـسـفـةـ وـأـخـذـهـ نـفـسـهـ – سـراـ – بـدـرـاسـةـ هـذـاـ الـفـنـ وـالـانـكـيـابـ عـلـيـهـ ، مـاـ كـانـ فـيـ ذـلـكـ الـحـينـ تـهـمـةـ شـنـيـعـةـ ٠

ولـمـ يـخـفـ الـأـمـرـ عـلـيـ اـبـنـ أـبـيـ عـامـرـ ٠

وـسـوـاءـ أـكـانـ فـيـلـسـوـفـاـ أـمـ لـمـ يـكـنـ فـالـوـاقـعـ الـذـىـ لـاـ مـرـاءـ فـيـهـ أـنـهـ كـانـ قـبـلـ كـلـ شـىـ رـجـلـ سـيـاسـةـ لـذـلـكـ أـرـادـ أـنـ يـجـرـدـ أـعـدـاءـ مـنـ ذـلـكـ السـلاحـ الـرـهـيبـ الـذـىـ يـشـهـرـونـهـ فـيـ وـجـهـ لـلـنـيـلـ مـنـهـ ، فـصـمـمـ أـنـ يـفـهـمـهـ أـنـهـ الـمـسـلـمـ الـكـاملـ ، وـذـلـكـ بـاصـدارـ قـرـارـ اـصـلـاحـيـ خـطـيرـاـ بـعـثـتـ فـيـ طـلـبـ الـعـلـمـاءـ وـالـلـوـجـهـاءـ أـمـثالـ الـعـسـيـلـيـ (١١) وـابـنـ ذـكـوـانـ (١٢) وـالـزـيـبـيـ (١٣) وـأـدـخـلـهـ مـكـتبـةـ الـحـكـمـ الـثـانـيـ الـضـخـمـةـ وـأـنـضـيـهـ إـلـيـهـ بـعـزـمـهـ عـلـىـ طـرـحـ الـكـتـبـ الـتـيـ تـعـالـجـ الـفـلـسـفـةـ وـالـتـنـجـيـمـ وـغـيـرـهـمـاـ مـنـ الـعـلـمـاتـ الـتـيـ نـهـيـ عـنـهـ الـشـرـعـ ، وـعـيـدـهـ إـلـيـهـ بـالـقـيـامـ بـتـطـهـيرـهـاـ بـأـنـفـسـهـمـ ، وـسـرـعـانـ مـاـ أـقـبـلـوـاـ فـيـ حـمـاسـةـ وـجـدـ عـلـىـ عـلـمـهـ

حتى إذا فرغوا منه قام الوزير فرمى بالكتب الدنسة في النار ، كما أحرق
بعض كتبه الخاصة ليفهمهم شدة تعصبه للملة (١٤) .

لم يكن هناك من هو أعلم من المنصور ابن أبي عامر بما انتوى عليه
هذا العمل من همجية ، لكن مهما يكن الأمر فقد نجح في استحالة العلماء
والعامة إلى جانب فضوله منذ ذلك الحين عدو الفلسفة (١٥) وغضي الدين ،
كما أنه راح يسلط رعايته على الفقهاء ويكتلؤهم بعطفه ويغمزهم
بصلاته (١٦) ، ويصنف الأصناف القائم إلى عظامهم وإن طالت ، ويولهم صبراً
جميلاً أصبح به هضر المثل وقدوة للغير (١٧) . فد على هذا أنه نسخ
القرآن بيده واستصبح معه هذه النسخة كلما خرج من سفر (١٨) .

ولما ذاع خبر استقامته دينياً : الأمر الذي لم يجرؤ أحد ما على تقضيه
لقيامه على أساس متين وجه هذه إلى الخليفة الذي أدرك أنه سوف يكون
مبعد خوف له كلما تقدمت به الأيام وبلغ مبلغ الرجال .

كان الخليفة هشام (بن الحكم) - كما شهد مؤديه الزيبيدي قد
أظهر في طفولته من آيات الذكاء ما جعل الآمال منوطه به ، فكان يحيى في
يسر عجيب كل ما يلقيه عليه أستاذه ، كما وهبه الله دقة في الحكم على الأمور
قل أن تتتوفر (١٩) لغلام في مثل عمره ، ولكنه اذ تبوا العرش وهو حديث
فقد عكفت أمه والمنصور على التناوب على إخماد ملكاته ، ولا تستطيع
الجزم بأنهما أذاقاه لذة العريين منذ وقت مبكر ، لأنه على الرغم من أنه مات
بلا ولد مما يرجع هذه المسألة إلى حد ما إلا أنه ليس بين أيدينا دليل ينهض
على حقيقة ذلك الوضع . غير أن الثابت المؤكد عندهما هو أنهما بذلك كل
جهدهما لاخماد ذكائه بارهاقه بالتكليف الديني وأدخلا في روعه أن
انصرافه للعناية بمهام الحكم يصرفه عن القيام بفرائض العبادة وتحول
بينه وبين ما فيه نجاته ، ونجحا إلى حد ما في خطتهما هذه فانصرف الخليفة
الغلام هشام إلى أعمال البر يوليها اهتمامه ، وأخذ نفسه بمداومة النظر في
التلاؤه والعكوف على الصلاة والصيام (٢٠) ، غير ان التفاتاته الذهنية
كانت مبعث خوف لابن أبي عامر الذي خشي ظهور أحد ما - أن آجلاً أو
عاجلاً - يسيطر على روح السلطان الشاب ويصرره حقيقة موقفه ، ورأى أن
الخطر سيظل قائماً طالما بقيت أمور الدولة تعالج في القصر الخليفي نظراً
لتردد كثير من القادة والموظفين عليه . ومن ثم فلا يبعد أن تهياً فرصة
اتصال الخليفة بوحد من هؤلاء يكون طموحاً وماهراً فيعمل على اسقاط
الوزير فيتم ذلك في طرفة عين ، فكان لابد من درء هذا الخطر ، لذلك صمم
المنصور أن تعالج شئون الدولة خارج القصر ، فتذكر (٢١) أن ينشئ في
شرقى قرطبة وعلى ضفاف الوادى الكبير مدينة جديدة وبنى بها قصراً رائعاً

لنفسه ودوراً لغيره من كبار الموظفين ، ولم ينقض عامان حتى كمل البناء وتم إنشاء المدينة التي سميت بالزاهرة (٢٢) ، وما لبث الوزير أن نقل إليها [سنة ٣٧٠ هـ] (٢٣) دوافين الحكومة ، وسرعان ما ضمت الظاهرة بين أكتافها جمهوراً لجبا من السكان ، كما أن الطبقات العليا في المجتمع غادرت قرطبة والزهراء لتكون على مقربة من المكان الذي تصدر عنه جميع ما يوجد لهم وينفعهم ، كما ازدحمت المدينة الجديدة بالتجار ، وما مضى غير قليل من الزمن حتى اتصلت أرباض الزاهرة بأرباض قرطبة (٢٤) .

منذ ذلك الحين أصبح من اليسير مراقبة الخليفة والحايلولة بينه وبين المشاركة في أعمال الدولة ، ومع ذلك فلم يدع المنصور فرصة تمر دون أن يبذل جهده لعزل هشام عزلة تامة ، فلم يقتصر بالمرس يحوطه أو العيون تراقبه بل سور القصر وخندقه واشتتد في أيناء من تحده نفسه بالاقتراب منه فأصبح هشام بن صبيح في الواقع أسيراً إذ لم يكن يؤذن له بمغادرة قصره ، ولم يكن يفوته بكلمة أو يأتى بحركة إلا ويعلم بها الوزير في لحظته ، ولم يكن الخليفة يدرى عن أمور الدولة سوى ما يرغب الوزير في إيقافه عليه ، ولما كانت الحال تتطلب شيئاً من المبطة فقد أشاع ابن أبي عامر أن السلطان الشاب اسلم إليه مقاليد الأمور ليخلّى بين نفسه وبين التفرغ لواجباته الدينية حتى اذا ادرك الوزير نجاحه فيما عمل لم يعد يشغل نفسه به بل لقد منع التفوه باسمه (٢٥) .

أراد ابن أبي عامر ان يضيف الى كل هذه الأمور امراً جديداً لا يقل أهمية مما سبق ألا وهو عزمه على اعادة تنظيم الجيش .

كان الدافع له في هذا التنظيم عاملان : أحدهما قومي والآخر شخصي بحت . اذ أراد أن يجعل اسبانيا في مقدمة الدول الأوربية الهامة ، كما رمى إلى التخلص من غالب وهو قسيمه في الحكم ، وما كان الجيش في وضعه الراهن يتالف جله من عرب اسبانيا فإنه لم يكن يصلح لواحد من الهدفين اللذين يرمي إلى تحقيقهما .

كان التنظيم المركب (٢٦) من غير شك عملاً شاقاً لأن زعماء الجند كانوا يجمعون معظم القوة في أيديهم ، ولم يكن رهن أمر الحاكم سوى شرذمة قليلة من العسكر ، غير أنه كان في استطاعة السلطان دعوة جماعات من الجند تضاف إلى قوات الحدود التي كانت أحسن العسكر ، الا أن العادة جرت على ألا تستدعي هذه القوات الأخيرة إلا عند الضرورة القصوى لأنهم

لم يكونوا يؤلفون جزءاً من الجيش الدائم (٢٧) الذي لم يكن قط كبيراً
العدد فكان لا يتجاوز خمسة آلاف جندي رغم أن الفرسان كانوا اذ ذاك
الجانب الهام من الجيش وعليهم يتوقف مصير المعركة .

ويستصغر ابن حوقل الرحالة شأن فرسان الأندلس ويشير الى أن
عجزهم عن استعمال السروج جعلهم يتركون أرجلهم تتسلق في استرخاء ،
ثم يعود ابن حوقل فينسب الفضل في معظم انتصارات الجيش الأندلسي
على حيله أكثر منها إلى أقدامه ، غير أنه ينبغي أن تذكر أن الشبهة تدور
حول شهادة هذا الرحالة إذ ربما كان الدافع له على التهورين من شأن هذا
الجيش هو رغبته في إثارة مولاه الخليفة الفاطمي بالاقدام على فتح شبهة
جزيرة إسبانيا ، إلا أنه لا جدال في أن مزاعمه كانت تتطوى على شيء من
ال الصحة ، ولا دليل أن عرب الأندلس أخذوا يفدون بالتدريج روحهم العربية
بسبيب ما كانوا يتقلبون فيه من البليهنية وما توفر لهم من طيب المناخ .
لذلك لم يكن ابن أبي عامر أن يطمع في الحصول على فتوحاته باهزة بمثل
هذا الجيش .

زد على ذلك عدم ثقتنا في امكانية الاعتماد عليه في محاربة غالب الذي
لم يكن ثم مفر من وقوع القتال بينهما ، وإذا كان غالب قد أسلى إليه كل
النفع باستغاثة المصطفى إلا أنه أصبح عديم الجدوى له بل غدى يراه عقبة
في طريقه ، ذلك لأن غالباً لم يكن يستصوب أعمال الوزير فكان شديد
المعارضة له لا سيما في موضوع عزل الخليفة ، فقد أحفظه وأحزنه – وهو
مولى لعبد الرحمن الناصر والملكي المتجمس – أن يرى حفيده مولاه الصغير
محاطاً كالأسير وكالمجرم ، لذلك اعزم ابن أبي عامر التخلص من حمية
كراهية منه لمعارضته أيامه ... لكن كيف يتمنى له أن يبلغ غايتها
هذه ؟

لم يكن غالباً كالصطفى رجالاً يسهل التغلب عليه وازاحته بيكيدة
تدبر له في البلاط ، بل كان قائداً بارزاً فلو جاهر غالباً برغبته في تخليص
الخليفة من طغيان وزيره لانقضى إليه أغلب الجيش الذي كان رجاله
يعبدونه ، وهذا أمر لم يكن مجهولاً عند ابن أبي عامر الذي رأى أن وصوله
إلى هدفه يحتم عليه ايجاد قوات أخرى مرتبطة به وحله دون سواه ،
وبعبارة أخرى كان في حاجة إلى جند أجنبي ، وأدرك أن هذا الجند تمده
به المغرب وأسبانيا النصرانية .

لم يكن ابن أبي عامر مهتماً حتى هذه اللحظة بالمغرب لما تحقق لديه
ـ منذ اقامته به ـ تقاضي قضائه – أنضم بلاد بعيدة وفقرة كهنة البلاد إنما

يهقل كاهل إسبانيا أكثر مما ينفعها ، فنهج نهج المصحفى من قبل حين اكتفى باقامة حامية فى سبتة وتمويتها . أما بقية الأقاليم فقد وكل أمر ادارته الى أمراء من أهله باذلا جهده على الدوام لا يجاد روابط مختلفة (٢٨) ، ولا شك أن هذه السياسة التى سلكها ابن أبي عامر كانت من وجهة النظر الأندلسية سياسة طيبة حازمة ، لكنها كانت خطرا على المغرب ، فقد قام بلجين (٢٩) - عامل الخليفة الفاطمى على افريقية - بغزو هذه البلاد فى ٣٦ مارس ٧٩ م (= ٢٤ شعبان ٣٦٨ هـ) حينما رأها مهجورة من قواتها الأصلية ، وتوالت انتصارات بلجين بعضها فى آخر بعض وساق أمامه أولئك الأمراء الذين اعترفا بسلطان الخليفة الأموي عليهم ففروا الى ما وراء سبتة للبحث عن ملجا لهم ، غير أن انتصارات بلجين هذه لم تعرقل مرامى ابن أبي عامر بل أجدت عليه اذ صاقت الحال بأولئك البربر المتقدسين فى سبته ولم يعروفوا ما يعملون للجيش بعد أن سلبهم الغير بلجين جل ما يملكون ، فكان هذا فرصة طيبة للوزير الأسبانى للحصول مرة واحدة على عدد وفير من الفرسان البارعين فلم يتوان عن اغتنامها ، وكتب الى البربر يؤكده لهم توفره الحياة الرغيدة لهم ويمنيهم بالرواتب الكبيرة اذا أحبو المجيء الى إسبانيا فأستجابوا زرافات لدعوه ، وقام أحد أمراء زاب - واسمه جعفر (٣٠) - [بن على ويعرف بابن الأندلسى] - الذى طارت شهرته منذ زمن بعيد لجرأته واجتذبته وعد الوزير الخلابة فقدم الى الأندلس فى ستمائة فارس ، ونهج غيره من البربر نهجه ، وعدل ابن أبي عامر فى كرمه نحوهم رغم ما هم عليه من ضعف اللسان العربى ، حتى لقد كان يفهم عليهم الاصح عما يريدون قوله بغير لسانهم (٣١) .

وعرف ابن أبي عامر فى هؤلاء البربر الشراهة والطعم فلم يترکهم بلا عطاء ولو لم يلحوا عليه بالسؤال ، وذلك لتقديره العظيم لمعرفتهم الذى أولوه ايه . كما دفع عنهم الاستخفاف والازدراء بهم ، ونهى عن السخرية بمحاولتهم الكلام بالعربية لأنهم كانوا يتكلمون فى العادة لغتهم الأصلية التى لا يفهمونها كلمة واحدة (٣٢) ، وحدث فى ذات يوم وهو يستعرضهم أن اقترب منه ضابط بربرى يسمى « وانز مار » وراح يحدّثه فى عربية ركيكة قائلا : « مالك ، ولك ٠٠٠ اسكن فانى فى الفحص » - فقال : « ما ذاك يا وانزمار ؟ » فقال ما معناه : « اخرجتني عنها والله نعمتك . أعطيني من الصياع ما اتصب على منها من الاطعمة ما ملا بيتوى وأخرجنى عنها ، وأنا بربرى مجموع حدبيت عهد بالبؤس ، أترانى أبعد القمع عنى ؟ ، ليس ذلك من رأىي » .

فتلطف به ابن أبي عامر وقال له : « لله درك من فذ عبي ، لعلك في
شكراً للعمدة أبلغ عندينا وأخذ لقلوبنا من كلام كل أشدق متزيد ،
وبليغ متفنن » .

ثم التفت إلى الأندلسين المحيطين به وقد شرقوه من الضحك من لهجة
البربرى وقال لهم : « كذا فلتشرك الأيدي و تستدام النعم ، لا ما أنتم عليه
من العجود الملازم والتشكى المبرح » وسرعان ما أمر لوازمار يسكن
فخم (٣٣) .

★ ★ *

كذلك أمدته إسبانيا النصرانية بالجند الرايع ، ولا كان الليونيون
والقشتاليون والنفاريون قد جبلوا على الطمع وضعف الوطنية فسرعان
ما تهافتو على ما عرضه العربي عليهم من الرواتب الضخمة حتى إذا
ما أصبحوا مرؤوسيه وانخرطوا تحت رايته تفانوا في خدمته وزاد تعليقهم
به ما أحاطهم به من الرفق واللين ، وما حباهم به من الكرم والانصاف الذي
تجلى في حسن معاملته لهم ، وهو ما حرموا منه في وطنهم .

لم تكن عنابة ابن أبي عامر بالجند لتتفق عند حد ، فقد جعل الأحد
يوم راحة لكل جيشه على اختلاف دياناتهم ، كما كان يقف على الدوام
إلى جانب المسيحي في خصامه مع المسلم (٣٤) ، فلا عجب إذا كان تعلق
النصارى به لا يقل عن تعلق البربر به ، وإذا كان هؤلاء وهؤلاء – كما
يقال – من خاصة ملكه فقد انكروا جميعاً من أجله وطنهم ونسوه وإن لم تعدد
الأندلس لهم وطنًا جديداً ، إذ كانوا يجدون مشقة بالغة في قهم لغتها ،
بل كان موطنهم تلك المصادرات ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يأخذون
رواتبهم من خزينة الدولة إلا أنهم لم يكونوا يعملون في خدمتها بل لحساب
ابن أبي عامر الذي يتعلق به مستقبليهم وعليه اعتمادهم ، لذلك كانوا وهن
اشارة ضده من ي يريد .

* * *

وفي الوقت الذي ورحت فيه كفة الأجانب في الجيش بدل الوزير
الماهر نظام العسكر الإسباني الذي كانت قواته موجهة من قبل ضد الحكومة ،
ذلك أن القبائل كانت تؤلف – منذ زمن بعيد – كتائب وجماعات وفرق ،
فأبطل ابن أبي عامر تلك العادة ووزع العرب على الكتائب المختلفة دون
نظر إلى القبيلة التي ينتمي إليها الفرد منهم (٣٥) ، ولو حدث مثل هذا
العمل قبل ذلك بقرن من الزمان حين كان العرب يعتقدون بالروح القبلية
لأدى الأمر إلى انقلاب جنري في قانون التجنيد ، لأنه كان مجرد الاشراف
من بقایا قوتهم الأخيرة مما كان يؤدی بلا شك إلى استثناء شامل ، ولربما

أشعل فتنة عامة . أما الآن فقد أصبح الزمن غير الزمن ولم يعد تنفيذ ذلك الأمر بالعسير اذ لم تبق سوى ذكرى غابرة لفكرة التقسيم القديم الى قبائل ، وجهل كثير من العرب الى أى القبائل ينتمبون ، وعمت بلبلة أيام النسبة من الرأى الصحيح .

حقيقة أن الخليفة الحكم الثاني (المستنصر) الذى كان يعيش الماضي الذى يعرفه تمام المعرفة قد أمر باحياء فكرة الأنساب التى ترجع الى عصر آخر وسائل النسبة اختبارها ، كما اشتته أن ينسب كل عربي الى قبيلته (٣٦) غير أن جهوده كانت عكس السياسة الصحيحة فاصطدمت اذ ذاك بروح العصر وفشلت لأن الميل كان متجها - الا في النادر - الى التوحيد العام ومزج الأجناس بعضها ببعض ، وكان ابن أبي عامر فى قضائه على نظام التقسيم القبلى القديم متمنا لما عمله عبد الرحمن الثالث ، ذلك العمل الذى يتفق والشعور الوطنى .

كان ابن أبي عامر يستعد للحرب فى الوقت الذى يظهر فيه المودة لحبيه [غالب] الذى لم يكن بالرجل الساذج ولا الذى ينقصه فهم مرافق صهره بما أدخله من التغيرات الجسيمة على الجيش فصمم على مناضلاته ، وفي ذات يوم وجدا معا على برج أحد المصنون بالمدود فانهال غالب على المنصور تقريرا ولم يقصر الآخر فى الرد عليه ، واشتد الجدل بينهما حتى تحول الى عنف فصاح غالب وهو فى سورة غضبه به « يا كلب أنت الذى أفسدت الدولة وخربت القلاع وتحكمت فى الدولة » ثم استل سيفه من غمده ورماه به وهو مزيد غضبا ، فسعى بعض الضباط فى أبعاده فلم تتم الضربة وأصيب ابن أبي عامر بجرح من حميته فاشتد خوفه فقفز من أعلى البرج غير انه تعلق أثناء سقوطه ببنائه بارز كان فيه البقاء على حياته .

لم يعد ثم مندوحة عن الحرب بعد هذا الحادث ولم يتاخر اعلانها حين جعل غالب من نفسه المدافع عن حقوق الخليفة فانخرط تحت لوائه جماعة من الجندي ، كما مد له الليونيون يد المساعدة وجرت معارك كثيرة مات فيها جماعة من أبرز رجال البلاط .

فلما كانت آخر وقعة بينهما - وقد أوشكى على الانتهاء وأوشك جيش ابن أبي عامر على الفرار اذ بغالب الواقع أمام فرسانه يصطدم رأسه بقريوس سرجه ويجرح جرحًا مميتا ويسقط ل ساعته من على جواده ، واد ذاك لاذ جنده وخلفاؤه النصارى بالهرب اذ لم يجدوه بينهم ولم يعرفوا

مكانه ، مما أثار ابن أبي عامر نصراً مؤزراً ، ثم وجدت جثة غالب بين القتلى وذلك (٣٧) سنة ٩٨١ م (المحرم ٣٧١ هـ) .

لم يقنع ابن أبي عامر بهذا الفوز العظيم الذي ناله بل أراد معاودة الكرة لمعاقبة الليونيين بسبب مساعدتهم خصمهم ووقفهم إلى جانبها ، كما أراد أيضاً أن يبين لوطنيه أنه إذا كان قد أحدث جيشاً عظيماً فخماً فإنه لم يوجد له مصالحة الخاصة وحدها بل ولغير البلد أيضاً ، فخرج غازياً مملكة ليون وأذاقها من التكال وجعل مقدمة جيشه بقيادة أمير يجري في عروقه الدم الملكي ويسمى بعد الله ويلقب بالبطرشك (٣٨) فاستولى على سمورة في يوليو ٩٨١ م (٣٧١ هـ) ونهبها .

ولما عجز المسلمون عن ارغام الحصن على التسلیم أسرفوا في الانتقام فجعلوا كل ما حول البلد طعمة للنار والدماء وقتلوا بعد السييف أربعة آلاف مسيحي وأسرموا مثلهم ، حتى لقد بلغ بهم الأمر أن خربوا في منطقة واحدة ألفاً من القرى والدساكير الأهللة بالسكان وهدموا الأديرة والكنائس ، وحينذاك قام راميرو الثالث – ولم يكن جاوز العشرين من عمره – فحالف غرسية فرناند قومس قشتالة ، كما حالف ملك نفارة (٣٩) ، وسار ثلاثة ضد ابن أبي عامر واحتدم القتال عند روتة (٤٠) في الجنوب الغربي من شنكت منكس غير أنهم هزموا أمامه واستولى المسلمون على حصن شنكت منكس العظيم وأسرروا قلعة إذ أعملوا القتل في غالبية السكان والجند (٤١) .

وعلى الرغم من أن الشتاء كان قد دنى إلا أن ابن أبي عامر أمر بمواصلة الزحف على ليون فهب راميرو لصدّه ودفعه وكأن الخط أكبر بسالته فنجح في دفع المسلمين وأجبرهم على التراجع إلى معسكرهم حيث كان المنصور على عريش مرتفع يشاهد المعركة ويصدر أوامره ، فلما رأى فرار رجاله احتدم ثنيطاً وتغير مرجل غضبه ونزل عن كرسيه ثم خلع خوذته النحيبية وافترش الأرض ، فأدرك جنده مرماه إذ كانت تلك عادة قاتلهم كلما أراد اظهار سخطه حين لا يحسنون النزال ، كما أن رؤيتهم رأسه وهي عارية كان له أبلغ الآثر في تفوسهم فخجلوا لتراجعهم ، ورأوا تلاقي لك مهما كلفهم فشدوا على العدو شدة عنيفة حتى ولـيـادـيـهـ هـرـبـاـ منـهـ فـتـبعـوهـ بـسيـوـفـهـ حتـىـ بـلـغـواـ أـبـوـابـ ليـونـ وـكـادـواـ أـنـ يـجـتـلـوـهـاـ لـوـلـاـ بـأـنـهـ تـمـتـهـ عـاصـفـةـ هوـجـاءـ صـحـبـهـ الغـامـ والـبرـ فـأـرـغـمـتـهـ عـلـىـ التـخـلـىـ عـنـ المـعرـكـةـ (٤٢) .

عاد ابن أبي عامر الى قرطبة لحلول فصل الشتاء فلقب بالمنصور وهو لقب لم يكن الا للخلفاء وهو ما سنتلقه عليه من الان فصاعدا ، ثم اراد ان يحظى بكل مراسيم الشرف الخاصة بالسلطان فطلب ان يلائم به كل شخص يأتى الى حضرته : وزيرا كان او أميرا ، فأجيب الى ذلك ، بل لقد ذهب الناس الى أبعد من ذلك فكانوا يقبلون أيدي أطفاله الذين مازالوا بعده في المهد . (٤٣)

وخيّل للناس أنه بلغ من القوة مالا مزيف عليه ، فقد أصبح بلا منافس، لكنه لم يقنع بذلك كله بل كان يرى ان هناك رجلا آخر يمكن أن يكون خطرا عليه في قادم الأيام ان لم يكن حتى الآن ، ونعني به القائد (٤٤) جعفر أمير زاب الذي أدى له الخدمات الجلى أيام محاربته لغالب ، غير أن شرف مولده وشهرته الحربية أثارا غيرة المنصور وأشراف البلاط فصم ابن أبي عامر أن يقوم بعمل يلقي على شمس مجد جعفر كلفة لا تمحى ، إذ أصدر تعاليمه السرية إلى التجيبي أبي الأحوص من وعبد الرحمن بن مطرف بالخلاص منه ، ثم دعى جعفر إلى مأدبة أدبها له فلباهما ، وكانت وليمة فخمة زاد في بهجتها التبید الرائع الذي راح يديره الساقى بلا حساب بلعفر ، وكان الوزير المنصور يقول للساقى : «أسقها أعز الناس على» ، فاختار الساقى من المقصود من هؤلاء السادة بكلام مولاه المنصور فصاح به : «ناولها الوزير جعفر أبا أحمد ، عليك لعنة الله» ، فاستخف هذا الاطراء جعفرا ووقف رافعا الكأس وشريها حتى الثمالة ، ونسى آداب اللياقة فرقص وسرت النسوة في الندامى الآخرين فتمثّلوا به .

وطالت الوليمة حتى أذن الليل بالرحيل ، حتى اذا همّوا بالاتصارف كان السكر قد بلغ ببعضه ملأه حتى لم يعد يعني شيئا ، فلما مضى قاصدا داره في صحبة قليل من الخدم اذا بنفر من السكر التجيبيين يهاجمونه في الطريق ويقتلونه وهو لا يملك الدفاع عن نفسه ، وكان ذلك يوم ٢٢ يناير سنة ٩٨٣ م [= ٣ شعبان سنة ٣٧٢ هـ] ، وأرسلوا رأسه ويمتهن إلى المنصور الذي ادعى جهله بقاتليه ، وإن تظاهر بالحزن العميق لصرعه (٤٥) .

الفصل الثاني

النزاع بين راميرو وابن عمّه برميدو . الاستعانتة
بالمسلمين . ليون ولاية اسلامية . المنصور يستعد لهاجمة
فرنسا . استضافة ابن الخطاب له ولعسکره . سقوط
برشلونة في يد المسلمين . تغلب المنصور على الكونت
بوريل . التفاته شطر المغرب . ابن كنون وقربه إلى
الفااطميين ، ثم ارساله عسقلانة لمحاربة المنصور في المغرب .
مقتل ابن كنون وغضب الناس من أجله . اتهام عسقلانة
بالتمر وقتله . المنصور يحاول تهدئته الثوار ضسه بزيادة
التوسيعة في المسجد . تجدد الحرب ضد ليون . انتصار
الجيش الاسلامي واستسلام سمورة . المنصور يشك في رجاله
وولده عبد الله . عبد الرحمن التجيبي يثير الابن على أبيه
ويتحالفان ضده . كيف تغلب المنصور على خصمه . عبد الله
بن المنصور ينضم الى غرسية . استسلام غرسية وتسليم
المنصور لولده عبد الله . خروج المنصور لهاجمة برميدو .
نهاية ابن البطرش .

الفصل العاشر

الأمور تتواءم في وجه المنصور

سواء عرف الناس حقيقة مصرع جعفر أو جهلوها فإن انتصارات المنصور الجديدة سرعان ما أنستهم هذه الجريمة . فقد استغل المنصور لصالحه مشاكل ليون الداخلية إذ هلك رامiro الثالث لفشله في حملة ٩٨١ م ، ولم يهدّ كبار رجال مملكته يرغبون في أمير لازمه سوء الطالع (١) ، كما جرّهم في كبيرةائهم بتمسّكه بالسلطة المطلقة ، فثبتت ثورة في جليقية وصمم أشرافها على أن يسوقوا العرش إلى ابن عم رامiro وهو برمندو وتوجّوه في الخامس عشر من أكتوبر ٩٨٢ م (ربيع الثاني ٣٧٢ هـ) في كنيسة شنت ياقوب ، وسرعان ما نهض رامiro لمحاربته وجرت بينهما معركة في *Portella de arenas* الواقعة على حدود ليون وجليقية ، لكنها لم تكن معركة حاسمة على الرغم من عنفها (٢) ، وأخيراً بدأ الحظ يواتي شيئاً فشيئاً جيوش برمندو الثاني الذي انتصب من يده خصمه في مارس ٩٨٤ م مدينة ليون (٣) ، فخفّ الأخير أن تدور الدائرة عليه فحاول أن يوجد ملجاً في أرباض أشتورقة ، ثم اضطر أن يسأل المنصور مساعدته لقاء اعترافه بسيادته عليه (٤) ، غير أنه مات بعد قليل في ٣٦ يونيو ٩٨٣ (٥) ، فحاولت أمه أن تحل مكانه معتمدة على عون المسلمين (٦) ، لكنها سرعان ما أبصرت انهيار آمالها ، ذلك أن برمندو أدرك أنه سوف يلاقي صعوبة كبيرة في التفاهم مع الأشراف الذين يرفضون الاعتراف به ولم يوجد مندوحة له من أن يفعل ما فعله رامiro فاست Jegde بالمنصور الذي وضع تحت أمرته جيشاً إسلامياً ضخماً استطاع بمعونته اخضاع جميع مملكة ليون لسلطانه ، لكنه لم يهدّ منذ ذلك الحين إلا قائدًا للمنصور ، كما رابط في بلاده رهط كبير من القوات الإسلامية لمراقبة الأمور ومساعدته (٧) .

حين رأى المنصور أن ليون غلت ولایة تدفع الجزية له عزم على توجيه جنده لمحاربة قطالونيا التي كان الخلفاء يرعاونها حتى ذلك الوقت خوف قيام الفرنسيين بمحاربتهم أن هم هاجموها نظراً لأنها كانت تابعة لفرنسا ، غير أن المنصور لم يبال أبداً بهذا الأمر لمرقته بأن فرنسا كانت إذ ذاك نهب الفوضى الاقطاعية ، وأن الأمراء القطالونيّين لا يتوقعون أي

مساعدة تأييدهم من جانبها (٨) ، وحشد المتصور حشدًا كثيفاً من الجنديين غادر بهم قرطبة في الخامس (٩) من مايو ١٩٨٥ ومعه قرابة أربعين من خاصته من الشعراء الذين يرافقهم ويصلهم للتغنى بانتصاراته (١٠) ، ومر في طريقه بالبيروت وبإسمة ولو رقة حتى بلغ مرسية فاستضافه ابن الخطاب الذي لم يكن من عمال الحكومة بل صاحب أملاك شاسعة تدر عليه دخلاً كبيراً ، ولما كان من الموال الأمويين فالارجع أنه قوطى الأصل ، وربما كان أصله يرجع إلى « تدمير » الذي عقد مع المسلمين وقت الفتح معااهدة في صالحه مؤداتها أن يحكم هو وابنه آنانا جيلد Athana Gild شبه مستقلين على ولاية مرسية (١١) .

ومهما يكن الأمر فقد كان ابن الخطاب رجلاً مبسوطاً الكف وافر الشرا ، فلم يكتف باستضافة المتصور وحاشيته على ثقته الخاصة ثلاثة عشر يوماً (١٢) بل استضاف كذلك جميع الجنديين من الوزير إلى الشرطي ، واهتم بنفسه بمائدة المتصور ولم يحدث قط أن قدم في مرة طعاماً قدّمه من قبل ، أو آنية سبق أن وقعت عليها العين ، حتى لقد أدى به الإسراف ذات يوم لأن يهينه مضيفه حماماً من ماء الورد ، ومع أن المتصور ألف حياة الرفاهية إلا أنه ذهل لما أظهره ابن الخطاب فلم يقصر في الثناء عليه ، وأظهر شكره إيهام قاتل باسقاط جزء من الخراج عليه ، وألزم الولاة التوامين على إدارة الأقاليم برعايتها ولا يقصروا قط في تلبية ورغباته (١٣) .

غادر المتصور مرسية إلى قطالونيا حيث نازل الكونت بوريل (١٤) فلما كان الأربعاء أول يوليو (= ١٠ صفر) وصل إلى برشلونة وهاجها ، وفي يوم الاثنين التالي (= ١٥ صفر سنة ٣٧٥ هـ) وقعت المدينة في يده (١٥) فحكم السيف في رقبة الكثيرين من جندها وأهلها وأسر من بقي حياً ، وخرب البلد وأضمر في التهوان (١٦) .

ما كاد المتصور يُؤوب من هذه الحملة التي هي الثالثة والعشرون في عداد حملاته (١٧) حتى وجه همه شطر المغرب ، وما كان يعني من الحرب أبداً بل كان دائم التطلع إلى فتوح جديدة .

لقد بقى المغرب سنوات عدة في يد بلجين عامل الخليفة الفاطمي على افريقية ، أما في المدة الأخيرة من حكم هذا الأمير وبعد موته (١٨) في مايو ٩٨٤ م فان الشيعة الأموية أخذت في التحرك ، كما قامت عدة بلدان مثل فاس وسجلماسة وطرحت عن نفسها نير الفاطميين ، وحينذاك قام أمير مغرب إسلامه كاد المرء أن ينساه وأعاد التمثيل على المسرح ذلك هو ابن كثون الأدريسي (١٩) الذي انضم – كما قلنا – في أيام الحكم الثاني إلى صف غالب ثم استنزل إلى قرطبة وبقي بها حتى بعث به المصطفى إلى تونس بعد

أن عاهده الا يرجع الى المغرب أبدا ، غير أن ابن كنون لم يكن يهتم فقط باللواء بعهده فقد قصد بلاط الخليفة الفاطمي (٢٠) وأخذ يلاحقه عشر سنوات كي يمساعده على رده الى ما كان عليه ، فلما نجح في الحصول على المال والرجال عاد الى موطنها الأصلي واشتري بالمال سواعد الكثرين من زعماء البربر له وأوشك أن تكون له السيادة : الأمر الذي كان المنصور يعمل للتحيلولة بينه وبينه ، فاتخذ لهذا الحادث تجهيزاته الضرورية فارسل الى بلاد المغرب عددا كثيفا من الجندي بقيادة ابن عمه (٢١) (عمرو بن عبد الله بن عسقلانة) ، ولم تطل الحرب اذ كان ابن كنون ضعيفا الى درجة لا تمكنه من مقاومة خصميه فيما لبث أن استسلم له بعد أن أنهى عسقلانة على حياته وأذن له في الاقامة بقرطبة كسابق عهده .

لم يكن أدنى شك في أن قطع العهد لرجل شديد الجشع موغل في الخيانة كهذا الرجل إنما هو أمر ينطوى على عدم التبصر ، وقد يتساءل المرء عما إذا كانت لعسقلانة الصلاحية في قطعه له ، ويتذكرنا المؤرخون العرب في طلام في هذه الناحية ، الا أن سيرة المنصور تحملنا على الظن بأن عسقلانة قد جاز حلمه سلطنته ، لأن الوزير أعلن أن ليس لعهده قيمة ، ولما حمل ابن كنون الى الاندلس ضرب عنقه ليلا في الطريق بين الجزيرة الخضراء وقرطبة وذلك في شهر سبتمبر او أكتوبر ٩٨٥ (= جمادي الأولى ٣٧٥ هـ) .

ومع أن ابن كنون كان طاغية مستبدًا يشعر باللذة العارمة حين يطرح من لديه في الجبس من ذروة صخرة النسر الا أن طريقة قتله أثارت عطف الجميع عليه ، فقد كان شريفا من نسل النبي [عليه الصلوة والسلام] فمن ثم كان التجاسر على حياة مثله خطيئة شتماء في أعين هذه الجماعات حتى ان الجندي الغلاظ الذين قتلوا امتنالا للأمر الصادر اليهم ساورتهم الريبة واشتد بهم الخوف حين هبت فجأة عاصفة طرحتهم أرضا فاعتبروها نذيرًا وعقابا أنزلته السماء بهم ، وانقسم الناس طائفتين : واحدة عدت عمل المنصور هذا كفرا وأخرى اعتبرته خيانة ، اذ كان عليه الوفاء بالعهد الذي قطعه قائله كما لو كان هو نفسه الذي قطعه ، وتجاهر الناس بهذه التهم رغم شدة المنصور التغاضي عن هذه الروح السالدة وببدأ يخشى العاقبة كل الخشية ، ويستطيع المرء أن يتصور مبلغ الغضب الذي يصل اليه حين علم بأن عسقلانة هو أكثر القوم سخطا عليه ، وأنه تجاسر أمام جنده فصرح بما انطوى عليه عمل ابن عمه من الغدر ، لذلك كان لابد له من أن يدفع ثمن هذا التهور غاليا ، فبادر المنصور الى مطالبته بالعودة الى اسبانيا ل ساعته

وأتهمه بالغدر والخيانة العظمى وأدائه وقتلته (٢٢) في أكتوبر أو نوفمبر ٩٨٥ م (= جمادى الثانية سنة ٣٧٥ هـ) .

وتعالت الصيحات اذ ذاك من جديد ٠٠٠ وأشفق الناس من نكدة طالع ذلك الشريف وعلى مصير عسقلاجة أيضا ، ورأى القوم أن المنصور لا يصح عن البرهنة من جديدة على استعماله العنف مستهينا بكل العلاقات ووسائل الدم والقربى وذلك بقتله ابن عمه ٠

أما عشيرة ابن كنون المفجوعة في أمالها التي عقدتها على هذا الأمير وقد أوشك أن يصبح حاكم المغرب كله فقد عملت أقصى وسعها لاثارة الفتنة ، فلما اتصل بالمنصور خبر الملكية التي يدبرونها له أمر ينفهم جميعا فأخرجوا من إسبانيا والمغرب معا ، غير أن أحدهم – وهو ابراهيم بن ادريس – أصمى قلب الوزير قبل رحيله بسهم أراشه من قصيدة طويلة له لهج بها الناس وراحوا ينشدونها وفيها يقول :

فيما أرى عجب لمن يتعجب جلت مصيبيتنا وضاق المنصب
انى أكتب مقلتي فيما أرى غلطت فيما أحسب
أيكون حيا من أمية واحد ويسوم ضخم الملائكة هذا الأسلوب (٢٣)
تشى عساكرهم حوال هودج امسواه : فيهن قرد أشهبه
ابنى أمية أين أقمار الدجى منكم ، وما لوجوها متغيب
ابنى أمية أين أقمار الدجى منكم ، وأين نجومها والركب
غابت أسود منكم عن غابها فلذاك حاز الملك هذا الثعلب (٢٤)
وسواء أكان ثعلبا أم لم يكن ، اذ لا يزال هذا النعمت الذى نعمته به
الصحيفى عالقا به – فقد ايقن المنصور ضرورة القيام بعمل شىء يسترجع
به ما كان له من المكانة عنده الناس ، فعزم على زيادة سعة المسجد الذى
اصبح يضيق بسكن العاصمة وبالجند الكثيفين القادمين من افريقيا ،
فبدأ بنزع ملكية أصحاب البيوت القائمة على الأرض التى يراد البناء
عليها ، وكان هذا العمل من جانبه يتطلب كثيرا من اللباقة والحكمة واللين
حتى لا يؤدى الأمر الى مقتله وكراسيته ، ولم يكن المنصور بالذى يشق له
غبار فى هذه التواحى فراح يتقدم الى أصحاب الدور واحدا بعد الآخر ، وكان
متوليه بين يديه شرقا عظيما لهم ثم يقول للواحد منهم : « ان هذه الدار
التي لك يا هذا أزيادها لجماعة المسلمين من مالهم وفيتهم لازيدتها فى جامعهم
وموضع صلاتهم ، فشطط واطلب ما شئت » فإذا ذكر محدثه الثمن الذى

يراه قال له : « هذا كثیر » ثم لا يكتفى بأن ينقد البائع ثمن داره بل يمدد أيضا الى شراء مسكن آخر له .

وحدث أن ظلت امرأة أمدا طويلا ترفض التخلص عن بيتها لوجود نخلة في حديقتها كانت شديدة التعلق بها ، فلما رضخت أخيرا اشترطت عليه أن يشتري لها سكنا سواه ذا نخلة في ساحتة ، وكان هذا الطلب من الصعوبة بمكان ، غير أنه لما سمع بما طابت قال : « تباع لها دارا بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال » ثم عثروا لها بعد طول بحث على بيت يطابق ما اشتهرت به فاشتروه بعد أن أغلى أصحابه في الثمن .

آتى السخاء أكله ، ومهما كانت نفقة القوم على الوزير إلا أنه لا يمكن انكار مقدرته على الأعمال الخيرة العظيمة ، كما أنه من ناحية أخرى أرغم المتدبرين على الاعتراف بأن الزيادة في المسجد عمل يستحق من أجله الشوبة .

أضف إلى هذا أنه حين بدأت أعمال البناء شاهد الناس جماعات من الآسرى النصارى المقيدى الأقدام وهم يعملون في تسوية الأرض ومن ثم قيل أن مجده الإسلام لم يتلاؤ هذا التالؤ من قبل ، ولم يصل الكفرة إلى هذا الحد من المهانة والذلة .

كذلك شوهد المنصور نفسه - ذلك السيد القوى وأعظم قادة هذا العصر - يحمل المكتل والمنشار كائى عامل بسيط ، كل ذلك تقريبا منه للخالق ، ... مما أخرى أن تتلاشى جميع الآثام أمام هذا المنظر (٢٥) .

* * *

في الوقت الذي كان العمل جارياً ابانه في توسيع المسجد تجددت الحرب ضد ليون ، ذلك أن القوات الإسلامية المرابطة في هذه المملكة أساعت السير أسايتها في بلد مغلوب على أمره ، وكلما تشكى برميدو الثاني إلى المنصور لم يتلق منه الا جواباً صريح في صلف وازدراء ، فلما عيّل صبره نهجاً نهجاً صارماً لطرد المسلمين (٢٦) مما دفع المنصور إلى ضرورة اشعاره مرة أخرى بتفوق جيوشة عليه وإن كان هو في سريرته راضياً كل الرضى عن هذه الحرب الجديدة ، رامياً من ورائها إلى صرف أهل العاصمة لمحاودة الحديث عن وقائعه وانتصاراته وفتحاته بدلاً من البحث عن أمور لا تعنيهم أبداً ، وقام هو بتقديم مادة الحديث إليهم .

ولما استولى على مدينة قلمورية في يونيو ٩٨٧ م (= صفر ٣٧٧ هـ) سواها بالأرض حتى لقد ظلت مهجورة (٢٧) سبع سنوات ، فلما كان

العالم التالي عبر نهر دويرة وانساب الجيش الإسلامي في مملكة ليون انسياب السيل الجارف ، مخربا كل ما يصادفه في طريقه غير مستيقظ على المدن أو القلاع أو الأديرة والكنائس أو القرى والمزارع (٢٨) ، فرد عليه برميدو بأن هاجم مدينة سمورة (٢٩) ، ولا شك أنه كان مدفوعا في ذلك بالثقة من مهاجمته هذه المدينة أولاً ، غير أن المنصور أسقطها من حسابه ، وسار رأسا إلى ليون التي كانت أن تسقط في يده مرة قبل الآن لولا مناعة حصنها وضخامة أبراجها ولو لا أيضا أبوابها الاربعة الرخامية وأسوارها الرومانية التي ينبع عرضها على عشرين قنتما ، فكانت لكل هذه الأسباب بالغة الحصانة والقوة ، فعزت محاولات العدو الذي نجع أخيرا في فتح تغرة على مقربة من الباب الغربي في الوقت الذي كان فيه قائد الحامية – واسمه القومس الجليقي – طريح الفراش لعلة شديدة ألت به ، ثم مالبث الخطر أن بلغ أقصى مداه ، واذ ذاك لم يعبأ القومس بمرضه بل تسرب في لحظته بلباسه الحربي وأمر أن يحمل في محفنة إلى التغرة فألهب مرآة وكلامه حماسة جنده الخامدة فوقعوا صامدين أمام العدو ثلاثة أيام ، لكن تمكّن المسلمون في اليوم الرابع من اقتحام المدينة من بابها القبلي وجرت مذبحة مروعة حتى لقد قتل هذا القومس في محفنته وكان الواجب احترام بطولته ، وانساب المنتصرون بعد القتل مخربين كل ما في طريقهم فلم يدعوا حبرا على حجر ، ودكوا ما صادفهم من الأبواب والبروج والأسوار والقلعة والبيوت دكا شديدا ، ولم يبقوا إلا على برج واحد قائم بجانب الباب الشمالي يكاد ارتفاعه يساوي ارتفاع الأبراج الأخرى ، إذ أمر المنصور بتركه كما هو راما من وراء ذلك أن يكون شاهدا للأجيال القادمة على بأس البلد الذي محاه من على سطح الأرض (٣٠) .

وارتد المسلمون بعد ذلك إلى سمورة فحاصروها بعد أن أحرقوا ما صادفهم في طريقهم من دياري بيرا سلونسا وسهاجون الفخدين (٣١) .

أما برميدو فكان دون قائله شجاعاً إذ تسلل خفية ولاذ بأذیال الهرب ، فلما عرف ذلك أهل البلد أسلموا القصر إلى المنصور الذي أباح سمورة للسلب والنهب ، وحينذاك اعترف أغلب الكوئنات بسلطته عليهم ، أما برميدو فلم يعد له غير تلك التواحي المجاورة للبحر (٣٢) .

ومضى المنصور بن أبي عامر بعد ذلك عائدا إلى الزاهرة بعد تلك الملحمة العظيمة ، لكنه كان قلقاً الخاطر مشغول البال بأمور بالغة الخطورة ، فقد اكتشف أن كبار رجاله يتآمرون عليه ، وفيهم ابنه الشاب عبد الله البالغ من العمر الثانية والعشرين .

لم يكن عبد الله محبوباً من أبيه رغم شجاعته وفروسيته الرائعة ، وذلك لشك يخامر أباه في صحة تسبته إليه وإن جهل الابن ذلك الأمر ، ولكنه كان يرى أباه يوثر على الدوام أخاه عبد الملك الذي يصغره بست سنوات ويقدمه عليه مع اعتقاده بأنه يفوقه ذكاء وشجاعة ، لذلك كان يحسن بكراهية عنيفة حادة حتى قبل وصوله إلى سرقة مقر عبد الرحمن بن مطرف التجيبي عامل السلطان على التغر الأعلى ، وجر عليه هذه المجلس النكبة إذ كان مضيقه شيخ أسرة بارزة توارث رجالها ولاية الملك في هذه الناحية مدى قرن كامل من الزمان .

ولما كان المعروف عن المنصور أنه يميل دائماً إلى اضعاف شكيمة أشد رجال الدولة يأساً (٣٣) فقد كان من الطبيعي أن يخشى عبد الرحمن (بن مطرف التجيبي) وهو آخر الأشراف الباقين على قيد الحياة من أن يكون بدليل ضحية لطعم هذا الوزير ، ومن ثم راح يتدارس الأمر قبل وقوعه ، ولم يكن تريشه في علم التمرد إلا انتظاراً لفرصة مواتية ، وهذا قد لاحت له الآن هذه الفرصة إذ وجد في عبد الله الشاب اليه الصالحة لتنفيذ خططه ، فراح يضم سخطه على أبيه ويدرك فيه شيئاً فشيئاً فكرة التمرد ويحثه على الثورة عليه ، واتفق الاثنان : التجيبي وعبد الله على امتناع السيف حالماً تسعن الظروف وأن يتقاسماً إسبانياً فيما بينهما إذا كتب لهما النصر في هذا الصراع فيكون لعبد الله (٣٤) وسط الأندرس ولعبد الرحمن الشمال . وساهم في هذه المؤامرة كثير من أصحاب المراتب العليا في الجيش والحكومة على السواء ، وكان من بينهم أمير يجري في عروقه الدم الملكي هو عبد الله البطرشك الذي كان وقتئذ عاماً على طليطلة .

كانت هذه المؤامرة بالغة الخطورة واتسعت حتى لم يهد في الامكان أن يطول سترها عن عين الحاجب الحذرة ، وترامت إلى سمعه في بادي الأمر أخبار غامضة أخذت تتضخم شيئاً فشيئاً ، وسرعان ما اتخذ التدابير الناجعة لاحباط خطط أعدائه فاستدعى ابنه إليه وأظهر له ثقته به خديعة منه ومحالطة ، وحباه بعثاته ورضائه عليه ، واستقل بمقدمة عبد الله البطرشك وصرفه عن عمل طليطلة دون أن يعلم ذريعة أشبه بالحق يتذرع بها لتبرير مسلكه ، واصطنع البشاشة معه فجازت الحيلة على الأمير الذي لم يساوره أدنى شك من ناحيته عنده ، الا أن المنصور سرعان ما جرده من لقبه كوزير وحرم عليه مغادرة بيته .

* * *

لما أمن الوزير جانب اثنين من كبار المؤامرين بفضل حذره الشديد أعد حملة لمحاربة القشتاليين بعد أن أنهى لولاة الحدود أمره بالحضور إليه ومرافقته ، فامتثل عبد الرحمن بن مطرف للأمر وفعل بقية الأمراء قعله .

ثم أغري المنصور من عنده من جند سرقسطة للشکوی من عبد الرحمن ففعلوا واتهموه بأخذ أرذاقهم وجسدها على نفسه ، فعزله المنصور من منصبه يوم ٨ يونيو ٩٨٩ م (= سلخ صفر ٣٧٩ هـ) ولما كان عازفاً عن مجافاة كل عشيرة هاشم فقد قلد يحيى بن [عبد الرحمن بن مطوف] المعروف بسماعة ولادة الشغر الأعلى ، ولم تنقض غير أيام قلائل حتى ألقى القبض على عبد الرحمن ذاته دون أن يفهمه أنه على علم بالمؤامرة ، بل كان كل ما زعمه هو أنه يريد أن يتحقق في الطريقة التي سلكها في التصرف في رواتب الجندي التي عهد إليه بدفعها لهم .

ما ليث عبد الله [بن المنصور بن أبي عامر] أن اشتراك في الجيش نفاذًا للأمر الصادر إليه ، وحاول المنصور استعادة مجتبه بما حباه به من ضروب العطف ، غير أن جميع محاولاته في هذا الصدد ذهبت أدراج الرياح ، فقد صمم عبد الله تصديقاً باتاً على قطع كل ما بينه وبين أبيه ، فحمد في أثناء حصار شنت: اشتباين دى جرمان الى ترك المسكن سرا غير مستصحب معه سوى ستة من علمائه ، والتباين الى غرسية الذي أمنه وأمنه ، وبقي رغم تهديدات المنصور أيام مقينا على عهده له أكثر من عام توالى عليه خلاله المحن بعضها في أثر بعض وحاقت به الهزائم في كل المعارك التي خاضها ، حتى إذا كان أغسطس ٩٨٩ سلب المنصور مدينة وخشمة وأقام بها حامية إسلامية كما استولى على « القبة » (٣٥) ، ثم جد نفسه في النهاية مضطراً لطلب الصلح وتسليم عبد الله إلى أبيه .

وجاءت كوكبة من الفرسان من قشتالية قادت الثائر إلى معسكر والده وقد امتطي بغلارها جليل الحليمة أهداه إليه القومس ، ولما كان واثقاً من عفو أبيه عنه فقد كان خالاً البال ، هادئ النفس ، وبينما هو في الطريق إذا به يصادف كتبة مسلمة بقيادة سعد الخادم الذي قبل يده وطمأن خطره ملقياً إليه أن أباً يعتبر ما فعله ضرباً من الطيش ينفتر لمَّا كان في مثل سنِّه ، وكانت هذه هي لهجة الحديث وقت وجود القشتاليين معه ، فلما انصرقو إلى معسكرهم عند شواطئ نهر دويرة تراجع سعد إلى الوراء وأشار إلى من معه من الجندي بالترجل والاستعداد لقتله ، فلما سمع العامر الشجاع هذه الكلمات غير المتوقعة لم تطر نفسه شعاعاً ، بل وتب في خفة إلى جوار يغله واحتفظ بمعالمه الصلبة ولاقي الموت ثابت الجنان ، وكان ذلك يوم ٩ سبتمبر ٩٩٠ م [= ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ] .

وكان شريكه عبد الرحمن قد أعدم قبله إذ أدين بخيانته أمانة منصبه ، فضربت عنقه بالماهرة ، وأما عبد الله البطرشك فقد نجع في الأفلات والاختفاء عند برميدو (٣٦) .

لم يقنع المنصور بافقاده هذه المؤامرة ففقد على قومه قشتالة ما فعله من مد يد المساعدة الى ولده عبد الله ، ودبر خطة للثأر منه ، فحرك ثائرة شانجة بن القومس ليتمرد بسلوته على أبيه، ولما كان شانجة هذا معتمدا على تأييد أغلب رجال الدولة له فقد أعلن الحرب في سنة ٩٩٤ م (٣٧) ، واز ذاك قام المنصور فأغ垵ه واستولى على حصنى شانت اشتبين وقلونية ، لكنه سرعان ما ارتاح لانهائه هذه الحرب ، ذلك لأن بطانته التي أفت التفكير على نمطه – أو التي كانت تتظاهر بهذا – عيل صبرها مثله من الحرب ، فكانت لا تجد أحسن من القول بأن كل الظواهر تشير الى قرب خضوع غرسية له حتى لقد حدث أن وفده عليه ذات يوم الشاعر صاعد ممسكا ببايل وأخذها زمامه بيده ، وأنشدته قصيدة متوسطة البيان قال فيها :

مولاي مؤنس غربتني ، متخطفى من ظفر ايامي ، منع معلى عبد نسلت بضيعبه وغرسته في نعمة ، أهدى اليك بايل سميته غرسية وبعثته في حبله ، ليتاح فيه تفاؤل فلشن قبلت فتكلك أسمى نعمة أسدى بها ذو منحة وتطول وشاءت الصدفة العجيبة تحقيق ذلك اذ أصيّب غرسية بستان رمع وأسر في الطريق ما بين القصر ولانجه على شواطئه دويرة في نفس اليوم الذي أحضر فيه الشاعر الوعل الى مولاه أعني يوم الاثنين ٢٥ مايو سنة ٩٥٥ م ، ولم تنقض خمسة أيام على هذا الحادث حتى مات القومس متاثرا بجراحه . ومنذ ذلك الوقت خلا الجو لشانجة فلم ينافسه منافق ، لكنه كان مضطرا للسفر جزية سنوية الى المسلمين (٣٨) .

في خريف هذا العام نفسه خرج المنصور قاصدا محاربة برميبلو انتقاما منه لزياته متآمرا آخر (٣٩) ، فأصبح ذلك الملك في حال يرثى لها اذ فقد كل شيء ولم يعد له من السلطة غير اسمها ، فقد انتهت الأشراف كل ما به من أرض وخسم وقطعان ، وتقاسمواها فيما بينهم ، ثم سخروا منه حين قام مطالبها باستردادها ، حتى ان الملوك الصغار الذين أقامهم حراسا على القلاع المتناثرة هناك تمردوا عليه وكانتوا يشعرون بين آونة وآخرى بما موتة (٤٠) ، الامر الذى لم يكن ذا أهمية سواء أكان حقا أم باطلأ لكنه كان ذا أهمية للمنصور مشجعا له اذ ما الذى يستطيع عمله ضد هذا القائد القوى .

لا شيء مطلقاً .

إلا أنه سرعان ما انتبه إلى غفلته بعد سقوط استرقة (٤١) التي اتخذها عاصمة له بعد خراب ليون والتي لم يليث أن غادرها حين اقترب العدو منها ، ثم آثر الحكمة والعقل فطلب الصلح فأجيب إليه على أن يسلمه عبد الله البطرشك وإن يدفع جزية سنوية (٤٢) .

* * *

الظاهر أنه بعد أن أسلم كونتات كاريون عاصمتهم إلى جوميز اخذوا يتذمرون على المنصور سلطنته فكر راجعاً أخذنا معه الأمير عبد الله البطرشك البائس الذي قبض عليه في توقيع (٤٣) (= شوال ٣٨٥ هـ) . ولما كان المنصور يعلم من قبل بجرائم فقد اشتبط في معاقبته فقيده بالسلسل وأردفه على بغير (٤٤) وأمر أن يطاف به في شوارع العاصمة والمنادى يصيح أبلمه (٤٥) : « هذا هو عبد الله بن عبد العزيز الذي أثار العدو على مصالح المسلمين » . فيما كادت هذه الكلمات تطرق سمعه حتى أحس الخزي والعار وقال : « كذبت وأيم الله : إنما قل انه رجل طمع في الولاية ولم يكفر » .

ومن ذلك فقد كانت توزع الشجاعة الأدبية إذ نسي أنه ينبغي على مثله أن يتسلح بالشجاعة قبل الأقدام على المؤامرة ، فلما طرحوه في السجن خاف أن يأخذوه بعد قليل إلى المشنقة فأبدي ضعة خطت من شأنه الرفيع ، وكانت عكس الصراوة التي أظهرها زميله (عبد الله) بن المنصور إذا اتت في الأشعار التي بعث بها إلى الوزير بأنه كان العوبة سخرت فيما حدث ، كما حاول أن يذهب غضب ابن أبي عامر فنزل إليه وأطال ، فسماه بأكرم الرجال حتى لند قال (٤٦) :

يا من برحماء استمنت وحق لي منه الغياث : علاك ، استرعنى دمى

وتفعلت هذه المذلة (٤٧) فابقى المنصور على حياته لاستصغاره قتل مثل هذا الشخص ، لكنه خلاه رهن الجنين الذي بقى فيه لم يمارسه إلا حين مات المنصور ، فاسترد حريرته يومئذ فقط (٤٨) .

الفصل الخامس عشر

المنصور يعمل على جعل نفسه الحاكم الأعلى ولكن فكرة «الشرعية» تتعارض معه . صبح تقف في طريقه . ذيরى بن عطية عامل الخليفة بالغرب يرفع علم الثورة ضد المنصور . أطماع ذيরى . صبح تبعث بالمال إلى ذييرى سرا . المنصور يدبر الخطة لضرب ذييرى . صبح . نجاحه في استئصاله مرسوم بتفويضه تصريف الأمور . اعتراف صبح بفصياع ذييرى . حملة المنصور على شنت ياقب ثم على البرتغال . القبض على خطاب جاسوس وكشف مؤامرة القومس الليونين . المنصور يعاود هاجمة ذييرى ونهايته .

لقد كان يخشي الشعب .

لكن هذا الشعب كان لا يعرف هشاما بن الحكم بل لم يكن هناك غير قلة من الناس في العاصمة نفسها هي التي رأته ، لأنه كان في المرات النادرة التي كان يغادر فيها سجنه النهبي إلى قصوره الريفية كان يخرج محاطاً بنساء قصره ، وكان هو مثلهن تماماً مغطى ببرنس كبير حتى ليعجز المرأة عن تمييزه من بينهن، وكانت الشوارع التي يمر فيها خاصة بالجندي تنفيذاً لأمر الوزير ٠٠٠٠٠٠ ومع ذلك فقد كان هشام محوباً من شعبه (١) .

اليس هو ابن الحكم المستنصر الخليفة الطيب التقى ؟

ثم أليس هو حفيد البطل عبد الرحمن الناصر ؟

ثم أليس هو بعد ذلك كله العاكم الشرعي ؟

لقد كانت فكرة الشرعية متأصلة في كل النفوس ، حية في قلوب العامة أكثر مما هي في نفوس الأشراف الذين يرجع أغلبهم إلى أصل عربي والذين لا يستبعد أن يتخلوا عنها إذا كان في تغيير الأسرة فائدة تعود عليهم أو إذا كانت الضرورة تفرض هذا التغيير، بيد أن تفكير الأمة التي كانت ترجع إلى أصل إسباني كان ينافق تفكير هؤلاء ، إذ كان شعورها الديني وتعلقها بالأسرة الحاكمة يؤلفان جزءاً من كيانها ، وعلى الرغم من أن المنصور قد كرس الوطن بالفسخ والرافاهية اللتين لم يكن يحلم بهما قط إلا أن الشعب لم يكن ليغفر له بأي حال من الأحوال أنه جعل الخليفة أسيراً للدولة ، ولم تكن الأمة جموعاً لتتوانى عن الثورة على الوزير لو أنه حاول الجلوس على العرش ، ولم يغب ذلك كله عن فطنة المنصور ، غير أنه أخذ يمني نفسه بتحول الرأي العام شيئاً فشيئاً ، ويطمع أن ينسى الشعب الخليفة نسياناً تماماً ولا يفكر إلا فيه هو وحده ، وحينذاك يتسعى له تغيير الأسرة الحاكمة دون حدوث أي اضطراب .

لذلك كان من الخير لابن أبي عامر أن يؤجل مشروعه الضخم ادراكاً منه أن قرته معلقة بخيط واه ، فعلى الرغم من جميع ما أحرزه من الفتوحات والأمجاد إلا أنه كانت هناك امرأة كادت أن تنبع في الإطاحة به .
وأسقطه

تلك المرأة هي صبح .

لقد أحبته . . . لكن زمن العواطف العارمة كان قد انطوى من حياتهما معاً ، فتخاصماً وتضيّق الحب في قلبيهما وحلت مكانه الكراهية يضمّرها

كل منها للآخر ، ولم تكن صبح بالمرأة المترددة التي تقف في منتصف الطريق اذا سلكت الطريق ، فقد كانت عنيفة في كرهها وحقدها عنفها في شقيقها وحبيها ، فصممت على أن تسقط المنصور وتتوسل لتحقيق ذلك باثارة كل من في البلط والحرير من الرجال والنساء ، وتحدثت الى ولديها هشام ذاكرا له أن الشرف يقتضيه أن يظهر بمظاهر الرجال ، وأنه آن الأوان لتحطيم القيد الذي حاول الوزير الطاغية تقييده به .

وتمت على يدها المعجزة اذ نجحت في أن تبىء القوة والنشاط في دجل كان من أكثر الرجال خمودا لكن ما لبث المستور أن اكتشف للمنصور وسقط القناع عن المخفي فكان اذا لاقاه لاقاه متوجهما ، بل لقد أسرف فلم يكن يتواتي عن تكريمه ولوهه ، فرغم الوزير في تجنب العاصفة وعمد الى ابعاد كثير من الاشخاص الخطرين في الحريم ، لكنه كان عاجزا عن اخراج من هي روح المؤامرة ، بل ان تدبيره هذا أدى الى زيادة حنقها عليه ، ولم يكن التعب ليجد سبيلا الى تلك المرأة التفارية بل أظهرت أنها ذات ارادة حديدية كتلك التي لعشيقها القدم ، فأخذ جواسيسها يذيعون - أني حلو - أن الخليفة يرى أنه قد آن الأوان ليتحرر ويحكم بنفسه ، وانه يعتمد على وفاء شعبه الكريمه في تأييده للتخلص من سجنه ، بل لقد عبر رسول السلطانة الضيق [واجتوا العدو ، وبلغوا افريقيا] وفي اللحظة التي تجمع فيها العامة المشاغبون بقرطبة رفع ذيرو بن عطية - عامل الخليفة على بلاد المغرب - علم الثورة وأعلن أنه لم يعد في طوقة احتمال الألم الذي يشعر به تجاه أسرة الحاكم الشرعا على يد وزير طاغية .

كان ذيرو الشخص الوحيد الذي مازال المنصور يخشيه وظل يخافه طول حياته ، اذ كان من عادته الاستخفاف بأعدائه تخويفا لهم ، وما كان هذا الزعيم نصف بربى فقد ظل محتفظا في صحرائه الافريقية بصفات جنس انفرض ، وأعني بهذه الصفات البطش والعنز والصلف ، ومع ذلك فقد تحمل المنصور نفوذ هذا الرجل الشديد الصولة ، وحدث أن استضافه هذه علة سنين وأكرم وقادته تقديرا لمكانته ولقبه بالوزير ووصله بمال الوفير الذي يناسب هذا اللقب ، ودون جميع أتباعه في ديوان البند ، غير أن ذيرو لم يشا الرحيل حتى يوضعه النقوتين وهداياه اليه ، ولم يكن مما أحاطه به المنصور من أثر في نفسه اذ ما كاد يعود الى الأرض الافريقية حتى رفع يده الى رأسه وصاح (٧) : « الآن علمت أنك لي » ، ثم ناداه أحد رجاله بالوزير فنهاه عن هذا النداء وقال له : « وبيحك ٠٠٠ وزير؟ والله أمير ابن أمير ، واعجبني من ابن أبي عامر ومحرقته ، لأن تسمع بالعيدي خير من آن تراه ، ولو كان بالأندلس وجبل ما تركه على حاله » .

وعلم المنصور بهذه الكلمات التي كانت كافية لاطاحة رأس أي شخص آخر لكنه ظاهر بضم الاهتمام بها ، وما لبث أن عين بنفسه زيراً عاملاً للخليفة على جميع بلاد المغرب ، وذلك بالرغم من تحفه منه وكراهيته له ، ولكنـ كان يعتقد فيه الوفاء والصراحة . غير أنـ هذا الحادث أظهر له فساد حكمه اذ لم تكن صراحة زيراً ولا جفاف طبعه سوى قناع يخفى تحته كثيراً من الطمع والحدق ، لذلك سهل على صبيح اغراقه بمال ل يقوم بدور البطولة الذي رسمته له ، ولعلـ كان يريد اطلاق سراح مولاـه من أسر المنصور ليكون في أسره هو .

لم تكن صبيح بالـتي تجهـل وجـوب الـبدء بتقدـيم المـال اليـه ، وـدلـها دـهـاؤـهاـ الانـشوـى علىـ الوـسـيـلـةـ التـى تـعـمـدـ اليـهـ فىـ الحصولـ علىـ المـالـ ومـدـ حـالـيفـهاـ بهـ ، وـلاـ كانـتـ تـعـرـفـ أنـ بـخـزـينـةـ القـصـرـ ماـ يـقـرـبـ منـ ستـةـ مـلـاـيـنـ دـيـنـارـ فقدـ أـخـذـتـ مـنـهـ ثـمـانـينـ أـلـفـاـ وـضـعـتـهـ فـيـ مـائـةـ كـوـزـ وـغـطـتـهـ بـالـشـهـدـ وـالـمـرـىـ وـبعـضـ السـوـاـئـلـ الـمـنـزـلـيـةـ وـأـلـصـقـتـ عـلـىـ كـلـ جـرـةـ وـرـقـةـ باـسـمـ ماـ فـيـهـ ، ثمـ عـهـدتـ إـلـىـ جـمـاعـةـ مـنـ الصـقـالـبـ بـحـمـلـهـ إـلـىـ مـكـانـ سـمـتـهـ لـهـ خـارـجـ الـدـيـنـةـ ، وـتـجـحـتـ حـيلـتهاـ فـلـمـ يـخـامـرـ الـوـزـيرـ شـكـ ماـ ، فـتـرـكـ الصـقـالـبـ يـمـرـونـ بـأـحـمـالـهـ ، وـبـيـنـماـ كـانـ الـمـالـ فـيـ طـرـيقـ إـلـىـ الـمـغـرـبـ إـذـاـ بـالـمـنـصـورـ يـلـمـ بـالـخـيـرـ بـطـرـيـقـ مـاـ فـاشـتـدـ اـضـطـرـابـهـ شـدـةـ مـاـ كـانـ لـهـ أـنـ تـكـوـنـ لـوـ كـانـ يـعـلـمـ أـنـ صـبـحـاـ اـخـتـلـستـ مـالـ مـوـلـاهـ السـلـطـانـ هـشـامـ ، لـكـنـ الـأـمـورـ جـمـيعـهـاـ كـانـتـ تـحـمـلـهـ عـلـىـ أـنـ تـدـيرـهـاـ الـمـالـ كـانـ بـعـلـمـ مـنـ الـخـلـيـفـةـ مـاـ يـجـعـلـ مـاـ جـرـىـ خـطـيرـاـ خـطـوـرـةـ تـحـتـمـ عـلـيـهـ الـقـيـامـ بـعـلـمـ شـىـءـ مـضـادـ ، وـمـزـعـانـ مـاـ عـقـدـ اـجـتمـاعـاـ دـعـىـ إـلـيـهـ الـوـزـرـاءـ وـكـبارـ الـطـلـمـاءـ وـسـوـاـهـمـ مـنـ أـصـحـابـ الـكـلـمـةـ مـنـ رـجـالـ الـبـلـاطـ وـوـجـهـ الـبـلـدـ ، وـأـفـضـىـ إـلـيـهـمـ أـنـ نـسـاءـ الـحـرـمـ سـوـلـتـ لـهـنـ أـنـفـسـهـنـ الـأـسـتـيـلـاءـ عـلـىـ أـمـوـالـ بـيـتـ الـمـالـ دونـ الـخـلـيـفـةـ نـظـرـاـ لـاـنـصـرـافـهـ التـامـ إـلـىـ الـوـزـرـاءـ وـأـجـبـاتـهـ الـدـيـنـيـةـ ، وـظـلـبـ إـلـيـهـمـ أـنـ يـخـولـوهـ السـلـطـةـ فـيـ نـقـلـ الـأـمـوـالـ إـلـىـ مـكـانـ مـأـمـونـ فـأـجـيـبـ إـلـىـ مـاـ طـلـبـ وـاـنـ لـمـ يـؤـدـ ذـلـكـ إـلـىـ تـيـجـةـ حـاسـمةـ ، إـذـ جـاءـ عـمـالـهـ إـلـىـ الـقـصـرـ لـنـقـلـ الـخـزـينـةـ فـحـالـتـ صـبـحـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ مـاـ يـرـيدـونـ زـاعـمـةـ أـنـ الـخـلـيـفـةـ يـمـنـعـهـمـ مـنـ ذـلـكـ .

وـأـوـقـعـ فـيـ يـدـ الـمـنـصـورـ مـاـذاـ يـفـعـلـ !!

أـيـلـجـوـ إـلـىـ الـقـوـةـ ؟ـ ..ـ لوـ أـنـهـ فـعـلـ ذـلـكـ لـكـانـ هـذـاـ عـمـلاـ مـوجـهاـ ضـدـ الـخـلـيـفـةـ ذـاتـهـ .

وـإـذـ حـاـوـلـ الـمـنـصـورـ النـهـاـبـ إـلـىـ هـذـاـ الـحـدـ فـسـوـفـ تـعـصـمـ الـعـاصـمـةـ فـيـ طـرـفةـ عـيـنـ :ـ تـلـكـ الـعـاصـمـةـ التـىـ تـتـطـلـعـ إـلـىـ الـثـوـرـةـ وـلـاـ تـنـظـرـ إـلـاـ اـشـارـةـ مـنـ الـخـلـيـفـةـ .

على أنه مهما كانت خطورة الموقف الا أنه لم يصل الى حد اليأس طالما لم ينزل زيري بجيوشه في أسبانيا ، وطالما لم يظهر الخليفة بمظهر الرجل القادر على تصريف الامور بنفسه .

وهكذا لم يفقد المنصور شجاعته مadam زيري في افريقيا وما دام الخليفة روح بلا معنى ، لذلك خاطر المنصور بالهم في سبيل الامر فغافل صبيحا واحتال على مقاولة الخليفة وتحديث اليه ، وما لبث ابن أبي عامر بعد هذا اللقاء ان استعد قوته كملك يفضل هذا التفوز الذي تمليه الشخصيات القوية على الشخصيات الضعيفة ، فقد اعترف الخليفة بعجزه عن الحكم بنفسه ، وفوض للمنصور السلطة في نقل الخزينة .

لكن ذلك لم يكتف المنصور بل راح يبحث الخليفة على اصدار مرسوم كتابي بذلك ، وبهذا تقطع جهيزه قول كل خطيب فوعده الخليفة بكل ما أراد ، واذ ذاك دفع اليه ابن أبي عامر مرسوما يقضى بأن يترك له هشام تدبير جميع الشئون كما كان الأمر في الماضي ، فوقعه الخليفة في حضرة الكثرين من رجال الدولة البارزين الذين صادقا على خاتمه وكانوا شهودا على ما فعل ، وكان ذلك في فبراير أو مارس سنة ٩٧٧ م ، سعي المنصور اذ كيف يتأتى لشخص ما أن يدعى اندلاع الثورة في العاصمة

أمن المنصور منذ ذلك الوقت اندلاع الثورة في العاصمة
اذ كيف يتأتى لشخص ما أن يدعى اندلاع أسرى يعزف عن الحرية ؟

ومع ذلك فقد أدرك الوزير أنه يجب عليه ارضاء الجمورو الذى كانت صريحاته تعانى بلا انقطاع ملحقة في رؤية سلطانه ، فرأى المنصور أن يتحقق للعامة طلبها فأركب هشاما جوادا شق به شوارع العاصمة والصولجان فى يده وقلنسوة الخلفاء الطويلة على رأسه ، وسار معه المنصور وجميع رجال البلاط ، واكتنطت الطرق بالجموع الكثيفة ولم يختنق النظام أبدا ولم تطرق الآذان قط صيحة شعب (٨) .

واعترفت صبيح بهزيمتها ، وأصبحت حزينة مغلوبة على أمرها محظمة النفس ، فراحت تنشد في العبادة سلو الماضي والعرض عن آمالها
القائلة (٩) .

بقي هناك زيري الذى تضاءل خطره منذ أن فقد نصرة الخليفة له والأموال التى كانت تمده صبيح بها، ولم يعد المنصوري يرى سبيلا للتفاهم

معه بل عده خارجا على الدولة الشرعية وعهد الى عبده الطليق واضح بالخروج لمحاربته على رأس جيش عظيم وضعه تحت امرته (١٠) .

ربما يستبعد البعض قيام المنصور بحرب أخرى قبل أن يفرغ من حرب المغرب ، لكن جرت الأمور على غير ما يتصور أحد ، اذا غتنم برميدو فرصة انشغال الوزير بثورة زيري فقط العزبة ، لذلك دبر المنصور مع اتباعه الكوئنات الليونين حملة عظيمة ضده ، ولعل اصراره على خروجها اليه – رغم الظروف المحيطة به – يرجع الى رغبته في أن يدرك زيري وبرميدو وجميع أعدائه الظاهرين والخفيين أن في قدرته النهوض بحربيين في وقت واحد واذا كان هذا هو مقصده فإنه لم يكن مبالغا في ثقته بقواته اذا قدر لهذه الحملة التي كان مقدما عليها – وأعني بها حملة شنت ياقب دي كومبستل – أن لا تدائها في شهرتها حملة مما قام به خلال عصر فتوحه الطويل .

ونحن اذا استثنينا المدينة الخالدة روما فليس في أوروبا قاطبة مكان ييز في قدسيته شنت ياقب بغاليسية ، ومع ذلك فليس في هذه الشهرة بالقديمة اذ أنها لا ترجع الى أبعد من عصر شارمان ، اذ يقال انه في أثناء هذه الفترة أن أفضى كثير من الجماعات المتدينة الى تيودومير اسقف اييريه (المعروفة اليوم باسم el Padrom) أنهم رأوا في غبش الظلام أضواء تحطف الأ بصار تلتمع في غيضة ، كما تراهم الى سمعهم موسيقا شجعية ليست من أهل الدنيا ، وسرعان ما عدها الاسقف معجزة ، وتأهب ليتأكد بنفسه عما حدثوه به ، فعكف على الصوم والصلوة ثلاثة أيام سويا مضى بعدها الى الأجمة فادا به أمام قبر من الرخام فاوحي اليه كما قال ان يعلن أنه لابد وان يكون للحواري يعقوب بن زبدي الذي كان تزعم الأسطورة أنه بشر بالإنجيل في إسبانيا ، ومضى فأضاف الى ذلك أنه لما أمر هيرودوس بضرب عنق هذا الحواري في بيت المقدس حمل تلاميذه جثمانه الى غاليسية ودفنه بها ، ولو قدر لهذه الرواية أن تكون في غير هذا الوقت وكانت موضع جدل وحجاج وانكار ، أما والنصر عصر ايام ساذج فلم يكن أحد يتشكك فيما يقول القسيس حتى ولو كان ما يقول مناقضا للواقع والعقل ، ثم ما لبث البابا ليو الثالث (١١) أن أعلن على رؤوس الاشهاد أن القبر المذكور هو قبر القديس يوحنا ، فكان هذا البيان خاتمة كل بيان ، وأمن الناس بما زعمه تيودومير ، وراح أهل غاليسيا يتباهون بأن عظام أحد الحواريين موجودة تحت ثرى أرضهم حتى ان ألفونسو الثاني أراد أن تكون اقامة أسقف اييريه منذ ذلك الوقت في تلك البقعة التي اكتشف فيها القبر ، وشيدت على الضريح كنيسة ثم جاء بعد ذلك ألفونسو

(الثالث (١٢) فبني أخرى تتبه على ساقتها في روعتها وحسنها ، واكتسبت شهرة فاتقة بفضل ما قيل عن المعجزات الجمة التي جرت بين جدرانها ، وما أوشك القرن العاشر على الأفول حتى أصبح ضريح القديس يوحنا كومبستل مزاراً دائم الشهادة يحج اليه الناس من جميع الجهات وشتي النواحي ، ويقصده القوم من فرنسا وإيطاليا وألمانيا بل وأقصى ربوغ الشرق (١٣) .

وذاع في كل بقاع الأندلس أيضاً أمر يوحنا الرسول وخبر كنيسته الفخمة التي يقول فيها أحد المؤلفين العرب « إنها كانت عندهم بمنزلة الكعبة في الإسلام ، يحجون إليها من أقصى بلاد روما وما وراءها (١٤) » ، غير أن الأندلسيين لم يعرفوا هذا الاسم إلا سماها ، إذ لو أراد أحدهم رؤيته لأسره الغاليسيون ، ومن ثم لم يفكر أبداً أي عربي أن يقود جيشاً يقتصر به هذا البلد الثنائي ، الصعب المرتفق .

ولما لم يكن ذلك الخاطر قد من قط ببال أحد ما فقد صمم المنصور على اقتحامه ، وأراد أن يظهر للملأ أن المستحيل على غيره ليس بالمستحيل عليه هو ، وطبع في تخريب أعظم المذايق قداسة عند أعداء الإسلام لا وهو مذبح الحواري الذي يزعم أهل ليون أنه طالما حارب في صفوفهم .

وفي يوم السبت ٣ يوليو ٩٩٧ م (= ٢٤ جمادي الآخرة سنة ٣٨٧ هـ) غادر المنصور قربة على رأس فرسانه فحمل أولاً على قوريه ، ثم على بازة (١٥) حيث انضم إليه عدد كبير من القواسم المفترفين بسيادته عليهم ، ثم حمل على بر تعال ح حيث كان ينتظره أسطوله الذي أبحر من باب قصر أبي دانس المعروف اليوم في البرتغالية باسم : Alcacero de sol حاملاً على ظهره المشاة الذين تخلصوا من مشقة السير الطويل ، وكان الأسطول مجهزاً بالسلاح والذخيرة ، ثم ضمت السفن بعضها إلى بعض ف تكون منها جسر عبر عليه الجيش نهر دويرة .

ولما كان الأقليم الواقع بين هذا النهر وبين نهر منهوا في أيدي كونتات محالفين للمسلمين (١٦) فقد عبره المسلمون دون أن تقابلهم آية عقبة على الأرض الصعبة العبور ، من ذلك أنه كان يوجد جبل شاهق الارتفاع صعب المرتفق غير أن المنصور عبد فيه طريقاً بأيدي الفعلة بالحديد (١٧) .

بعد أن اجتاز القوم وادي منهوا وجدوا أنفسهم في أرض العدو ومن ثم كان عليهم أن يكونوا يقطن كل اليقظة ، إلا أن أكثرية الليونيين الموجودين

في الجيش لم تكن مطمئنة تماماً ، فقد تيقطت ضمائراً لهم قجاءة بعد طول سكون ، فتذكروا أنهم ذاهبون لاقتراف جريمة شناء وقادوا أن يحيطوا بالحملة لو لا أن سمع المنصور بما دبروه فعالج الموقف قبل أن يفلت الزمام ، ويضيع الوقت ، واليك ما قيل في هذا الصدد :

كانت ليلة شديدة البرد عاصفة الريح غزيرة المطر ، فدعى المنصور أحد فرسانه وقال له : « انهض الآن الى فوج طليارش (١٨) واقم فيه ، فأول عابر يمر بك سقه الى » ، فمضى الفارس في لحظته لطيته حتى بلغ الفوج وقضى الليل. بطوله منتظراً لاعنا ما هو فيه دون أن يرى أى شيء فيه حياة ، وأوشك الفجر أن يشرق حين لاح له من جانب المعسكر شيخ هرم يمتنع حماراً ، ويظهر على الرجل أنه خطاب اذ كان يحمل آلة الخطب ، فاستوقفه الفارس. وسألة عن وجهته فأجابه الآخر : « وراء الخطب » - فلم يدر الجندي ما يفعل به فقال في نفسه : « هذا شيخ مسكين نهض الى الجبل يروم خطباً فما عسى أن يريد المنصور منه » ٩

ثم تركه يمضي لحال سبيله ، لكنه ما لبث أن تراجع عن رأيه متذكراً أن أوامر المنصور صريحة باته ، وأن في عدم اطاعتها خطايا عليه ، ومن ثم أعمل الجندي مهمازه في ذاته حتى أدرك الخطاب الكهل وقال له : « ارجع الى مولانا المنصور » فسألة الرجل : « وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى ؟ ٠ ٠ ٠ سألك بالله أن تتركني لطلب رزقى » فقال الفارس : « لا أفعل » وهكذا اضطر الرجل لاطاعته وعاد الى المعسكر .

لم يهد على الوزير الذي لم تخض له عين أى مظاهر من مظاهر المحسنة ان يسوق اليه الفارس كهلاً كهلاً الكهل ، بل قال ملن حوله من خالمه الصقالبة : « فتشووه » فامثل الصقالبة لأمره فلم يجدوا معه ما يريب فقال لهم المنصور : « فتشوا برذعة حماره » وفي هذه المرة لم تذهب شكوكه عيناً اذ وجدوا في السرج رسالة كتبها بعض الجنديين الذين في الجيش الاسلامي الى مواطنיהם يذلونهم على ناحية ضعيفة من المعسكر ، ويدركون. لهم أن النجاح حل عليهم ان هاجموه منها ، فلما وقف المنصور على ما في الرسالة وعرف منها اسماء الخرونة أمر فاطيحت رقباهم في الحال ومعهم الخطاب الوسيط بينهم وبين اخوانهم في الخارج (١٩) . وكان لهنه الخطبة الحكيمية أثرها النابع فقد جزع الديونيون الآخرون من بطش القائد فلم يعودوا يفكرون في مثل هذا الأمر والاتصال بال العدو .

وتتابع الجيش زحفه منسابة انسياط السيل الجارف فخراب قى. طريقه ديرى القديسين « كوزمو » و « داميان » واستولى على حصن.

شنت بلاية ، وما كان عدٍ كبير من سكان البلد قد فروا إلى أكبر الجزرتين ملتجئين إليها أو على الأصح إلى أحدى الصخريتين المتخضتين الموجودتين في خليج « فيجو » فقد تعقهم المسلمون بعد أن خاضوا مخاضة اكتشافها فعبروها إلى هذه الجزيرة وأخذوا منها بها كل ما حملوه معهم ثم عبروا إلى « أيلة » سالبين مخربين إيريه (البدرون) نفسها التي كانت مهاجرا شهيرا لوجود الحراري هنا دى كومبستل بها . ثم وصلوا إلى هذه المدينة الأخيرة في شهر أغسطس فوجدوها خالية من السكان الذين آثروا الهرب حين سمعوا بقدوم العدو ، فلم يجد المسلمون غير ناسك عجوز كان مقينا بجوار قبر الحراري فسألوه المنصور : « ما ذا تعمل هنا » فقال الشيخ : « أونس يعقوب » فقال له المنصور : « أقم على إيناسك » ، وكف عنه كل ذى .

وأقام المنصور حامية على القبر حتى لا تتمد إليه أيدي جنده وهم يغسلون سكره جنونهم .

أما بقية البلد فقد دكها عن آخرها ، وحطم أسوارها وبيوتها بل وكنائسها التي يقول بضيدها أحد المؤلفين العرب إن النزول على شئت ياقب كان يوم الأربعين فغوردت هشيميا كان لم تغيره بالأسى .

ومضت القوات الخفيفة فخربت ماجاورها وسبارت قد ما حتى يلقت شانت مانكش القرية من كورون .

بعد أن أمضى المنصور أسبوعا في شنت ياقب أمر الجندي بالرجوع إلى ليبور (۲۰) ، فلما يلتفها أذن لطفائه التوامين بالرجوع بعد أن وصلهم بالهدايا الجميلة لا سيما الآتوب الغالية ، ثم فصل خبر حملته في كتاب بعث به إلى البلاط ، وهو قصة حفظ لنا المؤرخون العرب مادتها بل وربما نص الفاظها (۲۱) ، ثم دخل قرطبة وفي صحبته جماعة من أسرى النصارى حاملين على آكتافهم أبواب مدينة شنت ياقب وتوافقوا كثيستها .

فاما الأبواب فقد وضعت في الجامع الذي لم يكن قد فرغ من إنشائه حتى ذلك الوقت (۲۲) ، وأما التوافقوا فقد علقت في سقف البناء مستعملة كمسابيع (۲۳) .

اذن فمن ذا الذي كان يجعل بخاطره يومذاك أنه سيأتي يوم يقوم فيه ملك مسيحي يرد هذه التوافقوا إلى غاليسية عبي آكتاف الأسرى المسلمين ؟

★ ★ ★

أما في المغرب فكان خط جيوش المنصور أقل سعداً .

حقيقة أن واصحاً أصاب بعض النجاح في مبدأ الأمر حيث استولى على أصيلة ونكور ، ونجح في مباغتة معسكر زيري ليلًا ، وقتل كثير من رجاله ، لكن لم يلبث التوفيق أن جافاه فحاقت به الهزيمة حتى اضطر للقرار إلى طنجة حيث وجه رسالة للوزير يطلب منه إنجاده بالإمدادات حال استلامه الكتاب ، فلم يكُن المنصور يتسلّم كتاب قائله حتى أنفذ عدداً كبيراً من الجنود إلى الجزيرة الخضراء ، وأسرع في العمل على إبحارهم ورافقهم بنفسه إلى هذا الميناء ، وعهد إلى ابنته عبد الملك المظفر بقيادة الحملة فعبر المضيق على رأس جيش فخم أرسى به في سبتة ، وكان لخبر وصوله تأثير عظيم إذ بادر أغلب البربر الموالين له بالانضمام إلى لواء عبد الملك ، الذي سار بجميع من معه بعد انضمام واضح بعنته إليه ، وسرعان ما التحموا بجيش زيري الذي كان يزحف لمحاربتهم ، وجرت بين الجانبين وقعة في شهر أكتوبر سنة ٩٨٨ م ، استمرت من شروق الشمس إلى مغيبها ، وحمى وطيس القتال ، وبينما جند المظفر على وشك الهزيمة إذا بزيري يطعن في ثلاثة أماكن بيد عبد كان منه من قتلته زيري ، فشك الأمير باديء ذي بدء في كلام الرجل الهارب إليه ، إذ كانت راية زيري لا تزال منصوبة ترفرف ، فلما تأكد عنده صدق مقاله كر على العدو كرة شديدة وظهر عليه .

منذ ذلك الوقت تلاشت سلطان زيري ودخلت أملاكه جميعها في حوزة الأندلسين ، وما لبث جراحاته التي أصابه بها العيد أن نقلت فمات (٢٤) .

وكان ذلك سنة ١٠٠١ م (= ٣٩٢ هـ) .

الفصل الثاني عشر

حملته على قشتالة . مرضه . وصاته الى ولده
عبد الملك . موته . مجمل القول فيه . قوة جيشه وهيبة
الأندلس . عطفه على الآداب والعلوم .
الأندلس . عطفه على الآداب والعلوم . صاعد الأندلسي
البغدادى . أخلاق المنصور .

الفصل الثاني عشر

خاتمة المتصور

في ربيع ١٠٠٢ م قام المتصور - وقد اقتربت نهايته - بآخر حملة لله ، وكان يتنى على الله دائماً أن يلقى ربه ومنيته في ساحة الولي ، وكان شديد الإيمان بآياته دعاه هذا ، حتى لقد كان يستصحب معه على الدوام كفنه الذي خاطته له بناته ، ولم يدفع في هذا القياش غير المال المحول إليه من ضياعته المحبيطة بيته الموروث في « طرش » ليكون منزهاً عن كل حرام ، وأمر لا يدفع فيه شيء من مال متحصل عليه من غير هذا الوجه ، وكلما دنى من الشيوخة ازداد تعبداً ، ولما كان القرآن الكريم يشير إلى أن الله عاصم من النار وجوه الذين غفروا أقدامهم بتراب الجهاد فقد جرت عادة المتصور - كلما بلغ محلة من المحلات - أن يبادر إلى جمع ما يكون قد علق بشيابه من التراب ويحتفظ به في صرة أعلى لها هذا الترثي وحده . ولما حضرته المنية أمر أن يجعلوا هذا التراب معه في لحده عسى أن تكون المشقة التي تكبدها في جهاده شفيعاً له عند رب العرش (١) .

ولقد تكللت بالنصر حملته الأخيرة التي شنتها على قشتالة شأنها في ذلك شأن جميع حملاته السالفة ، وتغلق حتى بلغ Canales (٢) ، ودك دير القديس أميلن حامي قشتالة ، كما خرب قبل ذلك بخمس سنوات كنيسة حامي غاليسية .

وفي أثناء عودته اشتد به المرض ، ولما كان سـ« الظن بـأطبائه الذين لم يتتفقوا على تشخيص كنه علته أو كيف يكون بـرأه منها فقد أصر على رفض كل ما أشاروا به عليه من علاج ، يقيناً منه بأنه غير ناج من الموت ، وقعد به الداء حتى أعجزه عن امتناعه جواهـ فـحمل في محفـة وقاسـ الآلام الشداد حتى كان يقول : « إن زمامـ يـشتمـ على عـشـرينـ ألفـ مـرـتزـقـ ما أصبحـ فيـهمـ أحـمهـ أسوـاـ حـالـةـ منـيـ » .

وظل ابن أبي عامر محمولا على ظهور الرجال أربعة عشر يوما حتى
أدرك مدينة سالم ، لا يشغل باله سوى خاطر واحد هو أن سلطته كانت
مضطربة على الدوام غير ثابتة الدعائم وتقابل بالمعارضة ، وعلى الرغم من
انتصاراته الجمة وشهرته المدوية إلا أنه كان يخشى حدوث ثورة بعد موته
تطوح بكل ما لأسراه من الآثار ، واستبدله بهذا الخاطر فعكر عليه صفو
أيامه الأخيرة فدعى إلى سريره ابنه البكر عبد الملك وألقى إليه بتعاليمه
ووصياته .

لقد أوصاه أن يكل قيادة الجيش إلى أخيه عبد الرحمن أما هو فيمضي
إلى قرطبة ليأخذ أزمة الأمور في يديه ، وأن يبادر إلى قمع كل محاولة
يراد بها اثارة الفتنة ، فوعده عبد الملك باتباع نصائحه والعمل بارشاداته ،
غير أن اضطراب المنصور كان قد بلغ درجة وصل الأمر منها أنه كلما هم
ولده بالعودـة - حين يحسب أن أباه قد فرغ من حديثه - أرجعه المنصور
إليه خوفا من أن يكون قد نسى شيئا ، ولم يكن يعدم في كل مرة نصيحة
يضيفها إلى ما سبق أن أوصاه به ، وحيث أن بك الشاب فنهره أبوه وأنبه
على جزعه الذي عليه فاتحة خور ، ولما انصرف الابن عبد الملك استجتمع
المنصور قواه بعض الشيء ودعى إليه قواده الذين كادوا أن ينكروه لشدة
هزالة واصغرار وجهه حتى لاح كأنه الشبيح ، وكاد أن يفقد القدرة على
الكلام فودعهم بحديث لا يبين أكثره ، وعمد إلى الأشارة يفسر بها ما عجز
لسانه عن الافصاح به ، ثم لم يلبث أن لفظ نفسه الأخير في مساء الاثنين
العاشر من أغسطس (٣٩٢ هـ) = (٢٧ رمضان) ، ودفن في مدينة سالم
وقد نقش على قبره هذان البيتان :

آثاره تنبك عن أخباره حتى كأنك بالعيون تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبدا، ولا يحمي الثغور سواه (٤) .

أما الكلمة التي أودعها راهب مسيحي في حلباته فلم تكن
أقل بيانا عن هذين البيتين إذ يقول فيها « في سنة ١٠٠٢ م ، مات
المنصور وذهب إلى الجحيم » (٥) .

ولا شك أن هذه الكلمات البسيطة التي أملتها على الراهب كراهيته
ل العدو موسى في الشري هي أوضح في تقدير مكانته من المرأىطنانة التي
قيلت فيه .

والواقع أنه لم يكن لنصارى الجزيرة خصم كهذا الخصم ، فقد شن
المنصور عليهم أكثر من خمسين حملة (إذ كان من عادته أن يفزو غزوتين
كل سنة ، أحدهما في الربيع والأخر في الخريف) ، وقد خرج منها

كلها ظافرا ، واد أستقطنا من حسابنا ما هدمه من البلدان التي كان من بينها ثلات عواصم هي ليون وبانبلونة وبرشلونة (٦) فقد خرب كذلك هيكلى حامى غاليسية وقديس قشتالة ، ويقول أحد المؤرخين (٧) النصارى : « فى هذا الوقت البعيد اندثرت العبادة الربانية من إسبانيا وتضائل كلها مجد خدام المسيح ، وتهبت أموال الكنيسة المتجمعة خلال عدة قرون » .

ولقد أصبحت قلوب النصارى ترتجف لذكر اسمه ، وطالما أنقذه هذا الذعر الذى يشه فىهم من أحطار دفعته إليها جرأته حتى لم يكونوا يجرؤون على الانتفاع بالظروف التى يتهيأ لهم فيها أن يكون تحت أيديهم وفي متناولهم ، فقد حدث ذلك مرة أن سلك شعبا ضيقا بين جبلين شاهقين ودخل في أرض العدو ومضى جنده ينهبون ويخربون ذات اليمين ذات الشمال ولم يجسر المسيحيون على النهوض اليهم مقاومتهم ، فلما قفل المنصور راجعا رأى أعداءه قد استولوا على ذلك الممر وعدم المسلمين الوسيلة لدفعهم ، وأدرك ابن أبي عامر حرج موقفه فدبب خطة حازمة وظل يبحث حتى هداه البحث للعثور على ناحية ملائمة ابتنى بها عدة دور ومنازل ، ثم أمر بضرب رؤس جماعة من الأسرى وتكميس جثثهم لتكون متاريس ، ولما أخذ فرسانه يذرعون البلد ولم يجدوا طعاما أمر بجمع آلات الحرب وطلب اليهم فلاحة الأرض ، فاشتد جزع أعدائه من تلك الإجراءات العظيمة التي أدركوا منها أن المسلمين عاقدون العزم على لا يربوا بلدهم هذا ، فترددوا عليه يسألونه الصلح وأن يخرج غانما بما أصاب ، فرفض المنصور هذا العرض قائلا : « ان أصحابي أتوا أن يخرجوا ، وقالوا انا لا نكاد نصل الى بلادنا الا وقد حان وقت الغزوة الأخرى ، فلنعقد هاهنا حيث نحن الى ان يحين وقت الغزو ، فإذا غزونا عدنا الى بلادنا » .

وبد عدة مقاومات أذعن النصارى ورضوا أن يذهب المنصور بغناهم ، ودفعهم ذعرا منه الى أن تكفلوا له بمدبه بدواب الحمل لنقل ما غنم ، وبالمرة حتى يبلغ الأطراف الإسلامية ، وتعهدوا أن ينحووا الجيف التي تسد عليه الطريق (٨) .

وحدث فى مرة من مرات العودة من احدى الحملات أن نسى حامل الراية رايته وتركها مرکوزة على قنة جبل مشرف على احدى المدن المسيحية فطلت الراية مكانها أياما لم يجرؤ النصارى على التقديم نحوها ليروا هل رحل المسلمون أم لا زالوا مقيمين (٩) .

ويقال أيضا ان رسولا من قبل المنصور وصل الى بلاد غرسية ملك نفارة فبولنخ فى الحفاوة به ، ثم وجد فى احدى الكنائس عجوزا مسلمة ذكرت

له أنها أسرت في صباحها ولازالت رهن الأسر في تلك الكنيسة ، وتوسلت إليه أن يروي للمنصور خبرها فرعدتها الرسول الذي قص على الوزير خبر سفارته ، فلما فرغ من تقريره سأله المنصور عما إذا كان قد أبصر في نفارة أمراً استنكره فأفضى إليه بخبر الأسيرة المسلمة ، فصاح به المنصور « ويحك ... كان عليك أن تبتدرني بهذا الخبر » ، وجهز في لحظته حملة تقدمت إلى حدود نفارة ، فاشتد جزع غرسية وأنفذ إليه في ساعته رساله يستفسره فيها عما اقترف من الذنب لأنه لم يكن يرى أنه جاء بشيء يحيط به ، واذ قال الوزير للرسل الذين حملوا إليه هذا الخبر : « كان قد عاقدني لا يبقى بأرضه أبداً : ذكراً كان أو أنثى ، وقد بلغتني بعد مقام فلاته بتلك الكنيسة ، والله لا أنتهي عن أرضه حتى أمسحها » .

فلما وقف غرسية على جواب المنصور بادر فارصل إليه المرأة التي طلبها وكذلك آخرتين هدأه اليهما البحث ، وأقسم في الوقت ذاته أنه لم ير أبداً هؤلاء النساء ، ولم يبلغه خبرهن من قبل ، وأعلمته أنه أمر بهدم الكنيسة التي أشار إليها المنصور (١٠) .

* * *

كان المنصور مبعث خوف لأعدائه كما كان معبود جنده الذين يدعونه أباً يسهر على إجابة طلباتهم ويمنى بهم على الدوام ، إلا أنه كان مع ذلك على جانب شديده من الصرامة البالغة في كل ما يتعلق بالتنظيم العربي ، فقال له ذات يوم وهو يستعرض الجندي مسيفاً يلمع بأقضى الساحة في غير مكانه ، وسرعان ما استقلم إليه صاحبه وسأله وهو يضطرم غيطاً « ما حملك على أن تشهر سيفك في مكان لا يشهد فيه إلا عن أذن؟ » ، فأجابه الجندي مضطرباً « أني أشرت به على صاحبِي معمداً فدلق من غمده » فقال له المنصور : « إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى ثم التفت إلى حاشيته وقال : « ليتقدم أحدكم فيضرب عنق هذا الجندي بسيفه ، وليطاف برأسه ، وينادي عليه بذنبه » .

على هذه الصورة استطاع المنصور أن يوجد بين الجناد نوعاً من الخوف الملائم ، فكأنوا إذا من بهم مستعرضًا أيام حلق الصimit على رؤوسهم حتى ليقول أحد المؤلفين المسلمين « إن الخيل لتتمثل أطرق فرسانها فلا تكثر الصهيل والجمحة (١١) » .

ولقد بلغت اسبانيا زمان المنصور من القوة درجة لم تتهيأ لها أبداً من قبل حتى لا زمن عبد الرحمن الناصر ، ويرجع الفضل في ذلك إلى الجيش الذي أنشأه المنصور ودربه على الطاعة له والامتثال لأمره ، ولم

تقتصر خدمة المنصور على هذه الناحية فحسب بل لقد كان ي العمل على نشر
الحضارة وأدى لها خدمات جمة .

فلقد أحب المنصور النهضة الفكرية وشجعها ، وعلى الرغم من أن هناك بعض ظروف سياسية خاصة أجبرته على التشدد مع الفلسفه إلا أنه كان لا يتوانى عن حمايتها مادام ذلك لا يحرك غضب الفقهاء ، من ذلك مثلاً ما حدث من القبض على ابن الش biani (١٢) والزج به في السجن بتهمة الزندقة التي شهد عليه بها الكثيرون ، ورأى الفقهاء الحكم عليه بالموت ، وبينما هم على وشك قتلته إذا بفقيه محترم هو ابن مكوى (١٣) (وكان كبير مفتني قرطبة) يصل بأقصى سرعة وكان قد رفض المشاركة في محاكمته ، وكان القفضل لطيبة قلبه أكثر مما ل Marketplace في تخلص ابن الش biani من الموت رغم المعارضة الشديدة التي أبدتها القاضي (١٤) الذي كان يرأس المحاكمة ، ورأى المنصور اذا ذاك الفرصة لصب غضبه على ابن السريع ووضع حد لتزمر المتدينين بالبالغ ، فقال إن الواجب يقتضيه تدعيم الدين ، وسيجد كل صادق الإيمان عونه ، أما القاضي ابن السريع فقد بدل غاية جهده ضد ابن الش biani فأخفق ، ولذا يجب اهداه دمه حتى لا يفترى على غيره (١٥) غير أن هذا القول منه لم يكن سوى مجرد تهديد فقد زج بالقاضي بضعة أيام في الحبس ثم أطلق سراحه بعد أن أدرك وجوب العد من قسوته ومخالاته على أولئك المفكرين المنكودين المتحررين من الآراء الموروثة .

ووجد رجال الأدب من المنصور أجمل العطف فكان في بطانته جماعة من الشعراء الذين كان يجري عليهم الرواتب الكبيرة وكثيراً ما رافقوه في حملاته ومن بينهم « صاعد البغدادي » (١٦) الذي كان أشد الشعراء ظهوراً وأكثرهم تسلية وإن لم يكن أبدعهم قريحة في الشعر ، ولا يمكن للمرء أن ينكر أنه على الرغم من كراهية الأنجلسيين للطارئين عليهم إلا أنهم لم يستطعوا أن ينكروا عليه براعة الناظم وخيال القصاص وبداهة المرتجل ، وإن كان في الوقت ذاته قليل الاحترام للحقيقة ، وكان أجره محظوظاً يمكن للمرء أن يتخيله .

كان صاعد إذا شرع في الكلام استرسل واستحال أيقافه ، واذ ذاك يفرق سامعيه في سيل من الأعاجيب وكلما سئل عن معنى كلمة لا توجد في اللغة عمد إلى إيراد بيت يناسبه لشاغر قديم ، فكان يخفي لسامعه أنه لم يوجد قط كتاب لم ينظر صاعد فيه ، وقد أراد الأدباء كشف سره

فأطلعه ذات يوم – وهو في حضرة المنصور – على كتاب أبيض الصفحات رقموا على الصفحة الأولى منه عبارة «كتاب البكت لابن الغوث الصناعي»، ولم يكن هناك كتاب بهذا العنوان ، ولا كاتب يعرف بأبي الغوث الصناعي ، لكن ما كاد صاعد يطالع العنوان حتى صاح بهم : « أى والله قرأته بالبلد الفراتي » ثم قبله في احترام وذكر اسم البلد الذي ادعى أنه قرأه فيه والشيوخ الذين قرأهم وقال له : « إن كنت قرأته كما تزعم فعلام يحوي ؟ » ، فأجابه « وحق أبيك ليس فيه شعر ولا خبر » ، فانفجر الجميع ضاحكين منه سخرية به .

وحدث في مرة أخرى أن وصلت المنصور رسالة من عامل له يدعى « برمان بن يزيد » يسأله فيها عن « القاب والتزييل » ، أى « الزراعة والتسمية » فقال لصاعد : « هل رأيت فيما وقع لك من الكتب كتاب الفوالب والزوايب لبرمان بن يزيد » فأجابه صاعد : « والله ، رأيته في بغداد في نسخة لأبي دريد بخط كاتر العنم ، في جوانبها علامات الوضاع » ، فقال له المنصور : « أما تستحي أبا العلاء ؟ هذا كتاب عامل بيده كذا واسمها كذا ، يذكر فيه كذا ، وإنما صنعت لك هذه الترجمة مولدة من هذه الألفاظ التي في هذا الكتاب ، ونسبتها لعامل لأخبرك » . فقال صاعد : قد يكون الأمر كما تقول ، ولكن لا يخطرن بيالك أني اختلق شيئاً لم أزه ، وأقسم لك أن الكتاب والكاتب موجودان ، ولعلها المصادفة العجيبة وحدها هي التي جعلت لعاملك نفس اسم المؤلف » .

وأطلع المنصور في مرة أخرى على المجموعة التي وضعها أبو علي القالي ، فأجابه صاعد في ساعته : « إن أراد المنصور أهليت على كتاب دولته كثاباً أرفع منه وأجل ، لا أرد فيه خبراً مما أورده أبو على » ، فلأنه المنصور الذي كان يتطلع إلى كتاب يهدى إليه ييز شهادة كتاب القال الذي أهداه لل الخليفة السابق ، لأنه كان يتطلع – حين أحضر صاعداً إلى الأندلس – أن يكشف مجده شمس القال الذي أضفى عظمة أدبية على عصرى عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني ، فاتكب صاعد في لحظته على العمل ومضى يملئ في جامع مدينة الراحلة كتاب الفصوص « فلما فرغ منه أقبل أدباء عصره على تقييته فقررت نقوسمه وإن دهشوا أن لم يوجدوا بين دفتيره سوى مجموعة من الأكاذيب ، فجاء بهم ما فيه من التفاسير اللغوية والأخبار والشعر والأمثال من وضع صاعده، أو هبذا قالوا . فصدقهم المنصور وحقق على صاعد هذه المرة وألقى بكتابه في النهر (١٧) وإن لم يحرمه من عطله الذي ازداد منذ أن ثنياً صاعده بأمير غرسية قرمن وهي الجبوعة التي كتب لها التحقيق كما رأينا من قبل ؛ فلم يقتصر الأمر على عطفه

عليه بل وقره توقيرا زاد عن الحد لذلك لم يكن صاعده يهع وسيلة يظهر بها تقديره المعروفة عليه الا توصل بها وعمد إليها ، ولم يفت ذلك المنصور .

ونظر لصاعد ذات مرة أن يجمع الأكياس والصرر التي كان المنصور يبعثها إليه مملأة بمال وعمل منها قميصا لعبدك كافور الأسود ومضى به إلى القصر ونجح في ادخال البهجة على قلب الوزير قائلا له : « يا مولانا : لعبدك حاجة » قال : « اذكرها » قال : « وصول عبدى كافور إلى هنا » فقال « سؤال عجيب » قال « ولا أقعن بسواه الا بحضوره بين يديك » فقال المنصور : « أدخلوه » فدخل كافور وكان عبدا فارع الطول كالنخل اشرافا ، وقد ارتدى جلبابا مختلف الألوان يشبه ثياب الصعاليك كثيرا ، فقال الوزير وقد حضر : « انه لباد الهيئة ، فمالك أصبت » فقال : « هنالك الفائدة يا مولاي ، إنك وهبت لي اليوم ملا جلد كافور ملا » فابتسم المنصور راضيا وقال له « لله درك من شاكر مستبنيط لغواض معانى الشكر » ثم أمر له في لحظته بمال وافر وثياب ، وكسى كافورا «حسن الكساء» (١٨) .

ومجمل القول انه اذا كان هناك رجال مثل صاعد قد نعموا بعطف الوزير فمرد ذلك إلى تدفق المنصور للأدب : الامر الذي كان ينقص أغلب الأمويين ، وقد صرح لديه أن واجبه يتضمنه رفد الشعراء لكن نظرته إليه لم تكن تعمد نظره للأشياء الرائعة التي تفرضها عليه مكانته الرفيعة ، وإن كان هو ذاته ذا موهبة وحسن مرهف يمكنناه من التمييز بين الفت والشين وبين الجوهر والعرض .

غير أنه لم يكن في حال تمكنه من معالجة الأدب لأنه كان رجل أعمال فقد كان خير نصير لصالح البلد المادية اذ شغل نفسه على الدوام باصلاح المواصلات ، فأنشأ كثيرا من الطرق وأقام في استجابة جسرا على نهر شنيل ، وبنى آخر في قرطبة على نهر الوادي الكبير كلفه أربعين ألف دينار (١٩) .

وكان المنصور يتفحص كل أمر جل أو تقه ، وكان اذا أزداد الأقدام على أمر هام استشارة في المسادة أهل الحل والعقد وان كثرت مخالفته لمشورتهم ، اذ لم يزيد هؤلاء الرجال أبدا عن كونهم رجالا عاديين قد استبعدتهم العادة والعرف المألوف، فهم يعرفون ماعمله عبد الرحمن الناصر أو الحكم الثاني في ظروف مماثلة لظروفهم ، ولا يؤمنون بقدرة امرء على سلوك سبيل غير السبيل التي سلكها من قبلهم ، كانوا اذا رأوا المنضبوذ قد خالف مشورتهم

الى نهجه الخاص أيقنوا بفشلها ، تم تبرهن الأحداث على خطئهم
الفادح (٢٠) .

أما فيما يتعلق بأخلاقه فالواقع أنه ارتكب أعمالاً تنكرها الأخلاق ،
بل اقترف جرائم لا تملك حالها الصمت والسكوت ، كل ذلك طبعاً منه في
تملك السلطة والاستحواذ على السلطان وجمع القوة في يديه ، غير أن العدل
يقتضينا أن نذكر إلى جانب ذلك أنه كان وفياً كريماً عادلاً طالما كانت أطاماعه
غير خطيرة ، فإن كان الأمر هكذا فالصرامة – كما قلنا – أساس شخصيته ،
وكان إذا صمم على شيء استحال صرفه عنه .

لم يكن الالم الجثماني ليقعد المنصور عن طلبه الشيء والحادي فيه ،
فقد حدث ذات يوم أن كان به داء في رجله فأخذ يكتويه أثناء اجتماع مجلس
المشورة ومضى يتكلم كأن ليس ثم شيء ، وما كان لأحد من المجالسين أنه
يعرف ما يحدث لو لا ان تصاعدت رائحة الجلد المحترق (٢١) ، وهكذا كان
كل ما فيه صورة للقوة والثبات العجيبين ، وكان ثابتًا في محنته ثبوته في
كراسيته ، فلم ينس لأحد قط معرفة أسماءه إليه ، ولم يفتر لأحد ما سببته
ارتكابها ضده ، وقد آمن بذلك رفقاء الذين خيرهم وهم شباب ما يختارون من
الأعمال فيما لو آلت الوزارة إليه فحصل الطلاب الثلاثة الذين حملوا كلامه
على محل الجد فسموا يومذاك ما يطعمون فيه من وظائف ، أما رابعهم الذي
سخر به فقد كفر عن حماقته بمصادرة كل ممتلكاته (٢٢) .

غير أن المنصور كان يغلب في بعض الأحيان على عناده إذا تبين له
خطأه ، فقد مثل ذات يوم الصفع عن جماعة من مجنائه ، فلما سرح عينيه في
القائمة طالعه اسم أحد غلمانه وكان يضرر له المقعد الدفين وقد مضت عليه
في الحبس فترة طويلة بلا جريزة تبرر كل هذا العقاب فكتب على اليمامش
(لا سبيل إلى اطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية) ، ثم جاء الليل وطلب النوم
فاستعصى عليه ووخزه ضمیره ، وبينما هو بين المدام والمقطة خيل إليه أنه
رأى آتياً كريهة الصورة عنيف الأخذ يأمره باطلاق سراح الغلام ويتوعده
بحبسه هو ، وحاول عبثاً طرد هذه الأفكار السوداء عنه ، وذلك بعث في
طلب الورق وهو في فراشه وكتب باطلاق سراح السجين وكتب هذه العبارة
«هذا طلاق الله على رغم أنف ابن أبي عامر (٢٣) » .

وضمه مرة أخرى مع الوزير أبي المغيرة بن حزم مجلس شراب في
حدائق الظاهرة الفناء واسمها « منية السرور » (إذ أنه رغم احترامه
للدين إلا أنه كان كلفاً بالنبيذ طول حياته ولم يقلع عنه إلا قبل عามين من

موته (٢٤)) وكانت هذه الأمسية احدى الأمسيات الجميلة التي لا يتسنى التمتع بها الا في تلك الأجواء الجنوبيّة اللطيفة ، ثم أقيمت جاريّة جميلة كان المنصور يهواها لكنها كانت شديدة الميل لابن حزم فالتقط :

قدم الليل عند سير النهار
وبدى البدر مثل نصف سوار
فكان النهار صفة خمد
وكان الظلام خط عذار
وكان السكوص جامد ماء
وكأن المدام ذاتب نسار
نظرى قد جنى على ذنو با
كيف مما جنته عينى اعتذاري
يا لقومى تعجبوا من غزال
جائز عن محبتى وهو جارى
فاقضى من جبه أوطارى
ليت - لو كان لي اليه - سبيل

فلم يتحمل المغيرة هذه الآيات ولم يتبصر الأمر وأجابها في الحال
بشعر قال فيه :

كيف كيف الوصول للأقدار
بين سمر القنا وبيض الشفار
لو علمنا بأن حبك حق
لطلبنا الحياة منك بشار
وإذا ما الكرام هبوا لشيء
خاطروا بالنفس في الأخطار

فلم يطق المنصور صبرا بل زأر غاضبا واستلن سيفه وصاح بالجاري
في صوت هادر : « قولي وأصدقيني القول : إلى من تشيرين بهذا الجنين ؟ »
فأجابته الفتاة الشجاعة : « إن كان الكتاب أتبع فالصدق أخرى وأولى ،
والله ما كانت إلا نظرة ، وللت في القلب فكرة ، فتكلم الحب على لسانى ،
وبرح الشوق بكتمانى ، والغفو مضمون لديك عند المقدرة ، والصفح معلوم
منك عند العذر » ثم اغروقت عيناهما بالندعوع وهي تتكلم ، فعمى المنصور
عنها ثم التفت إلى أبي المغيرة غاضبا وأسرف في لومه وابن المغيرة صامت
لا ينطق ولا يبین ، فلما فرغ ابن أبي عامر من كلامه قال له جليسه « أيدك
الله ، إنما كانت هفوة جرحها الفكر ، وصبوحة أيدها النظر ، وليس للمرء
إلا ما قدر له ، لاما اختاره وأمله » . فصممت المنصور برحة ثم قال :
« عفوت عنكم ، هي لك يا أبي المغيرة (٢٥) » .

ولقد ذهب إشاره المثل مذهب المثل السائر ، فكان يجب تنفيذ
المدالة دون رعاية لأحد ما ، ولم يدع لعطفه على بعض الناس مجالا يطفئ
عليه فيجعلهم بمنعجا من القانون . حدث أن وفده عليه رجل من العامة وقال
له : « يا ناصر الحق ، إن لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك »

وأشار الى فتى صقلبي يحمل الدرقة وكان أثرا عند المنصور ، ثم تابع كلامه فقال : « وقد دعوه الى القاضي فلم يأت » ، فقال المنصور : « أو عبد الرحمن بن فطيس بهذه المنزلة من العجز والمهانة وكما نظنه أمضى من ذلك ؟ .. اذكر مظلمتك يا هذا » .

فروى له الرجل كيف تعاقد مع الصقلبي الذي بدأ له أن ينقض ما أبرم ، فلما فرغ من كلامه قال المنصور « ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية » ثم التفت الى الصقلبي الذي ارتمى فرائصه خوفا وقال له : « ادفع الدرقة لغيرك وانزل صاغرا ، وساو خصمك مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك » ثم قال لعامل الشرطة : « خذه الى صاحب المظالم ليقضي فيه بما يوجبه الحق عليه » . فانتصف القاضي للرجل الذي عاد الى المنصور شاكرا له يده فقال له الوزير « قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك » . وبقي انتصافى أنا من تهاون بمنزلتي » .

وحدث في مرة أخرى أن تخاصم كبير خدمة مع تاجر مغربي فاستدعي القاضي الخادم للحضور أمامه لخلف اليمين فكبّر عليه أن يقف ويقاضي ، وفي ذات يوم بينما كان المنصور في طريقه الى المسجد وفي صحبته رئيس خلقه هذا اذا بالتاجر المغربي يدنو منه ويقص عليه ما حدث ، فأمسك الوزير ل ساعته بخدمه وأمره بالشخصوص الى القاضي ، فلما ثبتت ادانته صرفة المنصور عما بيده (٢٦) .

وقصاري القول أنه اذا كانت الأساليب التي اصطنعها المنصور للاستيلاء على السلطة قد تجرمه وتدينه الا أنه يجب الاعتراف بشرف سيرته ونبيل خطته حينما استتب له الأمر ، ولو كان القدر أتاح له أن يوله في مهاد الملكية لما أسرف الناس في لومه الى هذا الحد على ما اقترفه من الأعمال ، ولربما عدوه اذا ذاك أخذ الأماء العظام الذين يسجلهم التاريخ ويحفظ ذكراتهم ، غير أنه لما كان قد اطل على الحياة في بيت ريفي قديم فقد اضطرته الرغبة في تحقيق هدفه الى سلوك سبيل جم العثرات والمزالق ، وإن الانسان ليستشعر الأسف على ما أخذ به نفسه من الأعمال رجاء الوصول الى مآربه دون اهتمام كبير بشرعية وسائله .

والمنصور بعد ذلك رجل قد من تواح عدّة ، وانه ليستحيل علينا ان نحبه ، كما يصعب علينا ان نعجب به لعمم التزامه جادة القوانين الأخلاقية المألوفة .

الفصل الثالث عشر

النزاع بين أنصار القديم والجديد . رجال يدعون إلى ما يسمى بالملة الكلية أو الجامعة . ظهور رجال يعملون على نزع السلطة من بيت النصور . موقف أنصار بنى أمية والعامة من التطور الاجتماعي . ظهور طبقة اجتماعية جديدة ثرية . المقلفر وعبد الرحمن ولذا النصور . احتيال شانجول ليكون وليا للعهد . تكاثف الجميع ضد مقترب العرش . خلع شانجول والغا ، بعض الضرائب . استخلاف محمد المهدي بالله . انقضاض رجال شانجول عنه . منزلته . مقتله .

الفصل الثالث عشر

اضطراب الأوضاع

حينما عاد المظفر إلى قرطبة بعد موت أبيه وجد الثورة متسلعة ، فقد ألح الناس على وجوب ظهور الخليفة وان يحكم بنفسه ، ولم ترض الجماهير بما قاله هشام الثاني لها من أنه يريد متابعة السير على ما هو عليه من الحياة الهدأة فقد صمم الشعب على مطالبته مما حمل المظفر على استعمال السلاح في تفريغ جموع الناس (١) واذ ذاك استتب النظام على الرغم من أن أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر سويدي هشاما - تأمر ضد المظفر الذي علم بالأمر في حينه فأجبرت خطة التآمر وقتله في ديسمبر (٢) سنة ١٠٠٦ م [= شوال ٣٩٩ هـ] ، ثم سار في حكم الدولة على غرار أبيه فانتصر على المسيحيين عدة مرات ، وأخذ البلد أيام حكمه يسير قيما في طريق الرفاهية حتى لقى قيل « ان الاندلس بلغت في أيامه نهاية الكمال » (٣) .

لا أنه حدث تغير اجتماعي عظيم إذ تلاشى المجتمع العربي القديم بمحاسنه ومساؤه حين سعى عبد الرحمن الناصر والمنصور في توحيد الأمة وأدركوا هذه الغاية ، وكانت الطبقة القديمة من الأشراف العرب قد انحلت من جراء صراعها مع الملوكية ، فلما غلبت على أمرها وتحطم وخدت ريحها أخذت الأسماء القديمة في الاختفاء يوما بعد يوم ، أما نبلاء البلاط الذين كانت تربطهم بالأمويين وشائع القربي والعصبية القبلية فقد كانوا أحسن حظا وكانت هناك أربع عائلات لا تزال على ثراها وتنافسها هي : بنو أبي عبيدة ، وبنو شهيد وبنو جهور وبنو فطيس (٤) .

غير أن أقوى الرجال حينذاك كانوا هم القادة البربر والصقالبة (٥) الذين مهد لهم المنصور ويؤمن بهم هذه المكانة ، ولما كانوا أجانب قد نشأوا في الحضيض فلم يكونوا يتمتعون بالاحترام الكبير ، وكان الناس ينظرون إليهم على أنهم متربرون ، وضعج الآهال بالشكوى من مظالمهم الفادحة .

أما أهل الطبقة الوسطى فقد ازداد تراوؤهم من جراء التجارة والصناعة حتى لقد ظهر زمن السلطان عبد الله المضطرب جماعة من التجار والصناع أصابوا الأموال الضخمة دون أن تكون لهم رؤوس أموال غير ما استدأوه من أصدقائهم (٦) . أما الآن وقد استقرت الأمور في نصابها فلا عجب أن أصبح من يسير الهين ازيداد التروات ، وعلى الرغم من سلامة هذه المجتمع إلا أن جرائم الدمار كانت تنخر فيه .

وإذا كان الصراع قد توقف بين العرقيات إلا أنه عاد إلى الظهور مرة أخرى في صورة جديدة هي النزاع بين الطبقات ، فكره العامل مخدومه ، واستعر الحسد في قلب رجل الطبقة الوسطى على الأشراف ، وان اتفق الجميع على لعن القيادة العامة لا سيما البربر ، كما كان في أعماق الجهل الشامل شوق مبهم للمجهول ، فأصبح الدين هدفاً ينبعض بالسهام وعرضة للحملات القاسية ، ولم تؤت التدابير التي اتخذتها المنصور حيال الفلسفه ما كان يرجيه الفقهاء منها بل انعكسـت الآية فتضاعفـ عدد المفكرين الأحرار وابتدا الشك المترسب في أعماق طبيعة الخلق العربي يظهر شيئاً فشيئاً في مسوح العلم ، فتزايـد تلامـيد ابن مسرـيون (٧) كما كانوا يسمون ، وعملـت طوائفـ أخرى على نشر مبادـىء شديدةـ الخطورة ، ويظهرـ أنـ احدـى هـذهـ الجـمـاعـاتـ نـشـأتـ بـينـ الطـبـقـةـ الـديـنـيـةـ نـفـسـهاـ ، أوـ لاـ أـقلـ مـنـ أـنـ أـعـضـاءـهاـ كـانـواـ مـنـ الـعـتـيـنـ بـدـرـاسـةـ الـاحـادـيـتـ النـبوـيـةـ غـيرـ أـنـ درـاسـتهمـ إـيـاهـاـ لـابـدـ وـأـنـهـ كـانـتـ درـاسـةـ الرـجـلـ الـمـتـدـيـنـ الـتـىـ اـتـسـمـتـ بـالـسـطـحـيـةـ وـطـبـعـتـ بـطـابـعـ الـمـيلـ إـلـىـ كـتـبـ الشـكـ وـالـأـسـفـارـ الـتـىـ أـلـفـهاـ رـجـالـ مـادـيـونـ كـانـواـ يـرـمـونـ إـلـىـ تـقـويـضـ أـرـكـانـ الـمـلـلـةـ ، وـمـنـ هـنـاـ نـشـأـتـ فـكـرـتـهـمـ الـعـجـيـبـةـ فـيـ تـقـسـيرـ الـكـوـنـ اـذـ قـالـوـ اـنـ الـأـرـضـ مـحـمـوـلـةـ عـلـىـ سـمـكـةـ ، وـالـسـمـكـةـ عـلـىـ قـرـنـ ثـورـ ، وـيـحـمـلـ الثـورـ صـخـرـةـ مـوـضـوـعـةـ عـلـىـ كـتـفـ مـلـكـ تـحـتـهـ تـوـجـهـ تـوـجـهـ الـعـتـمـةـ ، وـمـنـ تـحـتـ الـعـتـمـةـ مـاءـ لـيـسـ لـنـهـاـيـةـ حدـ (٨) .

بهـذهـ التـفـاسـيرـ التـامـضـةـ الـضـبـحـةـ - الـتـىـ رـبـماـ لمـ تـكـنـ سـوىـ رـمـوزـ - جاءـ المـتـدـيـنـ بـهـرـطـقـةـ شـدـيـدـةـ الـخـطـورـةـ ، وـاعـتـقـدـتـ تـلـكـ الطـائـفةـ بـعـدـ تـنـاهـيـ الـكـوـنـ ، وـأـخـذـتـ تـلـقـنـ النـاسـ أـنـ الـدـيـنـ قـدـ يـفـرـضـ فـيـعـتـنـقـ خـوفـاـ أوـ أـمـاءـ ، لـكـنـ لـاـ يـسـتـطـعـ الـبـرهـنـةـ عـلـيـ بـأـدـلـةـ عـقـلـيـةـ ، وـمـعـ ذـلـكـ فـانـ رـجـالـ تـلـكـ الطـائـفةـ نـاصـبـواـ فـيـ الـوقـتـ ذـاتـهـ الـعـدـاءـ تـعـالـيمـ الـأـغـرـيقـ الـفـلـسـفـيـةـ وـهـيـ الـتـعـالـيمـ الـتـىـ اـعـتـدـتـ عـلـيـهـاـ طـائـفةـ أـخـرىـ كـانـتـ تـتـأـلـفـ مـنـ عـلـمـاءـ طـبـيعـيـنـ أـدـتـ بـهـمـ درـاسـةـ الـرـياـضـيـاتـ إـلـىـ النـظـرـ فـيـ عـلـمـ الـفـلـكـ وـطـلـبـواـ الـأـدـلـةـ الـرـياـضـيـةـ لـلـبـرهـنـةـ عـلـىـ الـدـيـنـ ، فـلـمـ لـمـ تـتـحـقـقـ اـرـبـيـتـهـمـ اـنـصـرـفـواـ عـنـهـ وـرـمـوهـ بـالـعـجزـ . وـنـدـدواـ

بالصوم والصلة والزكاة والحج ، وعدوها حماقة ، لذلك لم يقصر العلماء في تعريفهم حمل رايته المتدلينون في جميع العصور ضد أولئك الذين نبذوا ظهريا العقائد الموروثة ، ورمونهم بأن لا هم لهم في الحياة سوى الاتراء ببغية التمتع بجميع أنواع اللذائذ دون احترام للشرائع ولا للأخلاق .

الا أن الطوائف التي هاجمت الاسلام في صراحة لم تكن أشد الطوائف خطرا عليه بل أخطرها عليه كانت تلك الجماعات التي أظهرت رغبتها في مسالمته ، ولم تكت قاصرة على المسلمين بل وجدت أيضا بين النصارى واليهود لأنها أخذت تنادي بعلم التعصب متسترة بعبارة « الله الجامع » ، ولم يكن يخفى على فقهاء المسلمين أن اضمحلال دين ما لا يرجع إلى ما يتعرض له من الهجمات الخارجية بل إلى علم الانتصار له ، واختلف الرجال الذين اعتنقوا هذه الملبادي فيما بينهم على نقاط معينة ، واتسعت شقة الخلاف بينهم لكنهم انفقوا جميعا على الازدراه الشامل للتحليل المنطقي ، فقالوا إن الدنيا تزخر بكثير من الديانات والطوائف والمدارس الفلسفية التي يناسب بعضها البعض الآخر العداء وتتضارب فيما بينها ، وعليك النصارى حيث نرى الملكانين لا يطيقون النساطرة ، كما أن النساطرة يزدرون اليعقوبة وكل واحد منهم يرى الآخر مقتضايا عليه بالهلاك ، كما يوجد بين المسلمين جماعة المعتزلة الذين يعلون كل مخالف لهم في تفكييرهم كافرا كما أن الخارجي يرى من واجبه قتل كل من ليس من جماعته .

والستي لا يتفق مع هذا ولا ذاك .

ويوجد نفس الأمر بين اليهود .

وليس الحال بأقل من ذلك بين الفلاسفة .

وكان لكل فريق حججه القوية فيما يذهب إليه ، والتي يجرها خصمه بنفس القوة ، وكانت قوة كل منهم في أسلوبه .

واذن فلما تلتمس الحقيقة ؟

ومع ذلك فإن بعض هؤلاء الشاكرين رضوا ببيانات خاصة ، فكان من بينهم من آمن بوجود الله خالق كل شيء ، وبالرسالة انزلت على محمد [عليه الصلاة والسلام] ، وكانوا يقولون : « ان بقية المذاهب الأخرى قد تكون حقيقية أو قد لا تكون ، ونحن لا نؤيدها ولا ننكرها ، بل كل ما هنالك أننا نتجاهلها ، لكن وجدانا لا يسمح لنا باعتماق مبادئه لم يثبت لنا صدقها ». وأولئك هم المعتدلون .

كذلك كان هناك غيرهم اعترفوا فقط بوجود الخالق ، وهناك غيرهم من هم أكثر منهم سيرا في هذا الطريق من لم يؤمنوا بشيء قط ، بل قالوا أن لم يثبت بالبرهان وجود الله أو خالق المكون ، كما أنه في الوقت ذاته لم يوجد ما يثبت أن الله غير موجود أو أن العالم وجده من الأزل . ونادى آخرون أنه من الملائم أن يحافظ الإنسان - ولو ظاهريا على الأقل - على الدين الذي ولد عليه .

وذهب آخرون إلى ضرورة وجود « الملة الكلية » وحدها ، وأدمجوا تحت هذا الاسم مبادئ الأخلاق التي تضمنها كل دين وبرهن عليها العقل (٩) .

كان للمتحدين في شتى الدين منفعة تشاو منفعة المتحدين في الأمور الحكومية ، إذ عرروا ما يحتاجه القوم .

أما من الناحية السياسية فكان الحال على الضد من ذلك إذ لم يكن لأحد فكرته المراسخة ، وكان الناس ناقمين على الحال التي هم فيها ، وظهر أن المجتمع موشك على الثورة نظراً للتحسين الذي طرأ على مركزه ، ولم يغب ذلك عن قظر المنصور ، ففي ذات يوم بينما كان يصعد ناظريه في قصره الفخم بالزاهرة وفي العدائق الفناء المحيطة به إذا به ينفجر باكيًا ويصبح : ويل لك يا زاهرة . ليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب .

فلما لاحظ المحتشم على من معه قال لهم : « والله لترون صدق ما قلت . وكأني بمحاسن الزاهرة قد محيت ، ورسومها قد غيرت ، ومبانيها قد هدمت ، وتحيت ، وبخزائنهما قد نهبت ، وبساحتها قد أضرست بنار الفتنة » (١٠) .

لكن إذا كان مقدراً لهذه الثورة الحدوث فما الدافع عليها وما وسائلها ؟

هذا هو الشيء الذي لم يكن الناس يحسبون له حسابا ، غير أنه لا أقل من أنه كان يوجد أمر واحد يتلقى الجميع عليه ألا وهو رغبة الكل في انتزاع السلطة من بيت المنصور ، على أنه يجب ألا تنهش من ذلك أبدا فالشعوب التي تدين بالولاء للسلطة لا يرضيها أن يستبد بالأمر أحد ما سوى السلطان نفسه ، كما أن جميع الوزراء الذين تولوا الملك بدلا من السلطان أصبحوا معرضين للسخط الشديد الذي لاتخذه جنوطه مهما بلغ أولئك الوزراء من الكفاءة والأهلية ، ولاشك أن هذا التقدير

كاف تماماً لتفصير المقت الذى أضبه الناس للعامريين اذ يجب ألا ننسى أنهم جرحوا عواطف الشعب وحاربوه فى تعلقه وتمسكه بشرعية الحكم ، واذا كانوا حتى الآن قانعين بممارسة السلطة باسم الأمير الاموى الا أنهم أفصحوا عما يكتمونه من التطلع الى العرش ، ففتح عليهم هذا الطمع باب الفتنة وأسطخ الناس عليهم ، ولم يقتصر ذلك السخط على أن يكون من جانب أمراء البيت المالك وحدهم ، بل تعداهم الى الأمة التي كان المتدينة الشديدة التمسك بالحق الشرعى ، كما تعداهم الى الأمة التي كان يعتقد – او كان يجب أن يعتقد – أنها كانت شديدة التعلق بالأسرة المالكة . أضف الى ذلك أن أشراف البلاط كانوا يتوقون لأن يسقط العامريون عسى أن يؤدى هذا السقوط الى زيادة قوة الأشراف ، وكان رعاع العاصمة – في الوقت ذاته – مستعدين لتأييد آية ثورة قبل حدوثها ما دامت تجييز لهم سلسلة الطبقات الموسرة واسباب الحقد الذى يكتونه لها ، وربما كان هذا التغير الأخير هو الدافع لمبالغة الآثرياء فى التجبر ، وكانت قرطبة قد أصبحت اذ ذاك مدينة صناعية بها آلاف العمال ، وكان أتفه عصيان يؤدى الى جعلهم – فى غمرة عين – قوة بالغة الخطر ، وقد تؤدى الحال الى قيام حرب فظيعة بين الفقراء والآثرياء ، والظاهر أن الغفلة كانت سائدة فلم يتوقع أحد ما اقتراب هذا الخطير ، اذ لم تكن الطبقات الغنية ترى فى العمال غير فئة مرتزقة ، وكانت مؤمنة بعودة المياه الى مجاريها حالما يزاح عن كاهمهم عبء العامريين .

ومن ثم كان سقوط بنى عامر رغبة تكاد أن تكون عامة شاملة فى اللحظة التى مات فيها المظفر فى زهرة عمره فى سنة ١٠٠٨ م (صفر ٣٩٩ هـ) ، وخلفه أخوه (الناصر) عبد الرحمن بن أبي عامر ، وكان الناصر هذا شاباً يمقته الفقهاء ويهدون مولده عاراً لا يمحى ، اذ كانت امه ابنة أحد شانجين : أما قومس قشتالة أو ملك نفارة (١١) ، فكانوا لا ينادونه الا بشانجول (١٢) أى « شانجة الصغير » ، فراحـت هذه الكنية لقباً عليه فى التاريخ ، ثم أن سيرته كانت لا تسمح للناس أن يتناسوا أصله لأنكباشه على المذنبات ، اذ كان لا يحجم عن شرب النبيذ جهراً ، وكان الجميع يتتحدثون حانقين أشد الحقن عليه بأنه سمع المؤذن « حى على الصلاة » فقال : « لو قال حى على الكأس لكان خيراً له » (١٣) ، لذلك اتهـمـه القوم بأنه دس السم لأخيه المظفر ، ويقولون فى صدد هذا الموضوع أنه قطع تقاحة بسكن غمس أحد جانبيها فى السم تناول هو النصف السليم وأعطى أخيه النصف الآخر (١٤) .

ربما لم يخل الأمر من أن فى هذه الاتهامات شيئاً – قل أو كثـر – من الافتـراء ، لكن الثابت هو أنه كانت تقصـصـه مواهـبـ المنصور والمظفر

ومهارتهما ، على الرغم من أنه جرّأ على ما لم يجرؤ عليه أحدهما ، اذ تركا لل الخليفة الأموي لقب السلطنة لم ينزعاه ايام رغم أن زمام الأمور كان في واقع الأمر في أيديهما ، ولم يستطع أحدهما أن يقول انه الخليفة رغم تطلعهما إلى هذا الأمر ٠

أما شانجول فقد أخرج إلى الوجود ذلك المشروع باعتباره ولـ العهد ، وفاتح في هذا بعض الرجال البارزين لا سيما أبو العباس بن ذكوان القاضي ، و (أبو حفص) بن برد الكاتب ، فلما تأكد لديه وقوفهم إلى جانبه أفضى بطريقه إلى هشام الثاني الذي ظهر - على الرغم من ضعفه الشديد - أنه أراد التمهل لحظة في أمر خطير كهذا الأمر لاسيما وأن الرأي العام مؤمن بالفكرة القائلة بأن النبي محمد [عليه السلام] أشار إلى أن الأمر لا يكون إلا في معد ، وعمد الخليفة إلى استشارة جماعة من الفقهاء من كانوا متأثرين بفكرة ابن ذكوان ، فأشاروا عليه بآجاله مطلب شانجول وأرادوا القضاء على تردداته فرووا له الحديث النبوى القائل (١٥) « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » فحمل الخليفة نفسه على قبول ما طلبوه منه وبذلك لم ينقض شهر على وفاة الظفر حتى أعلن شانجول نفسه ولها للعرش بمقتضى عهد كتبه ابن برد (١٦) ٠

بلغ سخط القرطبيين ذروته في هذا العهد وتغنى الناس جميعهم بمثل هذا الشعر (١٧) :

ان ابن ذكوان وابن برد قد ناقضا الدين عين عهد
وعاندوا الحق اذ أقاما حفيده شانجولا ولـ عهد
ومضي الناس يقصون في يقين جازم أن رجالـ من الصالحين من أمام
قصر الظاهرة فصاح (١٨) : « يا دار فيك من كل دار ، فجعل الله منك
في كل دار » ٠

ومجمل القول ان الحقد على شانجول والكراهية له كانا له في كل مكان ، الا أن الثورة المسلحة لم تكن قد قامت بعد اذ ترك الشعب التهديد وأمسك عنه نظراً لجيء الجيش ، حتى رحل ، فخدع شانجول نفسه بالهدوء الظاهري الذي ساد البلد ، وأفصح عن رغبته في شن حملة على مملكة ليون ، فلما كان يوم الجمعة ١٤ يناير ١٠٠٩ م غادر العاصمة على رأس قواته وبدىء له أن يعصب رأسه بعمامة كانت في أسبانيا وقف على القيادة والفقهاء وأمر رجالـ بالاقتداء به ، فرأى أهل قرطبة في هذه النزوة انتباكاً جديداً لحرمة الدين واستهانة بمحاماته (١٩) ٠

بعد أن عبر « شانجول » الحدود حاول عبشا ارغام « أدفونش » الخامس على النزول من الجبال التي كان معتصماً بها ، لكن هبت العواصف

الثلجية فاستحال السير ، واضطر [أبو المطرف] إلى العودة ، لكنه لم يكُن يصل إلى طليطلة حتى ترامت إليه الأنبياء بشبوب الشورة في العاصمة .

وترأس المركبة أمير من البيت الأموي اسمه محمد وهو ابن هشام الذي قتله المظفر ، وبالتالي كان ابن حميد عبد الرحمن الناصر ، وكان مختفياً في قرطبة كي لا يلاقي الرجل الذي قتل أبيه ، وتعرف هذا الشاب في تلك الفترة بكثير من رجال الشعب حتى استطاع تكوين عصابة من أربعينات رجال جسور وذلك بفضل ما يذله من المال الذي لم يدخل به على أحد وبفضل المساعدة التي لقيها من فقيه ورع يسمى الحسن بن يحيى ومعاونة كثير من الأمويين له ، ووصل خبر هذه المؤامرة إلى سمع عامري هو ابن عسقلانة الذي وكل إليه شانجول حكومة قرطبة أثناء غيابه عنها ، وكانت الأخبار التي بلغت شانجول غامضة مبهمة ، لكنه أخذ في تفتيش عدة بيوت شك فيها فلم يعثر قط على شيء .

أما محمد بن هشام بن عبد الجبار فقد حدد يوم الثلاثاء الخامس عشر فبراير (= ٢٦ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ) لتنفيذ مشروعه ، واختار ثلاثة من أشد رجاله جرأة وأمرهم باخفاء أسلحتهم تحت برائتهم والذهاب مساء إلى السطح القريب من القصر الخليفي .

ثم جمع العلماء وبعض الرجال البارزين وطلب إليهم تحرير عهد بالتنازل ووقعه هشام بيده وأمضى محمد بقية الليل في القصر ، فلما كان اليوم التالي استوزر أحد أقاربه ووكل إلى أمي آخر أمر حكومة العاصمة وأناط بهما أن يدونا في سجل الجندي كل من يرغب في الانخراط في سلكه ، فكانت الحماسة عظيمة وشاملة إلى درجة أن الجميع بادروا إلى قيد أسمائهم في ديوان الجندي ، وتسابقت طوائف الشعب من التجار والأغنياء والمزارعين في القرى وأئمة المساجد والشهداء والمتقشفين إلى حمل السلاح تأييداً له وكانوا متأنبين لبذل دمائهم دفاعاً عن الأسرة الشرعية ضد الفاسق الذي يريد اغتصاب العرش .

وحينذاك ندب محمد بن هشام كبير وزرائه للشخصوص إلى الزاهرا للاستيلاء عليها ، ولم يفكر العسكري القائمون في الدفاع عنها بل سرعان ما أعلنوا ولادهم للخليفة الجديد وسألوه العفو عنهم فأجابوا ملتزمين بعد أن أغاظل في تأنيهم لرضائهم دفاعاً عن مشاريع شانجول الطماعية .

بهذا انهارت في أقل من أربع وعشرين ساعة قوة العامريين ، ولم يكن أحد يتوقع هذا التباخر السريع لخصومهم ، وعم السرور قرطبة لاسيما بين طبقات المجتمع الدنيا ، ولما كان الشعب سويع الغضب سريع الرضا فقد رأى أن ذلك فاتحة خيراً .. لكن إذا كان رجال الطبقة

الوسطى قد كرهوا ظروف هذه الثورة الواسعة الخطيرة الا أنهم حرصوا على المساهمة فيها بتصنيب ، وكانوا يرون أن استبداد ابن أبي عامر المستثير قد هبأ للبلاد رحاء مستحبًا ومجدًا حربياً قد يكون أحسن من الفوضى والاستبداد العسكري الوحشى الذى كان موسكًا أن يفرض عليهم *

غير أنه لم يحدث شيء من الفوضى التى تصحب فى العادة كل ثورة تقوم بها العامة .

أما محمد فلم تكن لديه حينذاك السلطة الكافية لكتف القوم عن السلب ، ولما كان مدركًا ما هو موشك على الواقع فقد أمر بنقل الخزائن وكل ما بالظاهرة من غال وثمين إلى قربطة ، غير أن يد النهابين كانت أسبق منه في الامتداد اليها فحملوا كل ما في القصر حتى الأبواب والألوان الخشبية ، كما امتدت يده السلب إلى كثير من دور أتباع المنصور وأسرته ، وظل محمد - أربعة أيام - عاجزاً لا يملك القدرة على عمل شيء ما يؤدي إلى كبح جماح هؤلاء اللصوص ، لكنه نجح أخيراً في ردعهم . وكانت الثروات المتجمعة بالظاهرة عظيمة جداً حتى لقد يقى بها بعد ذلك من النقد مليون ونصف مليون دينار ، ومن الدراهم مليونان ومائة ألف درهم ، هذا غير ما حمله الناس ، كما عشر القوم بعد قليل على مخابئها مائتا ألف دينار ، وحين أصبح القصر خاليًا من كل شيء أضرموا فيه النار ، وفأليت أن عاد كومة من الانقضاض *

في هذه الأثناء قرئ على الشعب الموجود بالمسجد عقب صلاة الجمعة (١٨ فبراير) منشوران رسميان ، اشتتمل أولهما على تعداد كبار شانجول والأمر بلعنه في الصلوات العسامة ، وأما ثانيهما فكان خاصاً بالغاء كثير من الضرائب التي فرضت منذ عهد قريب ، وما انقضت ثمانية أيام بعد هذا الحادث حتى أعلن محمد على الشعب تلقيبه بالمهدي بالله ، وهو الذي ستنعم به دائماً ، ولما نزل من على المنبر نودي بالخروج لقتال شانجول ، وكان لهذا النداء أثره العجيب إذ سرت حماسة العاصمة إلى الأقاليم ، ولم تنقض فترة وجيزة حتى خرج المهدي بالله على رأس جيش كثيف جداً ، لكن لما كان الشعب هو الذي قام بالثورة فقد كان راغباً في صرف القيادة عن القادة القدماء الذين ينتسبون إلى البلاط السابق ، فاختير كبار الضباط من رجال الشعب ومن الطبقة الوسطى ، فكانت ترى فيهم المطبين والحاكرة والسروجية ، وهكذا ظهرت أسبانيا لأول مرة في مسوح الديمقراطية ، وفقد العامليون والاشراف كل ما كانوا يتمتعون به من قوة وجاه *

وَمَا كَادَ يَصْلُ إِلَى سَمْعِ شَانِجُولَ - وَهُوَ فِي طَبِيْلَةٍ - خَبْرٌ هِيَّاْجَ
الْعَاصِمَةِ حَتَّى حَمَلَ عَلَى قَلْعَةِ دِيَاجَ، وَأَجْمَعَ الْعَزْمَ عَلَى الْقَضَاءِ عَلَى الثُّورَةِ
بِالْقُوَّةِ ، غَيْرَ أَنْ أَكْثَرَ جَنَاحِهِ أَخْذَوْا فِي الْإِنْفَاضَاتِ عَنْهُ أَثْنَاءَ ذَرْفَهِ ،
فَلَمَّا طَلَبَ إِلَى الْبَقِيَّةِ مِنَ الْعَسْكَرِ أَنْ تَقْسِمَ لَهُ يَمِينُ الْوَلَاءِ رَفَضَتِ
طَلَبَهُ قَائِلَةً نَهَى قَدْ تَقْدَمَتْ لَهُ بِيَمِينِهِ فِي أَعْنَاقِهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدْعُوا إِلَى
تَكْرَارِهَا ، بَلْ لَعْدَ كَانَ ذَلِكَ رَدُّ الْبَرِيرِ أَيْضًا وَهُمُ الَّذِينَ أَظْفَرُهُمُ الْعَامِرِيُّونَ
وَمِلْئُوْا أَيْدِيهِمْ بِالْمَالِ حَتَّى لَقِدْ اعْتَقَدْ شَانِجُولَ أَنْ فِي اسْتِطاعَتِهِ الْاعْتِمَادُ
عَلَيْهِمْ جَاهِلًا أَنَّهُمْ لَمْ يَتَجَلَّوْا أَبَدًا بِشَكْرِ يَدِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ وَالْأَخْلَاصِ لَهُ ،
وَدَفَعُوهُمْ نَقْتِيمَ بِضَيَاعِ السُّلْطَانِ الَّذِي أَوْجَدُوهُمْ وَالْتَّفَكِيرُ فِي الْإِحْتِفَاظِ
بِثَرَوَاتِهِمْ إِلَى الْمُسَارِعَةِ فِي الْخَضْرَوْعِ لِلْخَلِيفَةِ الْجَدِيدِ وَلَمْ يَحَاوِلُوْا سُترَ
جَشْعُهُمْ هَذَا فَلَقَدْ نَادَى شَانِجُولَ أَحَدَ قَادِتِهِمْ مَوَاسِمَهُ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْلَى الزَّنَاتِيِّ -
وَاسْتَغْسِرَهُ عَنْ شَعْرِ الْجَنْدِ مِنْ نَاحِيَتِهِ فَرَدَ عَلَيْهِ قَائِلًا : « إِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرِ
فَلَيْسَ وَاللهِ يَقْاتِلُ عَنْكَ أَحَدٌ مِنْ زَنَاتِهِ ، وَالنَّاسُ لَهُمْ تَبِعٌ » .

فـسـأـلـهـ شـانـجـوـلـ الذـىـ لـمـ يـكـنـ يـتـوقـعـ بـحـالـ مـنـ الـأـحـوـالـ مـثـلـ هـذـاـ الرـدـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـهـ كـانـ يـعـرـفـ مـنـ قـبـلـ مـدـىـ وـلـاءـ فـرـيقـ مـنـ الجـنـدـ لـهـ وـمـاـ الدـلـيـلـ عـلـيـهـ؟ـ فـأـجـابـهـ:ـ «ـ مـرـ بـتـقـديـمـ طـبـخـكـ إـلـىـ طـرـيقـ طـلـيـطـةـ وـتـظـاهـرـ بـالـرـجـيلـ إـلـيـهـ فـتـعـلـمـ مـنـ يـتـبعـكـ وـمـنـ يـتـخـافـ عـنـكـ»ـ فـقـالـ شـانـجـوـلـ مـتـحـسـراـ «ـ صـدـقـتـ»ـ .

قال ذلك دون أن يجسر على التثبت من صحة الدعوى التي قالها له الزناتي البربرى .

* * *

غير أنه في وسط هذه الحيانة العامة بقي هناك صديق واحد ظل على الوفاء له ، ذلك هو حليفه الليونى « كونت كاريون » من أسرة قومس (٢٠) فقد قال له ذلك الرجل النبيل :

• الرأي عندى أن ترحل وأرحل معك بأصحابي الليلة •

فاجابه شانجول : أنا أرجو ان لوبيت على قرطبة أن تختلف الكلمة عليه (٢١) وان يكون لي منهم أنصار يمليون الى ،

فقال الكونت : « خذ باليدين ونح الظن فأمرك والله مختلف ، وأحوالك منتفضة وأمورك مدببة ، وجنديك عليك لا لك ٠٠ » ، فأجابه العامری : لابد من الاشراف على قرطبة » ف قال الكونت « أنا معك على كراهة لرأيك وعلم بخطئك ، فان أنت عشت عشت ، وان مت مت معك » .

حينذاك أصدر شانجول أمره [بمغادرة قلعة رباح] والزحف على العاصمة ، وبدى له ان يستريح في منزل بلغه اسمه « منزل هانى » فاغتنم البرير الفرصة وتسليلاً لواذا تحت جنح الظلام ، فلما تنفس الصبح تلقت حوله فلم يجد غير غلمانه وعساكر القومس الذى كرر عليه الرجاء بقبول ما عرضه عليه من قبل فلم يستجب له أيضاً هذه المرة ، واذ أصر الشاب فى حماقة على المفى الى مصرعه فقد قال : « رغبت الى القاضى أن يأخذ لي أماناً من عند ابن عبد الجبار ، وقد ضمن لي ذلك » ٠٠ وفي مساء الخميس ٤ مارس (= ٢ رجب) وصل الى دير « شوش » فلقيه فى الشدة جماعة من الفرسان الذين أرسلهم المهدى لمقابلته فقال لهم شانجول « ما لكم على من سبيل ، أنا فى طاعة المهدى » فأجابه قائد الكوكبة : « اذن فاتبعنا الى قربة » فاستجاب شانجول للأمر كارها وساروا فى طريقهم حتى صادفوا بعد الظهر حاجب المهدى فى كتبية كبيرة فاستوقفهم وبعث الى قربة بحرير شانجول وكن سبع نسوة ، ولما جئ بشانجول الى الوزير قبل الأرض مراراً أمام هذا الأموي فصاح به أحدهم « قيل حاجر دابتة » فاطاع ٠٠ كل ذلك وقومس كاريون صامت يرقب منتهى الذلة التي صار اليها هذا الرجل الذى اهتزت أمامه منذ قليل امبراطورية عظمى ، ثم جاءوه بجواب غير جواده وصاح الوزير : « من ينزع قلنسوته ؟ » فبادر بعضهم فنزعواه وسار الركب فى طريقه . وكانت الشمس قد انحدرت الى المغيب حين بلغ الجندي محلتهم وتلقوا الأمر بشد وثاق يدى شانجول وقدميه فلبوا الأمر فى غلظة حتى صاح بهم « نفروا عنى قليلاً وأطلقوا يدي استرح ساعة » ٠
 فلما أجابوه الى ما طلبهم أسرع فاستل خنجراً كان فى خفه غير أن الجندي بادرها بامساكه قبل أن يرمي رميته فصاح به الحاجب « سننكيفيكه » ثم طرحوه أرضاً وذبحوه وفصلوا رأسه عن جسده ، ثم عادوا الى الكونت فقتلوا ٠

* * *

ولما كان اليوم التالي دخل الفرسان قربة وقدموا الى الخليفة المهدى بالله جثة شانجول محشطة فوطأها بسنابك جواده ثم سرها على مقربة من باب القصر الى صليب وعليها قميصه وسرواله ، وجعل رأسه المقطوع الى جانبها مرفوعاً الى رمح ووقف الى جوار هذه البقايا البشعة رجل يردد بلا انقطاع :

هذا شانجول المؤمن (٢٢) ، لعن الله ولعننى واياه ٠

وكان هذا الرجل هو صاحب شانجول الذى عفى عنه المهدى على شرط أن يكفر عن ولائه الذى أظهره لولاه من قبل (٢٣) ٠

الفصل الرابع عشر

واضح الصقلبي يعلن تأييده للمهدى . تصرفات المهدى
الخاطئة ضد الصقالبة العامريين والمتدينين . معارضة البربر
له . ادعاؤه موت هشام بن الحكم الخليفة . البربر بقيادة
和尚ام حفيد الناصر يهاجمون المهدى . القتال بين العانين في
القصر . هزيمة المهاجمين . زاوي الصنهاجى يجمع البربر
ضد المهدى . ترشيحه أموريا للخلافة و موقف البربر منه .
استعانة العانين بشانحة القومس . تأييده للبربر الزاحفين
على قرطبة . وقعة قنطيش . خوف المهدى من البربر و ابرازه
هشاما . سليمان يزحف على مدينة سالم . وقعة البقر
وانتصار القطلونيين ثم هزيمتهم . المهدى ينتقم من قرطبة .
الصقالبة يخلعون المهدى ويولون هشاما مكانا ويقتلونه .

الفصل الرابع عشر

المهدى والبربر وهشام بن الحكم

كان كل شيء في أول الأمر يبدو وكأنه يسير وفق ارادة المهدى بالله ، فقد بايعه القرطبيون بالخلافة واعترف به البربر ، ثم لم تapse خمسة أيام على مقتل العاشر حتى تسلم المهدى رسالة أنفذهما إليه واضح أقوى الصقالية نفوذا وحاكم الشر الأوسط يؤكد فيها طاعتة له ، ويفضي إليه بفرحته الكبرى لمصر المتخصص وهلاكه ، ولم يكن المهدى ينتظر مثل هذه المبادرة السريعة من جانب واضح بالخضوع له وتأييده اذ كان يعرفه صناعة المنصور وغرس نعمته ، وان ابن أبي عامر هو الذى أبلغه المكانة التى هو فيها الآن ، ومن ثم فسرعان ما أقر المهدى بتقديره لجميل واضح عليه ببعث اليه بمال الوفير وأهداه جوادا فارها حسن الخلية ، ثم عهد اليه بحكومة الشر كله .

هكذا التفت كل الجماعات طوعية حول الحكومة منذ الساعة الأولى ، أو هكذا كان الظاهر على الأقل ، والحق أن الاجماع كان أقل مما يبدو، فقد تمت الثورة تحت تأثير نوبة حمى عنيفة اجتاحت القوم واعترى الشلل كل مظهر للتفكير الصحيح ، فلما هدأت الأمور بدأ الناس يدركون أن سقوط العاشريين لم يضع حدا للمصائب ، ولم يعالج أخطاء الماضي أو يعرض خسائره ، فيما زال الناس فى ظل النظام الجمديد يجأرون بالشكوى ويضججون ، كما أنه لم يكن للمهدى الواهب أو الفضائل التى تزكيه ، بل كان رجلا فاسقا فطا ميلا لسفك الدماء ، قليل الحصافة ، اذ ناصب جميع الأحزاب العداء ، فاستهل حكمه بصرف سبعة آلاف من جنده ، ولا مشاحة فى أن هذه خطة كانت تمليها عليه الضرورة حتى لا تصيب قرطبة تحت رحمة الطبقات الدنيا ، الا أن ذلك العمل أغضب الشعب الذى استخلفه الطرب لاستلابه الأموال الطائلة دون قيمة يعلم ما رغم افتخاره بأنه هو الذى قام بالثورة ، ثم لج المهدى فى خطئه فأبعد عن

العاصمة جمهوراً كثيراً من الصقالبة العامريين وعهد بوطائفهم إلى صقالبة من يعملون في القصر ، فدفعهم ذلك العمل إلى الارتماء في أحضان خصوم المهدى الذي لو أنه كان قد اصطنع قليلاً من الفطنة لأمكنه ضمهم إلى صفه ولحملهم على الوقوف إلى جانبه وتأييده .

تم أنه عمل في الوقت ذاته إلى إهاجة حفيظة المتدينين ضده ، إذ لازم القصر لا يبرحه عاكفاً عن ملذاته ، وأخذ المسلمين الأتقياء يشيرون في فرع إلى إقامته المأدب التي تسمع فيها عالياً انغام الأرغون والمزامير ، حتى لقد كانوا يقولون أنه يفعل ما كان يفعله شانجول وسموه بالسفية (١) وراحوا يصيرون عليه اللعنات لأنَّه عكر صفو كثير من الأسر ، فهجووه كما هجوا سلفه من قبل ، وكانت غلاظته عاملاً على ضياعه لدى الرأي العام فقد حدث أنَّ بعث إليه واضح برؤس كثرين من نسكان الشغور الذين رفضوا الاعتراف به فأمر أن ترشق بالزهور وأن توضع على شاطئ النهر تجاه قصره ، وكان بذلك له انعام النظر في هذه « الحديقة العجيبة » ، وطلب إلى شعرائه نظم القصائد في هذا الموضوع ، وكان من بين من طلب إليهم ذلك صاعده الذي أصبح ينسلخ إلى أعداء العامريين بعد أن كان يداهنيهم ويتملقهم .

إذا كان المهدى بالله قد أساء إلى جميع طبقات الشعب من الصقالبة والمتدينين والعامة فإنه من ناحية أخرى لم يحاول أبداً عمل شيء يجذب إلى جانبه البربر الذين كانوا عصباً حرّكته ، والواقع أن أولئك المحاربين الغلاظ كانوا مكرهين في العاصمة ، إذ لم يغفر الشعب لهم أنهم كانوا روح الفوضى وسر استبداد العامريين ، وكان المهدى يعرف أنه إن يبسط عليهم حمايته فقد أضعاب البقية الباقية له من المكانة في نفوس الناس ، وكان يدرك في الوقت ذاته عجزه عن ردهم إلى افريقيا فكان ذلك يفرض عليه أن يسترضيهم ، لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك بل كان يفتتح كل فرصة لاظهار احتقاره لهم وكراهيته لهم فحرم عليهم ركوب الجياد ، ومنعهم من حمل السلاح ، وصرفهم عن دخول القصر فكان ذلك غفلة كبيرة منه ، إذ كان البربر يعرفون قدرهم ويدركون خطورهم لما أفسوه من احترام البلاط وتبجيله لهم ، ثم انهم تعودوا أن يكونوا في الدولة الجماعة التي يعتقد بها ، وفي ذات يوم نهبت العامة كثيراً من دورهم دون أن تحول الشرطة بينها وبين النهب ، فمضى زاوي وزعيمان من زعمائهم إلى الخليفة وطلبوه إليه في صلف معاقبة الجناء ، فانزعج المهدى من ظاظتهم وأقرّ به ما ارتسم على وجوههم من الغلطة فراح يعتذر إليهم ، ثم أراد أن يفتّأ غضبهم فأمر بقتل المحرضين على الفوضى التي ارتكبواها ، لكن ما كاد ينصرف عنه خوفه منهم حتى عاود خطته في التضييق على البربر والعمل على ازعاجهم .

وعلى الرغم من شدة طيش المهدى بالله الا أنه لم يت unanim تماماً عن حرج مركزه ، وكان أشد ما يخافه أن يأتيالي يوم الذى يصير فيه اسم هشام بن الحكم صرخة لتأليب جميع الناقمين عليه ، ومن ثم صمم على أن يفهم الناس أن سجينه العظيم قد مات دون أن يقدم هو على قتله ، وحدث فى ابريل سنة ١٠٠٩ م أن مات مسيحي شديد الشبه بهشام فحمل المهدى بالله جثمانه سرا إلى القصر وعرضها على جماعة تعرف هشاما ، وسواء كان الشبه قويا جدا حتى خفيت الحقيقة على الشهود أنفسهم أم أنه استطاع اكتسابهم إلى جانبة بالخدعه الا أن الثابت أنهم قرروا ان الجنة لل الخليفة السابق ، ثم استقدم المهدى بالله بعد ذلك رجال الدين والوجهاء والشعب وصلوا على الميت الراحل ، وشيع المسيحي إلى مقابر المسلمين ودفن يوم الاثنين ٢٧ شعبان بين مظاهر التوقير الملوكية الواجبة ، أما هشام الحقيقي فكان اذ ذاك محبوسا بأمر المهدى بالله في قصر أحد وزرائه .

اطمأن بال الخليفة الغافل [المهدى] من هذه الناحية وظن أنه أصبح حررا يفعل ما يريد ، لذلك قام في شهر مايو (رمضان) فأطبق في السجن - دون أن يعرف أحد السبب - سليمان بن عبد الرحمن الثالث الذي كان قد نودى به قبل ذلك بزمن قصير ولها للهـ . زد على ذلك أنه أشاع عزمه على قتل عشرة من كبار البربر فكان هذا أكبر دافع للمغاربة على امتشاق السيف ، واذ ذاك قام هشام - أحد أبناء سليمان بن عبد الرحمن - ونشط لتكوين حزب من هؤلاء البربر ووجد الأمر ميسرا له فقد ألف السبعة آلاف عامل الذين عزلهم المهدى جيشاً كان على أتم آهبة للثورة ، وتجمع هؤلاء الرجال يوم ٢ يونيو ١٠٠٩ م أمام قصر هشام بن سليمان ونادوا به خليفة فسار بهم هشام إلى خارج البلد حيث انضم إليهم البربر وزحفت جموعهم على قصر المهدى بالله .

انتزع الخليفة [المهدى بالله] قسرا من ملذاته فسأل الجماعة عن مبتغاها فقال له هشام بن سليمان «ما فعلت بأبى وقد طرحته في مطبقك؟»، وحينئذ رد المهدى على أسيره سليمان (بن عبد الرحمن) حريته ، وكم كان مخططاً اذ ظن أن هذا العمل كاف لتبييض شمل المجتمعين لأن هشاما طلب إليه التخلّي عن العرش فأخذ المهدى بالله في محاورته رجاءً كسب الوقت ، واستغرق الحوار فترة طويلة ضجر أثناءها العمال والبربر من طول سكونهم فمضوا ينتبهون حوانيت «فحضر السرادق» ، ويضرمون فيها النار ، فهب القرطيون لقتالهم لا يرثون من وراء ذلك نصرة المهدى بل حماية أنفسهم من أن تمتد أيدي البربر إلى بيوتهم بالنهب والسلب ، ولم يلبث أن قدم العسكر لنجدته المهدى ، واستمرت رحى المعركة

دائرة بين الجانبين مدة يوم وليلة ، غير أنه في صباح الجمعة ٣ يونيو ١٩٠٩ اضطر البربر للنكوص على أعقابهم وقد عهتم الفوضى واضطربت صفوفهم ، فتعقبهم فريق من أهل قرطبة عند حدود وادي أرملاط ومضى فريق آخر فنهب بيوتهم وسبى نسائهم ، ونودى باجازة كل من يعود برأس ببرى . أما هشام - خصم الخليفة - فقد زج به في السجن كأبيه من قبل وقتل (٣) .

ولما جمع البربر شملهم في النهاية أقسموا أن يكون انتقامهم عجيبة ، ولم يكن لهم من الماء ما يؤهلهم لوضع خطة انتقامية ، غير أن الحظ واتاهم فكان فيهم زاوي ، وهو من أسرة صنهاجية حكمت في افريقية القسم الذي عاصمه القيروان ، وكان زاوي أكثر زملائه البربر المحاربين رقياً وذكاء ، فرأى قبل كل شيء ضرورة البحث عن منافس للمهدى .

كان تحت يد زاوي رجل أموي اسمه سليمان - وهو ابن أخي لهشام - الذي ساهم بتصنيف في وقعة عمه ثم صاحب البربر بعد ذلك في فرارهم ، فاقتصر زاوي على رفاقه مبايعته بالخلافة (٤) ، فرفض البعض مقترحة نافين عن سليمان كل كفالة يمكن أن تزكيه لزعامة الجماعة ، وقالوا إنه تنقصه الخبرة الالزمة لقيادة أي جيش على الرغم من أنه كان رجلاً فاضلاً في نفسه ، كذلك أبي آخرون أن يتزعمهم عربى أيًا كان هذا العربى ، واذاً قام زاوي - تأييده لفكرته - باتباع طريقة لاشك أنها كانت جديدة على البربر ولكنها مألوفة عندنا حيث جمع خمسة رماح وجعل منها سلمة واحدة ودفعها لأقوى جندى من رجاله وقال له : « أجهد نفسك في كسرها كما هي » فعجز الجندي عماساته اياده فقال له زاوي : « حلها وعالجها رمحاً رمحاً » فأنجز البربرى الأمر في لحظته ، واذاً قال زاوي : « هذا مثلكم يا برابرة ، إن المجتمع لم تطاقوا ، وإن تفرقتم لم تبقوا .. والجماعة في طلبكم ، فانتظروا لأنفسكم وعجلوا » فصاحوا جميعاً : « نأخذ بالوثيقة ولا نلقى بآيديينا إلى التهلكة » فمضى زاوي في كلامه آخذنا بيد سليمان وقال : « بایعوا لهذا القرشى سليمان يرفع عنكم الأنفة في الرياسات وتستميلوا اليه العامة بالجنسية » .

حينذاك أقسام الجميع يمين الولاء لسليمان وتسمى بالمستعين بالله، وعاد زاوي مرة أخرى فقال : « ان مثل هذه الحال لا يقوى على الاستطالة ، فليعد رئيس كل قبيلة منكم قبيله ، ويتكفل للسلطان بتقاديمهم ، وأنا الكفيل بصنهاجة » .

وتم طلب زاوي الذي انتخب بطبيعة الحال مثلاً لقبيلة
صنهاجة (٥) .

أما الخليفة سليمان فلم تكن له أدنى سلطة على البربر الذين انتخبوه
رؤسائهم دون استشارته ، والحق أنه لم يكن سوى دمية في أيديهم
يحركونها كيفما شاءوا .

زحف المغاربة بعد ذلك شطر وادي الحجارة (٦) ، فلما استولوا على
هذه المدينة عرضوا على واضح الانقسام إليهم وسألوه أن يفتح لهم أبواب
مدينة سالم فلم يستجب لعرضهم بل كر عليهم مهاجماً أيام بالتجددات
التي أرسلها المهدى إليه ، لكنه عاد متذولاً ، غير أن البربر لم ينعموا
بالنصر الذي حازوه لأن واضحاً حرمهم من كل ذخيرة حتى لقد ظلوا
خمسة عشر يوماً عدموا خلالها القوت غير خشاش الأرض فرأوا – تخليساً
من هذا المأزق – أن ينفذوا إلى شانجة قومس قشتالة نفراً من رجالهم
يلحون عليه أن يتدخل لصالحهم ويعدونه بمحالفتهم أيه ما دام واضح
والمهدى عارفين عن السلم غير مستجيبين له .

ولما وصل نفر المغاربة إلى مقر شانجة القومس وجدوا عنده سفارة
من قبل المهدى تحمل إليه جياداً وبغالاً وهلايس وأحجاراً كريمة وغير ذلك
من الهدايا ، كما وعدته هذه السفارة أن يتخلّى له المهدى عن كثير من
المدن والحسون إذا هو مد يده المعونة إلى خليفة قرطبة ، وهكذا تغير
كل شيء في أقل من شهر واحد ، ولم يعد المسلمون هم القسم الذين
يملون شروطهم على الأمراء المسيحيين ، بل انعكسَ الآية فراح قوس
قشتالة هو الذي يقرر مصير إسبانيا العربية .

لما أدرك الكونت حقيقة الوضع عند جياته وعرف مبلغ ما اعتبرى قوة
المهدى من وهن تعهد للبربر بالانضمام إليهم إذا هم تخلوا له عن القلاع التي
وعده بها رسول المهدى ، فقبل البربر شروطه ، وحينذاك رد السفراء
الآخرين وبعث إلى معسكر البربر ألف ثور وخمسة آلاف شاة وألف عجلة
من الدقيق وأنواع المأكل ، وبذلك أصبح البربر في حال تمكنهم من شن
حملتهم ، وانضم إليهم الكونت برجاله ، وشرعوا في الزحف على مدينة
سالم التي ما كاد البربر يقتربون منها حتى جددوا مساعيهم لجذب واضح
إلى صفthem ، لكن نجاحهم هذه المرة لم يكن أكثر من نجاحهم معه من قبل
فقرروا عدم اضاعة الوقت وزحفوا رأسياً على قرطبة في يونيو ١٠٠٩ م
[ذو الحجة ٣٩٩ هـ] وتعقبهم واضح بفرسانه هاجمهم ، غير أنه اضطر
للفرار بسبب قتل الكثريين من رجاله ودخل قرطبة في أربعينات فارس ،

وسرعان ما انضم اليه أحد قادته بمائتى فارس آخرين من ساعدهم
الحظ فنجوا من المذبحة .

لما علم المهدى بالله بزحف البربر على العاصمة فرق السلاح على كل قادر على حمله ، وتحصن فى سهل يقع شرقى قرطبة ، غير أن ما اطبع عليه من الغفلة دفعه للخروج من مأمهنة لمواجهة العدو بدلاً من انتظاره ، والتقى الجعسان فى « قنطيش » (٧) يوم ٥ نوفمبر ١٠٠٩ م (السبت ١٣ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ) ، وكانت كتبية مؤلفة من ثلاثة بربوريا كافية لاقاء الفوضى فى صفوف العدو المضطربة ، حتى لقد أخذ ذلك الجيش المؤلف من العامة والعمال والفقهاء يدوس بعضه ببعض فى ارتداده السريع ، وتناولت المثاث منه سيف البربر والقشتاليين كما ابتلعت أمواج الوادى الكبير منهم المثاث ، حتى لقد قدر عدد القتلى فى هذه الواقعة المروعة بعشرة آلاف رجل (٨) .

ما كاد واضح يرى كل هذه الخسارة حتى ركض شمالاً فى فرسانه الستمائة (٩) . أما المهدى فقد اختبا فى قصره ، لكن سرعان ما حاصره البربر ففكروا فى إنقاذ نفسه بارجاع هشام الثانى (بن الحكم) إلى الخلافة فأبزوه (١٠) من سجنه وأجلسه فى مكان يراه فيه البربر وبعث اليهم قاضيه ابن ذكوان يقول لهم على لسانه : « إنما أنا قائم دون هشام بن الحكم ونائب عنه : كال الخليفة والحاچب ، وهو أمير المؤمنين » فضحك البربر من رسالته القاضى وقالوا له : « سبحان الله يا قاضى ، يموت هشام بالإمس وتصلى عليه أنت وأميرك ، واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه ؟ وعلى كل فالله محمود على سلامته ، أما نحن فلا حاجة لنا فى امامته ولا نرضى بغير سليمان » .

وحاول القاضى عبثاً تبرير موقف مولاه ، وبينما هو فى الكلام اذا بالقرطبيين يذهبون لتحية سليمان والاعتراف به الخليفة الشرعى عليهم بعد ان ارهبهم وهو يهدى أسوارهم .

بينما كان سليمان (بن أخي هشام) يدخل العاصمة التى أخذ البربر والقشتاليون يقتربون بها شتى الموبقات اذا بالمهدى يشخص الى طايطة للاختفاء بها فى بيت رجل من أهلها اسمه « محمد الطايطة » . أمله بكل ما يحتاجه لبلوغ هذه المدينة ، ولما كانت كل الأرضى التى بين طرطونة ولشبونة لاتزال فى يد المهدى بالله فقد أجاب سليمان شانجة حينما ذكره بعهده له وعجزه عن الرفاه به فى لحظته هذه لعدم استيلائه بعد على المدن التى يطلبها منه ، لكنه جدد له اليمين بالتنازل عنها حالما تستسلم له ، ومن ثم رحل شانجة عن قرطبة يوم [الاثنين] (١١) ١٤ نوفمبر ١٠٠٩ م

(= ٢٢ ربیع الأول سنة ٤٠٠ هـ) ، مستصحبا معه رجاله الذين أثروا على حساب سكان المدينة .

لم يطرأ أي تغيير على حظ هشام فقد عاد سليمان فحبسه في المطبق من جديد بعد أن أرغمه على التنازل له ، كما أذن بدفن جثة شانجول وفق الشعائر المألوفة ، نزولا على رغبة الموال العامريين القدماء .

كان المهدي قد بلغ في ذلك الوقت طليطلة فأكرم أهلوها وقادته ، وأخذ سليمان في الزحف لمهاجمته وبعث إلى الطليطليين بجماعة من الزعماء المدنيين يخيفونهم من غضيته عليهم اذا هم أوضعوا في الفتنة ودأبوا على العصيان ، فلم ترهبهم هذه التهديدات . ولما كان سليمان يكره محاصرة مكان قوي مثل طليطلة بل يأمل أن تستسلم له من تلقاء ذاتها تسجا على متواط غيرها من المدن فقد زحف على مدينة سالم ، وانضم كثير من الصقالبة إلى جيشه في أثناء سيره واستولى على مدينة سالم دون اهراق نقطة دم لأن واضحا كان قد أخلاها وارتد إلى طرطوشة التي أفقد منها إلى سليمان كتابا يتبثه فيه باعترافه بخلافته ان تركه مقينا حيث هو ، وكان يرمي من وراء ذلك إلى خدعة سليمان وأتباعه وإلى كسب الوقت . وجازت حيلة واضح على سليمان الذي وقع في الأح韶لة فترك له حكومة جميع الثغور يصرف أمورها كيف شاء .

واد أصبح واضح مطلق اليدين يادر إلى عقد حلف مع القومين القاطلوبين : ريموند صاحب برشلونة وأرموند صاحب أرجيل بعد أن تعهد لهما بالوفاء بكل ما طلباه منه ، ثم سار شطر طليطلة على رأس جيشه وجيش آخر قاطلوني ، وعمل على الاتصال بقوات المهدي ، وحينذاك دعى سليمان أهل قرطبة لحمل السلاح ، لكن لما كان هؤلاء لا يحبون العمل تحت امرة المغاربة فقد امتنعوا عن استجابته متذرعين بأنهم غير متأهبين للحرب وطابق الخبر في وقعة قطفيش .

أما البربر الذين كانوا يؤثرون ألا يكون في صفوفهم جند من هذه الجبلة فقد طلبوا إلى سليمان أن يكل اليهم أمر كسب المعركة من أجله ، فأجابهم سليمان إلى مطلبهم ، فلما تقدموا وبلغوا عقبة البقر (١٢) وهي محلة على بعد أربعة فراسخ من قرطبة التقاو بجيشه خصمهم وكانت قوامه ثلاثين ألف مسلم وتسعة آلاف مسيحي ، وجرى ذلك في النصف الأول (١٣) من يونيو ١٠١٠ (ذو القعدة سنة ٤٠٠ هـ) فجاء قادة سليمان وجعلوه في المؤخرة وطلبوا إليه ألا يبرح موضعه هذا أبدا حتى ولو وطأه العدو تجت أقدامه ، ثم أخذواهم في مهاجمة القوات القاطلوبية ، غير أنهم تبعا

لخطط هجوم الحرب الشرقية استدبروا العدو وطريقه وكروا عليه كرمه صدق ، وعلى الرغم من أوامر قواد سليمان إليه إلا أنه للأسف لم يدرك مرسي تدبرهم العربي هذا فما كاد يرى المقدمة تتحقق حتى أيقن أن الهزيمة لحقت بهم فأطلق لجواده العنان ، واقتدى به من حوله من الفرسان ، بيد أن البربر عاودوا الهجوم على عدوهم بشدة فقتلوا ستين زعيماً قطليونيا ، ومن بينهم أمير قند صاحب أرجيل .

لکنهم لما رأوا سليمان قد غادر مكانه عادوا الى الزهراء وبذلك
کسب القطنیون المعرکة وأدى جهل سليمان وجنه الى هزیمه فی عقبة
البقر التي كان هن المتوقع أن یخرج منها ظافرا منتصرا لو أنه أدرك
خطط قواده وامتثل لأوامره ، وهكذا رجحت كفة القطنیین ، والظاهر
أن ذلك راجع لعدم مساعدة قوات واضح والمهدى مساعدة جديدة في
القتال .

ارتدى المهدى الى قربطة ، وهكذا قدر للبلد المنكود الذى ينهى منذ ستة شهور على يد القشتاليين والبربر أن ينهى من جديد على أيدي القاطلوبنيين .

ومضى المهدى بتعقب البربر الذين زحفوا على الجزيرة
الخضراء فانبغسلوا فيها يقتلون كل من يعترضهم ويسلبون القسرى ،
غير أنهم ارتدوا على أعقابهم حينما علموا أن عدوهم جاء في آثارهم .

فِلَمَا كَانَ يَوْمُ ٢١ يُونِيُّو ١٠١٠ (١٤) = الْجُمُعَةُ ٨ ذِي القُعْدَةِ سَنَةُ ٤٠٠ هـ التَّقِيُّ الرِّزْخَانِيُّ التَّعْدَادِيُّ قَرْبَ الْمَكَانِ الَّذِي يَصِيبُ فِيهِ نَهْرُ اَوَادِي آَذَّةٍ فِي الْوَادِيِ الْكَبِيرِ، وَفِي هَذِهِ الْمَرَةِ مَسْعَ المَغَارِبَةِ عَارِ تَقْهِيرُهُمْ فِي وَقْعَةِ الْبَقْرِ، وَفَرَّ جَيْشُ الْمُهَدِّيِّ بِاللَّهِ تَارِكًا فِي سَاحَةِ الْعَرَبِ الْقَتْلِيِّ وَفِيهِمْ كَثِيرٌ مِن الصَّقَالِبَةِ، وَمَا يَنْتُوفُ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافِ قَطْلُونِيٍّ، كَمَا ابْتَعَلَتْ مِيَاهُ الْوَادِيِ الْكَبِيرِ أَعْدَادًا ضَخْمَةً مِنَ الْجَنْدِ (١٥) .

عاد القطلانيون المغلوبون بعد ذلك بيومين الى قرطبة غاضبين لهزيمتهم ، فامعنوا في القتل في وحشية غريبة ، لاصيماً أنهم راحوا يقتلون كل من يشبه البربر بأى وجه من الوجوه ، فلما طلب المهدى منهم معاودة القتال الى جانبه مرة أخرى رفضوا طلبه محتفين بفداحة الخسائر التي حاقت بهم مما لا يسمح لهم بالقتال ، ثم انصرفوا عن قرطبة يوم ٨ يوليو ١٠١٠ م = السبت ٢٣ ذو القعدة سنة ٤٠٠ هـ) ، وعلى الرغم من جميع المساوى التي ارتكبها القطلانيون فقد انزعج الأهمال لرحيلهم ،

اذ لم يكن ثم خطر يفوق خطر البربر الذين كان في استطاعة القطلانين وحلهم دفهم ، حتى ليقول مؤرخ عربي بعد رحيلهم « كان لأهل قرطبة لفراقهم أكبر هم ، حتى كان بعضهم يلقى بعضاً فيعزبه كما يعزى من فقد أهله ومآلاته ، أسفًا على رحيلهم وجزعاً من وصول البربر إليهم »

فرض المهدى بالله على المدينة غرامة فادحة تمكّنه من دفع رواتب جنده ، ثم زحف على العدو ، لكن جيشه كان قد شجاعته منذ رحيل القطلانين عنه ، فلم يكدر رجاله يقطعن سبعة فراسخ حتى اعتراهم خوف شديد لمجرد تفكيرهم في أنهم سوف يواجهون بعد قليل أولئك البربر المخيفين فانقلبوا على أعقابهم إلى قرطبة ، ومن ثم كان على المهدى انتظار العدو في العاصمة التي خندقها وسورها ، غير أن القدر شاء أن يكون سقوطه على يد الصقالبة وليس على يد البربر .

كان تحت راية المهدى بالله جماعة من الصقالبة وكثيرهم واضح ، أما البقية الأخرى منهم - وفيهم خيران وغبر - فقد انقادوا لمناوئيه ، وشعر جميع الصقالبة بضرورة اتحادهم معاً رغبة في تحقيق أهدافهم ومطامعهم ، إلا وهي أن تكون « الفرة » في أيديهم ، فصمموا أن يجلسوا على العرش هشاما الثاني مكانه في كرسى الخليفة ، ومن أجل تحقيق هذه الحطة عمل واضح جهده على إثارة سخط سكان العاصمة وأخذ يبالغ في الإرجاف بأخبار تتعلق بحياة الفسق والفسور التي يحييها « السفيه » ، ومضي يطبع لدى العامة الفوضى التي يرتکبها الجندي ، هذا مع أنه كان في الوقت ذاته يشجعهم عليها سرا ، ولما أفسدت هذه المكائد البقية الباقية من حب الشعب للمهدى بالله تقدم خيران وغبر وبقية قادة جيش سليمان من الصقالبة إلى المهدى يعرضون عليه خدماتهم ، فتعجل هذا بقبول عرضهم ، لكن ما كاد هؤلاء المرتزقة يدخلون قرطبة حتى أدرك أنهم يتآمرون به ، ولما كان عاجزاً عن مقاومتهم فقد صمم على الاعتصام مرة أخرى بطيطلة ، فحال الصقالبة بينه وبين ما يزيد ، وفي يوم الأحد ٢٣ يوليو ١٠١٠ م (= ٨ ذى الحجة سنة ٤٠٠ هـ) ركبوا في شوارع قرطبة ينادون بهشام الثاني ، وأخرجوه من مسجنه وأجلسوه على كرسى الخليفة ونادوا بشعاره .

كان المهدى بالله في هذه اللحظة في الحمام ، فلما نمى إليه خبر ما جرى انطلق ل ساعته إلى دار الملك ليجلس إلى جوار هشام لولا أن جذبه غبر جذبة شديدة من ذراعه وأنزله عن العرش وأرغمه على الجلوس بين يدي هشام الذي أتبه في لهجة عنيفة قاسية على ما ارتكبه في حقه وما أنزله به من المصائب ،

ثم تقسم عنبر فأمسك بالمهدي من ذراعه وطرحه أرضاً واستل السيف ليضرب به عنقه ، وحينذاك طوقه المهدي ، فلما رأى يقية الصقالبة ذلك المنظر أقبلوا عليه يتناوشونه بسيوفهم فهبروه بها حتى مات ، ثم سحبوا جثته إلى الرصيف الذي وضع فيه جثة ابن عسقلانة قبل ذلك بسبعة عشر شهراً .

وهي إذا كان قد صعد العرش بمؤامرة فإن هناك مؤامرة أخرى سلبته العرش والحياة مما (١٦) ٠

الفصل الخامس عشر

الكراهية ضد الصقالبة . في العاصمة . سليمان يطلب
النجدة من شانجة كونت قشتالة . استرداد شانجة بعض
القلاع من غير حرب . ضراوة البربر ضد قرطبة والزهرا .
محاولة الصقالبة الانتقام . مقتل حابسة بن أخي ذاوي .
استبسال القرطبيين في الدفاع عن مدinetهم . عودة سليمان
للقصر الخليفي .

الفصل الخامس عشر

الأندلس بين الصقالبة والبربر

كان الصقالبة يبلغون أقصى القوة اذا كان الحاكم شديد الضعف كما هو الحال ازاء هشام الثاني ، فقد تطلع واضح الحاجب الى حكم أسبانيا كما فعل مولاه المنصور من قبل ، غير أن الظروف لسوء طالعه كانت غير الظروف السابقة فقد تبدلت الأمور ، وشتان ما بين واضح والمنصور ، وفي الواقع أنه لم يجد في ياديه الأمر شيء من المعارضة بالعاصمة التي لم يجرئ أحد فيها لصرع الطاغية المهدى بالله الذي طيف برأسه في الشوارع دون أن تلوح بارقة من التثمر ، وسرعان ما تبين واضح انهيار أمله في اللحظة التي كان فيها اعتراف البربر بالحاكم الذي أبسه الناج ، فقد اشتد بهم السخط عليه حينما بعث اليهم برأس المهدى رجاء العودة الى طاعة هشام ، وهموا بأن يفكروا بمحامل الرسالة لولا توسط سليمان في الإبقاء عليه حتى لقد بكى سليمان نفسه أسفًا على منظر رأس ابن عمّه ، ومن ثم غسله وأرسله الى عبيد الله بن المهدى الذي كان موجوداً اذ ذاك بطيطة .

تبه واضح لوقف البربر ثم لم يلبث أن أدرك بعد قليل وجده أعداء له داخل المدينة ذاتها ، ذلك أن بعض الأمويين كانوا كارهين للسيادة الصقالبية ، ورأوا أن تحقيق منافعهم الشخصية يتطلب منهم أن يكونوا إلى جانب سليمان فأوزعوا إليه سراً بوجوب التقديم يوم ١٢ أغسطس (= ٣٧ ذو الحجة سنة ٤٠٠ هـ) إلى أبواب العاصمة ومن ثم يمكنونه منها ، فوعدهم سليمان بالحضور ، غير أن واضحة علم من خيران وعبر بالمؤمرة التي تدبر ضده ، فقبض على المتأمرين ولما كان سليمان قد حدم يوماً يظهر فيه أمام أسوار البلد فقد هوجم بشدة واضطرب إلى التراجع السريع (١) .

كان واضح يأمل أن يسلس التراجع من شكيمة البربر فعاد لمقاضيتهم من جديد دون أن يحصل على نتيجة ما ، وفي هذه الأثناء طلب سليمان النجدة من حليفه القديم شانجة كونت قشتالة عارضا عليه التنازل عن الحصون التي كان المنصور قد استولى عليها منه ، ولا نرى مما إذا كانت هذه هي نفس الحصون التي وعده بها من قبل ، غير أن المؤكد هو أن الكونت وجد هذه المرة الوسيلة لزيادة رقعة أملاكه دون أن يكلفه ذلك إرسال حملة إلى الأندلس *

لم تكن القلاع المتفق عليها في حوزة سليمان بل في يد واضح ، ومن ثم فقد أفهمه شانجة بوجوب التخلص لها عنها والا زحف عليه في رجاله القشتاليين وانضموا إلى جانب البربر ، فكانت مسئولية قبول ذلك الطلب أو رفضه أخطر من أن يتخلصها واضح وحده ، فأرسل في طلب وجوه الناس وأقضى إليهم بفتحي رسالة شانجة وسائلهم أن يحضرسوه النصائح ويشيروا عليه بما يفضل ، فكان ردّهم عليه أنه ينبغي عليه قبول هذا الطلب مدفوعين إلى ذلك بخوفهم من رؤية البربر يهاجمونهم بمساعدة القشتاليين ، فتقلب ذلك على ما عندهم من روح الكبرياء القومي ، وفي شهر أغسطس أو سبتمبر ١٤٠١ م (= المحرم سنة ٤٠١ هـ) عقد واضح مع شانجة معاہدة أسلمه فيها - على حد قول الكتاب المسلمين - أكثر من مائتي حصن ، يذكر منها المؤرخون المسيحيون (٢) شانت شتيبن وكرونيا ولبيكوند وجرماز ، ووختمة .

وسرت هذه الروح كالعدوى فقد رأى أحد الكوئنات الآخرين أن قليلاً من الوعيد والتهديد كاف للحصول على بعض القلاع الحصينة ، فقام بيدوره مهدداً بانضمامه من ساعته إلى جانب سليمان إن لم يجب إلى مطلبـه ، فلم يجرؤ أحد على رفض ما طلب ، وهكذا أصبحت الإمبراطورية الإسلامية فريسة للفتن والانحلال ، كما راحت تسير في طريق التمزق .

فهل لازال قربة فرجين بسقوط بنى عامر ؟ وهل لازالوا يمدون يوم سقوط العامريين يوم فرحة لهم كما قد تستدل على ذلك من حماستهم الشديدة في تأييدهم الثورة ؟

الواقع أنهم كانوا جد مخطئين لكنهم لم يكونوا يستطيعون التراجع ، فكان عليهم وسط الظروف المحبطة بهم أن يرضوا بطاطة هماماتهم أمام أعداء دينهم والرضوخ للسيطرة التي يريد البربر والصقالبة فرضها عليهم ومقاساة أهوال التهـب والسلب على يد هؤلاء وهؤلاء *

ومجمل القول انه كان عليهم قبول كل ما تتعرض له الجماعات التي تسير من غير هدف محدد واضح ، ومن غير أن تكون لديها فكرة سياسية أو دينية تسعى لتحقيقها ، فبدفعها الطيش لأن تطرح بنفسها في أعصار الثورات .

الا أن أهل قرطبة لم يكونوا وحدهم في هذه اللحظة أكثر الناس معاناة لشدة وطأة البربر الذين حاصروا بلدتهم قرطبة مدة شهر ونصف ثم حملوا على مدينة الزهراء فاستسلمت لهم بعد حصار دام ثلاثة أيام فقط ، ويرجع سبب استسلامها إلى خيانة أحد القادة فقد فتح لهم أبوابها يوم ٤ نوفمبر ١٠١٠ م (= ٢٤ ربيع الأول ٤٠١ هـ) ، وجرت مذبحة مروعة فكان ما أصاب الزهراء على يد البربر كافيا لأن يدرك منه القرطبيون ما يلخره لهم هؤلاء إذا كانوا لايزالوا في شك من مصيرهم ، فقد ذبحوا جند الحامية على يكرة أبيهم ، واعتصم الناس بالمسجد الذي لم يحترم البربر قداسته فلم يبقوا على أحد لاذ به : رجالاً كان أم امرأة أم طفلاً ، بل قتلواهم جميعاً ، ثم أضرموا النيران في المدينة بعد ان استباحوها ، وبذلك لاقت الزهراء التي لم يكن لجمالها ضريب في أوربة ما لاقته منافستها فأصبحت كومة من الأنقاض .

ظل فريق من الجيش المغربي طوال الشتاء ينهب ضواحي قرطبة ويحول دون وصول الطعام إلى المدينة ، فلما جرد سكان الأقاليم المجاورة من كل ما يملكونه تزاحموا زرافات ، وجاوز عددهم عند السكان وارتقت أسعار الغلال ارتفاعاً فاحشاً استحال معه تموين هؤلاء فمات الكثيرون منهم جوعاً وأصبحت الحكومة نفسها على شفا الانفلاس لقلة دخالها حتى اضطرت الحاجب واضح لبيع الجزء الكبير من مكتبة الحكم الثاني بثمن زهيد (٣) ، وأنأخذت في الوقت ذاته جمادات قطاع الطرق تنهب الولايات فسقطت المدن الكبرى في أيديهم ، وكان أشد الأمور تكآبة هو معاناة السكان ما عانته الزهراء ، وهكذا كان كل مكان بإسبانيا مسرحاً تمثل عليه أفعى المناظر ، فهجرت القرى حتى لقد كان المرء يسير بضعة أيام في الطرق التي كانت مأهولة من قبل فلا يصادف أى كائن حي .

وفي صيف ١٠١١ م (= ٤٠١ هـ) تفاقم بؤس الأندلس لاسيما قرطبة ، وكأن هذه المدينة المنكوبة التي اجتاحتها الطاعون (٤) قد اطمانت إلى توالي المصائب عليها فازدادت الفوضى ، وتسبّب الجند إلى واضح ما حاقد بهم من التكبيات ، كما راح القائد الصنقيلي ابن أبي وداعـة - عدو الحاجب الشخصي - يعمل على إثارة السخط ضد واضح ، فقد سبه ابن أبي وداعـة

على ملا من الناس ، وأدرك واضح اضطراب مكانته ، فنلب شخصا يدعى أبو بكر للذهاب الى سليمان والاتفاق معه على الصلح [ويشير عليه بزيارة قرطبة بعد رحيله عنها] ، فأثار هذا المسيلك حفيظة الصقالية لذلك ما كاد أبو بكر يعود بعد مفاوضته خصم الخليفة ويدخل قاعة الملك حتى وتب الجندي عليه ولم يدعوه يذكر الجواب الذي كان يحمله ، وذبحوه في حضره الخليفة . وفي حضرة واضح الذي صمم في لحظته هذه على الفرار الى البربر ، غير أن خبر عزمه على الهروب تراهى الى ابن أبي وداعه فحال بينه وبين تنفيذه ، اذ جمع جنده واقتحم بهم قصر الحاجب قائلا له : « لقد أسرفت في الأموال ، ثم تعتمز بعد ذلك على مصالحة البربر » ، ثم ضربه بصفح سيفه ، ثم طرحت جثته يوم ١٦ أكتوبر ١٠١١ م (= ١٥ ربیع الأول سنة ٤٠٢ هـ) حيث طرحت من قبل جثتنا المهدى . بالله وابن عسقلانة .

انقضى عام ونصف عام بعد ذلك قبل أن يضع العدو السيف عن الصقالية والقرطبيين ، وفي هذه الفترة حكم ابن أبي وداعه المدينة بيد من حديد وبقسوة متناهية ، وأذرر الفقهاء كل المؤازرة فسموا حرب البربر جهادا ، وأصحاب المحاصرون ثبثا من القنم ذلك أنه في شهر مايو ١٠١٢ م (= شوال ٤٠٢ هـ) وقع في أيديهم محارب ببرى يارز هو حباشة بن أخي زاوي ، اذ أخذ يضرب ذات اليمين وذات الشمال حتى القى نفسه وسط محاربيه واذا بحزام سره يرتعش وما كاد يتعنّى لشنه حتى سلّد اليه صقليبي نصري طعنة شديدة من رمحه أسقطته عن فرسه ^٤ وسرعان ما أجهزت عليه جماعة أخرى من الصقالية فحاول آخره جبوس انتزاع جثته من يد العدو فقاتلوه فلم يظفر ببعنته ، وحمل الصقالبة رأس حباشة الى التصريح يزدھيهم النمر وتركوا جثته للشعب الفاضب الذى أضرم فيها النار بعد أن مثل بها أقطع تمثيل وطاف بها الشوارع ، فاشتد حتى البربر وقالوا « سنثار قضيختنا ، اذا أرقنا دماء القرطبيين جميعا فلا تكون قد اكتفيتانا بتأتنا » (٥) واذا ذلك شاعروا من عنفهم ، غير أن اليأس منع القرطبيين قوة جباره ، وخرج ابن أبي وداعه مبربرا حتى أرغم خصومه على رفع الحصار ودفعهم عن الشبيبية ، لكنه عجز عن أن يمنعهم من الاستيلاء على قلعة رباح ، بيد أنهم ما لبشوأ ان عاذوا الى أسوار العاصمة التي رغم استماتة القرطبيين فى الدفاع عنها الا ان البربر استطاعوا زدم الخندق مما ساعدهم على السيطرة على الجانب الشرقي منها ، لكن يظهر أن المظط واثى القرطبيين مرة أخرى فقد أرغموا عدوهم على التخلّى عن الجزء الذى وقع في يده ، وكانت هذه آخر مرة ينتصر فيها القرطبيون . (٦) اذا دخل البربر المدينة من باب تناحية شنقيلة بعد أن

رشوا أحد الضيابط ففتحه لهم وذلك يوم الأحد ١٩ أبريل ١٠١٣ م (= ٥ شوال سنة ٤٠٣ هـ) ودفعت قرطبة ثمن مقاومتها الطويلة سيلان من الدماء الجارفة ، فقد ارتد الصقالبة فاشلين وأخذ البربر يجوسون خلال الشوارع يصيرون صبيحات متكرة وانسابوا في المدينة مدمرين وسائلين ومقتلين الناس ، وراح الآهال الوادعون ضحية غضبهم الأعمى ، فكان من القتلى سعيد بن منذر خطيب جامع المدينة منذ أيام الحكم الثاني والذى زakah فضلها وورعه فأغيد اختياره (٧) ، وكان من القتلى أيضاً مروان التسس من أسرة بنى حمير الشريفة الذي أحب ففشل فيvens فجن (٨) وطرحوا جثة العالم ابن الفرضي صاحب معجم التراجم القيم ، وكان ابن الفرضي (٩) قاضي بلنسية زمن المهدى ، وقد تحقق رجاؤه الذى تمناه فى لحظة من لحظات الحماسة الدينية فى أن يموت شهيداً فمات الميتة التي اشتهرها (١٠) .

وتعددت الصحايا حتى ليعجز المرء عن عدّها .

وفي نفس الوقت كانت النيران تستعمل وتلقي بأضوائها المشئومة على هذه المناظر المروعة ، وغدت أفحى القصور طعمة للنار حتى لقد قال ابن حزم (١١) فيما بعد : « انترى أرباب الدولة على الناس وامتحنوههم بالاعتقال والترقب والاغترام الفادح والاستثار ، وأرزمت الفتنة ، وألقت باعها وعمت الناس » .

وفي اليوم التالي لاحتلال المدينة ذهب سليمان لامتلاك التصر الخليفي وجىء له بجميع القرطبيين الذين شاعت الصدفة البحتة أن ينجو من سيف البربر ، وأوقفوهم على جانبى الطريق لتحيته ، وعلى الرغم من أنهم كانوا مروعين من المناظر المؤلمة التي قدر لهم أن يشاهدوها فقد سعوا جهدهم للهتف له ، ولكنّه هو كان يدرك حقيقة هؤلء الحماسة المصطنعة ، فقال متمثلاً يقول شاعر قدّيم (١٢) :

يقولون لي أهلاً وسهلاً ومرحباً ولو ظفروا بي ساعة قتلوني
ولا بلغ القصر جاء بهشام الثاني وقال له : « أما كنت تبرأت لي من الخلافة وأعطيتني صيقة يمينك .. فما حملك على أن نقضت عهديك وحللت عقدك ؟ » .

فضم هشام البائس يديه وأجابه : « انى مغلوب على أمرى متبرى» من الخلافة ، ومسلم الامر اليك وخالع لك نفسى » .
أما البربر فقد استقرروا أولاً في شققنا ، وبعد ذلك بثلاثة أشهر نفى جميع سكان قرطبة ماعدا الذين ينزلون الناحية الشرقية والميدان المسمى بالمدينة وصودرت أملاكهـم ، وضمت إلى المتصر الذى احتل إذ ذاك البيوت التي تجنت من العريق (١٣) .

الفصل السادس عشر

تمزق وحدة البلاد . خلاصة الرأى فى الخليفة سليمان .
كراهية الناس لظلمه . خيران الصقلبي يستوى على المرية .
على بن حمود البربرى وطموحه إلى الخلافة . هل هشام حى
أم ميت ؟ قتل سليمان وتولية على بن حمود . انقلاب خيران
عليه وتلویحه بسلعى أموى للحكم . ترحيب القرطبيين بحاكم
أموى . انقلاب ابن حمود عليهم ومصادقته للبربر وأثر
مظاهره . مقتله . مبايعة ابنه القاسم . خيران والمنذر يختاران
المرتضى الذى يرفضه زاوي . غدر خيران والمنذر بالمرتضى .
عدل القاسم فى الحكم . استئثاره من السودان يشير البربر
عليه . فرار القاسم والنزاع الأسى . ثورة أهل قرطبة .
ابن أخيه يغله ويحبسه ثم يقتله خنقا . مبايعة عبد الرحمن
المستقهر أخي المهدى بالخلافة .

الفصل السادس عشر

المنازعات والخصومات النموذجية

حول الحكم

استقلَّ كثُرٌ من ولاة الأقاليم منذ اندلاع الفتنة - بما في أيديهم ، وكان سقوط قرطبة في يد البربر آخر طعنة مزقت وحدة الامبراطورية فاستولى القواد الصقالبة على بعض المدن الكبرى في الشرق ، كما استقلَّ زعماء البربر استقلالاً تاماً فيما كان يسيطرون من الأقطياعات أو الولايات التي أقطعهم إياها العامريون ، أما الشراذم القليلة الباقية من الأمارات العربية التي كانت لا تزال على شيء من القوة تؤهلهما للاعتبار فقد تجاهلت الخليفة الجديد الذي كان سلطانه يمتد على خمس مدنٍ كبيرة فقط هي قرطبة وأشبيلية ولبلة وأتشوبية وباجة .

كأن هناك من المظاهر - وإن قل - ما يدل على تبدل الأمور ، فقد كان البربر يتوقون للتتمع بالأموال التي أصابوها من جراء تخريب العاصمة بعض المدن الأخرى ، كما أن سليمان نفسه - على الرغم من اضطراره لخوض غمار الحرب مدة أربع سنوات - لم يكن أبداً بالشخص المحب للحرب بل كان على الضد من ذلك ، فعلى الرغم من أنه كان رئيس هذا النفر الوحشي الذي خرب كل الامبراطورية إلا أنه كان رجلاً ملئه الانصاف والدماثة والكرم ، وكان محباً للأدب ، جيد النظم ، قد انتوت نفسه - تجاه المرأة - على الفروسيَّة التي من مظاهرها احترامها لها واصطنانها الرقة حيالها ، وكان يعمل كل ما في جهده لايجاد جو من الهدوء بعد هذه العواصف ، غير أن سوء طالعة أبي إلا أن تستند نفقة الشعب عليه من جراء فظاظة جنده الذين قصرت يده عن أن تناهيم بالعقاب ، لاسيما وأن خصوصهم له كان مرهوناً باطلاق يدهم وفق ما يشتهون ، وكان الأندلسيون يرون فيه رجالاً مغموز الإيمان معذوم الناموس (١) ، وكافراً زنديقاً مغتصباً ، وأنه بلغ العرش على أكتاف البربر ومسيحيي الشمال أعني الجماعتين اللتين يفوز منها الناس ،

وَمَا كَانَ أَشَدَّ غُفْلَتَهُ حِينَ أَنْفَذَ إِلَى الْمَدِنِ الْمُخْتَلِفَةِ الْكُتُبُ يَنْبَئُهَا فِيهَا بِأَنَّهُ
مُعَامِلُهَا بِمَا عَامَلَ بِهِ قَرْطَبَةَ إِنْ لَمْ تَعْتَرِفْ بِهِ (٢) ، فَانْصَبَتِ اللَّعْنَاتُ عَلَيْهِ
مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَقَالَ فِي ذَلِكَ أَحَدُ الشَّعْرَاءِ (٣) :

فَانَّهُ ضَدَ سَلِيمَانَ
وَحْلَ هَذَا كُلَّ شَيْطَانَ
لَهُكَّ سَكَانٌ وَأَوْطَانَ

لَا رَحْمَةَ لِلَّهِ سَلِيمَانَكُمْ
ذَاكِرُ بِهِ غَلَتِ شَيَاطِينُهُمَا
فِي اسْمِهِ سَاحِتُهُ عَلَى أَرْضِنَا

وقال أيضاً :

لَأَغْمَدُهُمَا فِيهِنَّ طَفْيَ وَتَجْبِرَا
فِيدِلَ مَا قَدْ لَاحَ مِنْهُمَا وَغَبْرَا
بِرْغَمِ الْمَعَالِ وَالْعَوَالِ تَبَرِّبَرَا
وَحَاكِمَتْهُمْ لِلسيِّفِ حَكْمًا مُحَرَّرَا
وَاما حَمَامٌ لَا نَرِي فِيهِ مَا نَرِيَهُ

حَلَفَتِ بِمِنْ صَلَى وَصَاصَامَ وَكَبِراً
وَأَبْصَرَ دِينَ اللَّهِ تَحِيَّيَ رَسُومَهُ
قَيْا عَجَباً مِنْ عِيشَمِي مَلِكَ
فَلَوْ أَنْ أَمْرَى بِالْخَيْارِ نَبَذَتْهُمْ
فَاما حَيَاةَ تَسْتَلِذَ بِفَقْدِهِمْ

هذه هي مشاعر الأندلسيين بل الصقالبة أيضاً الذين دأبوا على
الدعاء في الصلاة لهشام الثاني رغم كثرة التاج سليمان ورجائه أيامهم.
بالدعاء له مكانه ، وأكد لهم أنه قاتل منهم بهذا المظاهر من الخصوص لا يتغير
معه المزيد منهم (٤) ، هذا على الرغم من أنهم كانوا غير واثقين منبقاء
هشام حيا ، فقد تناقضت الأشاعات التي كثرت حول مصيره ، فمن قال
أنه مات مقتولاً على يد سليمان ، ومن قال إنه محبوس في قبور مظلم
بالقصر ، وكان الناس أميل لتصديق الشائعة الثانية وترجيحها لأن العادة
جرت بأن مفترض العرش لا بد وأن يظهر لجمهور العاصمة جثمان الذي
تخلى له عن العرش لو أنه مات ، ولم يحدث قط أن أطلع سليمان أحداً
ما على جثة هشام (٥) ، لذلك ظل الصقالبة يحاربون باسم هشام ،
وكان من أظهرهم خيران *

ولما كان خيران هذا مولى للمنصور الذي ولاه أعمال المريدة (٦) فقد
وكل إلى الفرار من قرطبة حين دخلها البربر فمضوا في أثره فاضطر
لقتالهم ، ثم تخلت عنه قواته معنته في الفرار تاركة إيهام في معمان القمال
والموت منه دان فقد أثخته جراحه ، حتى إذا اندملت هذه الجراح ووجده في
نفسه القبرة على المسير عاد إلى قرطبة حيث أكرم وفادته صديق له من
المتضررين ، وزوده ذات الصديق بمبلغ من المال أعاده على العودة
للشرق حيث انضم تحت لوائه كثير من الصقالبة والأندلسيين تمكـ

بهم من الامتياز على المريء بعد أن حاصرها عشرين يوماً . وفي هذه الأثناء وجد حليقا قويا في أحد قادة سليمان . ذلك هو على بن حمود الذي يدعى نسبة إلى النبي [عليه الصلاة والسلام] وكانت أسرته قد أقامت منذ قرنين في إفريقية فتبريرت ، كما كان هو نفسه ضعيف اللسان في العربية . وتولى حكم سبتة وطنجة ، كما حكم أخوه الأكبر القاسم الجزيرة الخضراء فكان على بن حمود شبيه مستقل في ولائه ، لكنه لم يقنع بما هو فيه بل كان يتطلع إلى الخلافة التي لم يجد إليها غير سبيل واحدة آلا وهي محالفته الصقالبة . ففاتح خيران في هذا الأمر وأراد كسبه إلى جانبه بتدمير خرافة عجيبة اذ ادعى أن هشاما الثاني كان يستغل باللامح ووقف على أن علويًا أول اسمه « عين » يعيد ملك الأمويين بعد انفراضه ، وأضاف إلى ذلك قوله انه سمع هشاما يتحدث عنه بعد سقوط قرطبة وبعث بهن سجناء من يقول « ان خاطرني يحدثنى بأن هذا الرجل يقتلنى » ، فان فعل فخذ بشارى » فاستخف الفرج خieran أن تهيا له مثل هذا المساعد وأمن بأن هشاما لا يزال حيا ، وقبل هذه الرواية دون بحث أو تحرك ، ولما كان بن حمود وعده بالرجوع هشام إلى العرش ان عثروا عليه فقد تكفل خieran بالاعتراف بابن حمود ان قام الدليل على موت هشام (٧) .

حين اتفق الطرفان على هذه الشروط عبر على بن حمود المجاز وطلب من عامر بن فتوح (القائفي) حاكم مالة أن يسلمه المدينة ، ولم يلـ كـان عامر مـولـيـ لـمـولـيـ أـمـوـيـ (٨) ، ولـ ماـ كـانـ الـأـمـوـيـ تـقـضـيـ اـتـفـاقـهـ معـ الصـقـالـبـ ولـ ماـ كـانـ يـضـمـرـ الـكـرـاهـيـةـ الشـخـصـيـةـ لـلـبـرـبـرـ لأنـ أحـدـ رـؤـسـائـهـ سـلـبـهـ رـنـدـةـ (٩) فقد أـجـلـيـ طـلـبـ علىـ بنـ حـمـودـ الذـيـ حـلـ بـعـدـ ذـكـرـهـ عـلـىـ (ـالـنـكـبـ)ـ حيثـ انـضـمـ إـلـيـهـ خـيرـانـ بـقـواـتـهـ ، ثـمـ وـاصـلـ الزـحفـ عـلـىـ قـرـطـبـةـ .

لم يقتصر اعتماد على بن حمود على الصقالبة وحلهم بل اعتمد أيضاً على طائفة كبيرة من البربر الذين كانوا على وجه العموم قليل التعلق بسليمان اذ لم ينادوا به خليفة إلا لأن الصدقة البحتة وضعيته في طريقهم في اللحظة التي كانوا أحوج ما يكونون فيها إلى أحد الأدعية ، وكان أشد ما يغضفهم فيه هو لين عريكته وانعدام كفاءته الحربية التي هي ميزان تقديرهم للرجل ، وكانت الحال على الضد من ذلك من ناحية على بن حمود فقد دفعته شجاعته إلى احتراهم إياه فضلاً عن كونه من أبناء جلدتهم ، وانضم إليهم زاوي أقوى زعمائهم وحاكم غرناطة اذ ذاك ، وهو الذي أجلس سليمانا على العرش وكان شديد الكراهية للأمويين عاملاً ، فقد قتل أبوه في معركة بافريقيا خاضها ضد جماعة من أنصار بنى أمية وعلقت رأسه على أسوار قلعة قرطبة حيث ظلت باقية مكانها حتى استولى هو وأتباعه على تلك العاصمة وخربوها ، وكانت هذه جريمة لم يغفرها

أبداً للأمويين (١٠) ، وبذلك انضم زاوي ال على بن حمود الذي رفع علم الحرب ، وأثر مسلكه هذا على بقية البربر الذين أرسلهم سليمان المحاربة منافسه فلم يقاتلوه ، وبرر أحدهم هذا المسلك بقوله : « اذا أردت يا أمير اكتساب العرب فعليك أن تقودنا بنفسك » ، فاطلاعهم حتى اذا صاروا على كتب من معسكر العدو عملت الرشوة عملها فيهم فأركبوا سليمان بقلته وأسلموه إلى خصمه .

وفي يوم الأحد أول يوليو ١٠٦٧ م [٢٢ محرم ٤٠٧ هـ] دخل على وخلفاؤه العاصمة ، وكان أول هم خيران والصقالبة البحث عن هشام الثاني ، وراحت جهودهم في هذا السبيل عيناً ، وكان ذلك من حسن طالع على الذي استقل سليمان بين يدي الوزراء والفقهاء وسأله عما حل بهشام فأجاب سليمان في إيجاز : « لقد مات » فقال على : « فلابن لحدتومه ؟ » فدلهم سليمان على أحد القبور فنبشوه وأخرجوا جثة مولاه ، فما كان من الخادم الذي يؤكدون علمه بوجود هشام حيا في هذه اللحظة إلا أن أكد أنها جثته مدفوعاً إلى ذلك بخوفه من على بن حمود، بل لقد أراد زيادة البرهنة على ذلك فلاحظ ضرساً أسود في قم الميت مؤكداً أنه كان لهشام مثل ذلك ، وأكد شهادته آخرون أرادوا اكتساب رضاه على عليهم أو لعلهم خافوا نعمته عليهم . وهكذا اضطر الصقالبة للاعتراف بموت السلطان الشرعي والأقرار بخلافة على الذي ضرب عنق سليمان وأمر بقتل أخيه وأبيه ، فلما وصلوا إلى الأب قال له ابن حمود : « أهكذا يا شيخ قتلتم هشاما ! » فأجابه الشيخ التقى ابن السبعين الذي كانت العبادة شغله ولم يساهم قط في الأحداث السياسية بقوله : لا والله ما قتلناه ، وإنما لحي يرزق ، فعاد عليه مخافة الجهر بما يفسد عليه خطته، وأمر الجلاّد بضرب عنقه فضربه (١١) . ثم دفنا الجثة التي ذُعموا لهاشام - مرة أخرى - بجميع مظاهر التشريف الموكبة .

فهل حقيقة مات هذا الحاكم ؟

إن روح التحذيب تلقى على هذه الناحية حجايا كثيفاً لا يمكن اختراقه ، ومن المؤكّد أن هشاما لم يظهر بعد ذلك أبداً ، وإن الجثة التي قيل أنها له كانت مزورة .

غير أنه من ناحية أخرى لم يتم الدليل البين هل مات هشام على يد سليمان أم أنه لاقى حتفه في عهده هذا الأمير . كما أن الموالي الأمويين الذين كانوا يعرفونه راجوا يؤكّدون أن الجثة التي أخرجها على بن حمود لم تكن جثة هشام ، ومع أن سليمان نفسه صرّح أمام كبار رجال قرطبة

بموت هشام منذ مدة الا أننا نشك في شهادته ، فلعل عليا مناه بالابقاء على حياته لو أنه صرخ به فما كان من سليمان أبداً سفاك دماء ولم يكن يخطر بباله قط أن يقدم على جريمة أحجم عنها المهدى بالله رغم ضراوته ، كذلك يجب أن نذكر انه كان لا بد لسليمان من أن يعرض جثة هشام على أهل قربة – كما جرت العادة – لو أن هشاما مات في أيامه لا سيما وأن ذلك يزكي صالحه .

وإذا كان الأمويون صادقين فيما ادعوه من أنه كان يستصغر (١٢) شأن القرطبيين حتى انه لم يفكر في عرضها عليهم ، فقد تناسووا أنه كان لا يستهين بالصقالبة بل كان يبذل كل ما في وسعه لحملهم للاعتراف بخلافته ، لذلك كانت أحسن وسيلة تساعده للتغلب على معارضتهم له هي أن يحملهم على الاقتناع بموت هشام .

ثم ان لدينا أخيراً شهادة أبي سليمان العجوز الذى أشهد الله على أن هشاما لا يزال حيا يرزق رغم اصرار ابنه على مخالفته ، أفشل كان لهذا الشقيق الورع أن يكتب فى اللحظة التى هو ماضٍ فيها للاقاء ربه ٤٠٠ اننا تستبعد ذلك .

هذا الى أن جميع الأحوال تحملنا على الظن بصدق ما كان يتحدث به نسوة الحرير وخصبائه من قصص تتضمن كيف أن هشاما تمكّن من التسلل من القصر أيام سليمان ثم اختفى بعد ذلك في قربة حيث أخذ يتكسب كعامل ومن هناك مضى إلى الشرق ٠٠٠ أفشل كان لسليمان يد في هربه بعد أن أقسم له لا يكون سبب ازعاجه .

وهل ظل متصلًا به ؟

وهل كان يدرى مكانه ؟

ان أقوال أبي سليمان تدقع المرء على القاء هذه الأسئلة ، غير أنها لا تستطيع الاحاجة عليها اجابة قاطعة ، وعلى آية حال فليس من المستبعد أن يكون هشام قد سُئِمَ استغلال اسمه في الدعوة إلى الحرب على ألسنة جماعة من ذوى الأطماع لم يدعوا له ظلاً من السلطة فذهب للانزواء في ركن مظلم من آسيا حيث أضى بقية أيامه مطمئن البال مجھولاً من الناس ، ونعم بحياة خالية من الأوجاع والأوصاب والمخاوف .

ومهما يكن الأمر فقد أخذ على بن حمود مقاليد الأمور في يده ، وطن الناس أنهم قادمون على عهد أحسن من سابقه ، وعلى الرغم من أن مؤسس الأسرة الحموية كان نصف بربى فقد مال إلى الأندلسيين ، وأغضى في طرب إلى قصائد شعرائهم التي لم يكن يفهمها فهما تماماً ،

كما أنه لم يجعل بينه وبينهم حجاباً فكان يجلس للاستماع لكل ما يريدون قوله ، وقمع أعمال السلب التي كان البربر يقومون بها ، وأسرف في معاقبتهم على أنفسه جرم يأتونه بسلب ما ليس لهم ، من ذلك مثلاً ما حدث ذات يوم من أنه صادف أحدهم راكباً وأمامه سلة مملوء عنها فاستوقفه وسأله من أين له بهذا العنبر فتردد الرجل لحظة وقال في اضطراب : « أخذته كما يفعل الناس » فدفع رأسه ثمن ما اختلس .

كذلك اتخذ علي بن حمود خطة نبيلة هي أنه رد على القرطبيين كل ما سلبه منهم البربر أثناء الفتنة ، غير أنه لسوء طالع سكان العاصمة انقلب عليهم فجأة نتيجة لطبع خيران .

لقد أخلص له خيران في باديء الأمر فتعقب دعاة الأمويين في ولايته بالحبس والتنكيل (١٣) ، ولو كان قد استمر على معاونته لعلي بن حمود لعاد الهدوء يرفف على البلد ، لكنه أراد أن يمثل الدور الذي مثله المنصور من قبل ، فلما أدرك أن علياً ليس بالرجل الذي يرضى أن يكون دمية في يده كهشام الثاني فقد دبر مشروعًا سعي من ورائه إلى إعادة الأسرة القدิمة كي يحكم باسمها ، وأخذ يبحث عن مدع يستعمله في هذا الغرض ، فلما كان حوالي شهر مارس (١٤) سنة ١٠١٧ م [= شوال/ ذو القعدة سنة ٤٠٧ هـ] (١٥) وجذ هذا الداعي في شخص ابن حميد عبد الرحمن الثالث واسميه أيضاً عبد الرحمن ويسكن بلنسية (١٦)، فوعده كثير من البربر بمد يد المساعدة إليه وكان من بينهم المنذر حاكم سرقسطة وهو من أمرة بنى هاشم فزحف شطر الجنوب مستصحباً معه حليفه ريموند كونت برشلونة ، ولما شعر على كذلك بخيانة القوم الذين كان يتتحمل لهم . ولما تبين أيضًا رغبة أهل العاصمة في رد الخلافة للأمويين رأى نفسه مضطراً لأن يسلط عليهم ما كان يمنعه عنهم حتى الآن وارتدى في أحضان البربر الذين كان يضطهدهم من قبل ، فأطلق لهم العنان فاستباحوا قرطبة كمدينة مغلوبة على أمرها وسار هو بنفسه على هذا المنوال ودفعته حاجته للمال إلى فرض الضرائب الفادحة عليهم وقبض على جماعة كثيرة من أعيانهم ، من بينهم (أبو الحزم) بن جهور أحد أعضاء مجلس المشورة البارزين ولم يطلقهم إلا بعد أن فدوا أنفسهم بمبانٍ طائلة ولم يكتف بما أنزله بهم من المظالم بل أخذ في امتهانهم ، من ذلك أنه في اللحظة التي أطلق فيها سراحهم وجماعهم خدمهم بدوابهم أمر من أخذ الدواب وتركهم ينزلون إلى دورهم راجلين (١٧) .

كذلك لم يحترم علي بن حمود أوقاف المساجد التي أوقفها الآتقاء عليها، واشتري - لتحقيق ذلك بالثمن البخس - ذمة قفيه اسمه عبد الجبار ،

ويهذا أرغم الأوصياء على تسليمه الأوقاف فعم قرطبة الذعر ، وزخرت المدينة برجال الشرطة والجواسيس والوشاة ، وانعدم العدل ، ذلك أن القضاة كانوا أميل إلى جانب الأندلسين حين كان يعذب عليهم ، أما الآن فان تعاقبهم بوطائفهم أدى بهم إلى عدم الاصغاء إلى شكاوى العامة من البربر مهما بلغت هذه الشكايات من الصحة ، وباع آخرون أنفسهم للخلفية حتى ليقول أحد المؤرخين المعاصرلين لهم « صار سطر الناس اشراطا على مسائيرهم » فأفقرت الشوارع من ساكنيها ، ولم يكن يرى في الغالب سوري تعيشاء حامت حولهم الشبهات يقادون إلى السجون ، وأما من نجوا من القبض عليهم « فقد اختفوا في الأقبية ، فإن دغبوا في شراء ما يحتاجون إليه انتظروا دخول الليل وتسللوا به » ٠٠

وأقسام على في لحظة من لحظات غضبه على الأندلسين أن يخرب العاصمة بعد أن يتصيد أهلها ويبعدهم غير أن الموت أجله من يمينه ، ففي ١٠١٧ (= ٤٠٨ هـ) زحف على وادي آتش لتأديب العصابة ، غير أن الأمطار أرغمتة على الارتداد على عقبيه ، وفي شهر إبريل ١٠١٨ م (ذى القعدة ٤٠٨ هـ) علم أن الحلفاء قد بلغوا جيان قاعدة العدة لاستعراضهن جيشهم يوم ١٧ منه (١٨) ليزحف بعد ذلك ، وفي اليوم المحدد طال انتظار الجنود دون أن يطلع عليهم فلما مضى الضباط إلى القصر للاستفسار عن علة غيابه وجدوه مقتولا في الحمام ٠

لقد اقترف هذه الجريمة ثلاثة من صقالية القصر كانوا من قبل في خدمة الأمويين ، ولم يكن واحد من هؤلاء الثلاثة يضمرا الكراهية الشخصية للسلطان بل كانوا موضع عطفه وتقته ، كما أنهم لم يقدموا على جرمهم تحت أغراء خيران أو القرطبيين ، ولما قبض عليهم فيما بعد وأدينوا أصرروا على أنهم قتلوا من تلقاء أنفسهم لم يدفعهم أحد إلى ذلك ، وتجلت للعيان أنهم فتكوا به ليخلصوا البلد من طاغية لم يعد أحد يطبق استبداده ٠

ومهما كانت الحقيقة فقد استبشر أهل العاصمة بقتل على وإن لم يكن معناه القضاء على الحموديين ، فقد ترك من بعده ولدين أكبرهما يحيى حاكم سبتة والقاسم (١٩) متولى أمر أشبيلية ، وحدث أن مالت جماعة لاستخلاف يحيى مكانه ، ورأى آخرون أن الخير في مبايعة القاسم لقربه منهم ، وانتصر الآخرون ، فما انقضت ستة أيام على موت على حتى دخل القاسم العاصمة وبايده الناس ٠

أما خيران (الصقلبي) ومنذر (التجيبي) فقد دعوا جميع الزعماء

الذين يمكنهما الاعتماد عليهم الى اجتماع عقد يوم ٣٠ ابريل (= الأربعاء ١١ ذو الحجة سنة ٤٠٨ هـ) ، وقر المجتمعون – وهم كثيرون وأغلبهم من الفقهاء – أن تكون الخلافة انتخابية وأنروا اختيار عبد الرحمن الرابع ولقب بالمرتضى ، فلما تم ذلك ساروا الى غرناطة فلما بلغوها كتب المرتضى الى زاوي كتابا رقيقا يطلب منه الاعتراف بخلافته ، فلما قرئ الكتاب على زاوي رده بعد أن أمر كاتبه أن يكتب على ظهره (٢٠) « قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبّدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعد ، لكم دينكم ولِي دين » ، فلما وصل الكتاب الى المرتضى وجّه الى زاوي رسالة تفيض بالوعيد جاء فيها « أنا خارج لكم في وجوه من الافرنج والأندلسيين ، فماذا أنت قادر ؟ » ثم ختمها بهذا البيت :

ان كنت هنا فأبشر بخير او لا فاينق بكل شر

فرد عليه زاوي مقتبسا هذه السورة من القرآن الكريم (٢١) « الهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ، لنرون العجيم ، ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » ، فاسنشاط المرتضى غضبا من هذا الرد وصم على محاربته ٠

غير أن خيران والمنذر عرفا أن المرتضى لم يكن بالشخص الذي يريدهانه ، ذلك أنها في الواقع لم يكن يعنيهما في قليل أو كثير حق الأسرة الأموية ، وإنما إذا كانوا يحاربان من أجل أمورا فانما يفعّلان ذلك لقاء أن يترك لهما تدبير الأمور ، وأنف المرتضى تمثيل هذا الدور ولم يكن ليرضى قط أن يكون مسلوب السلطان ، بل لقد فرض رغائبه على قائليه بدلا من الرضوخ لهم ، ومن ثم أضمرها الغدر به فعاهدا زاوي على التخل عن المرتضى حالاً تبدأ المعركة الا أنها لم يفعل ما اتفقا عليه . واستمرت الواقعة عدة أيام ، وأخيرا طلب زاوي من خيران الوفاء بعهده ، فأجابه خieran : « إنما نوافت حتى ترى مقدار حربنا وصبرنا ، ولو أنا كنا معك فأثبتت جمعك لنا وتحزن ننهزم عنه وتخذله في غد » ٠

فلما تنفس صباح اليوم التالي استدبر خيران والمنذر ظهراهما للعدو في ثلة غير ضئيلة من رجالهما فأسقط ذلك الكثرين لاسيما سليمان بن هود قائداً لكتائب النصرانية في جيش المنذر فلم ينج نهج الجبناء بل مضى يرتب جنوده للمعركة فمر المنذر بجواره وصاح به : « النجاة يا ابن الفاعلة ، فلست أقف عليك » ، فأجابه سليمان (بن هود) :

« جشت بها والله صناعه وقضحت أهل الأندلس » ، ثم لم يلبث أن تبع رئيسه حين أيقن باستحالة المقاومة .

لما هجر المرتضى أكثر جنده أخذ يقاتل في شجاعة اليائس المستيم ، وما لبث وقع في أيدي أعدائه ، غير أنه تمكّن من الإفلات منهم والهروب إلى وادي آش خارج حدود غرناطة ، لكنه قتل على يد جماعة من جواسيس خبران كانوا يتربصونه .

وكفر خيران عن تلك الخيانة الوضيعة المستنكرة بفشل شيعته إذ لم يعد الصقالبة في حال تمكّنهم من ضم صفوفهم كجيشه ، وأذعن سادة الأندلس لأعدائهم البربر ، ومع ذلك فقد نعمت قرطبة بالرفاهية التي يمكن الحصول عليها في ظل حكومة أجنبية ، وأوشك عهد الارهاب ان يولى وحل محله عهد كان أقل اضطرابا وأسكن في الفتنة بفضل الحكومة القائمة ، إذ كان القاسم أبلى للسلم والهدوء ولم يزد من آلام القرطبيين باضطهاد جديد ، وأراد تناسي الأشغال القديمة فاستقدم خيران وصالحة ، وولى زهيرا الصقلبي - أمير مرسية - اقطاعات جيان وقلعة رياح وبسياسة وشك الناس في سنيته وقالوا انه شديد التعلق بالذئب الشيمي . ومهما كانت صفة مبادئه فإنه لم يحاول فرضها على أحد أو التكلم عنها ، ولم يغير شيئاً من دولة الاسلام في الأندلس ، ويرجع الفضل إلى اعتداله هذا في استمرار بقاء الأسرة الحموية في الحكم رغم قلة عطف أهل العاصمة عليها . غير أنه كان من المحتمل أن يؤدي مرور الأيام إلى ان يسحب النسيان ذيوله على ما لحق مسادتهم القديمة من التكرايات لو لم تجد ظروف لم تكن لهم يد في دفعها عنهم أحيت الآمال المهاجمة .

لم تكن للقاسم ثقة في البربر فبحث عن أنصاره في غير صفوفهم ، وكان في خدمة البربر جمّع كثيف من السودان فاشتراهم القاسم منهم واستقدم آخرين من إفريقية ، وألف جنده من الفريقيين واحتضن قادتهم بأرفع المناصب (٢٦) مما أسطّل البربر عليه فقام يحيى ابن أخيه واستغل لصالحة تذرّهم منه وكتب لهم كتابا يقول لهم فيه :

« إن عمي أخذ ميراثي من أبي ، ثم أنه قدم في ولايتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيدة السودان ، وأنا أطلب ميراثي وأولئكم مناصبكم وأجعل العبيدة السودان كما هم عند الناس » فوعده البربر بالوقوف إلى جانبه كما هو المنتظر منهم في مثل هذه الحال ، واذ ذاك خادر يحيى المدورة مع جنده وبلغ مائة وكانت تحت حكم أخيه ادريس الذي كان يؤيده في خطته ، وهنا تسلم يحيى رسالة من خيران الصقلبي الذي كان مستعداً على

الدואم لتأييد كل منتصب للعرش ثم لا يلبث أن يقلب له ظهر المجن عقب انتصاره ، وأشار خيران في هذه الرسالة إلى ما أداه لأبيه من قبل وراح يعرض عليه خدماته ، فأشار عليه ادريس برفض هذه اليد قائلاً له : « ان خيران رجل خداع » ، فأجابه يحيى : « نحن منخدعون فيما لا يضرنا » ثم كتب إلى والي مصرية يخبره بأنه قبل عرضه ، وشرع يتسلّم للزحف على قرطبة ، ورأى عمه أن الخير في الفرار ، وفي ليل ١٢/١١ أغسطس م (= ٢٨ ربیع الآخر سنة ٤١٢ھ) فر إلى أشبيلية غير مستصحب معه سوى خمسة فرسان ، وبعد ذلك بشهر واحد دخل ابن أخيه العاصمة ولم تطل مدة حكمه أذ لم يتأخر السودان عن اللحاق بالقاسم ، وحذى حذوهم كثير من القادة الأندلسيين ، فتختلف يحيى أخيراً حوله فوجد أنه قد انصرف عنه كثير من البربر الذين أنفوا من خطروسته فأصبح مرکزه أذ ذاك بالخ طورة حتى لقد كان يخاف أن يقبض عليه بين آونة وأخرى وهو في قصره ، وأذ أراد الاطمئنان على نفسه فقد فر عن قرطبة متسلّماً بالليل ومضى إلى مالة فعاد القاسم بعده ، وفي يوم ١٢ فبراير ١٠٢٣ م (= ١٨ ذى القعدة ٤١٣ھ) صرقت إليه الخلافة مرة أخرى ، غير أن سلطانه كان مضطرباً وقد أخذ في التضاؤل يوماً بعد يوم ، ففي إفريقية قام ادريس حاكم سبتة وانتزع منه مدينة طنجة التي كان القاسم قد عنى بتحصينها وبذل في ذلك جهداً كبيراً ، كما كان بعد العدة للرجوع إليها إذا فشل في التمكّن من الحكم فيما وراء الدولة ، كذلك استولى يحيى في إسبانيا على الجزيرة الخضراء وكانت بها زوجة عمه وأمواله ، ولم يستطع الخليفة الاعتماد في العاصمة ذاتها على غير السودان .

أما القرطبيون الذين لم يكتروا للصراع الناشب بين العم وابن أخيه فقد أغرتهم هذه الظروف على التحرك من جديد لأن فكرة التخلص من البربر كانت مسيطرة على كل النقوش ، وشاء الغير بأن أحد الأمويين موشك على الظهور لاسترداد العرش فتسرب الخوف إلى نفس القاسم من تلك الشائعة ، ولما كان اسم هذا الأموي مجهولاً فقد أمر بالقبض على كل من يعش عليه من الأمويين الذين تفوقوا أذ ذاك في البلاد ودخلوا في آثار الناس .

يهد أن التدابير التي اتخذتها القاسم لم تحل دون اندلاع الثورة أذ أن مظالم البربر أرهقت أهل قرطبة . فامتشقا الحسام يوم ٣١ يوليو ١٠٢٣ (= الأربعاء ٢٤) = جمادى الأولى سنة ٤١٤ھ) ، وجرت معركة حامية الوطيس أمضى الفريقيان بعدهما معاہدة - أو بالأحرى هدنة - فيما بينهما . واتفقا على أن يحترمها الجانبان ، لكنها لم تكن طويلة المدى رغم محاولات القاسم اطالة أمدها باصطدامه بالطف مع الشعب ، فهى يوم

صلاة الجمعة تؤدي «الحرب - الحرب» فرددت جميع التواхи الدعوة وأخرج القرطبيون القاسم ورجاله البربر عن المدينة لا عن الضواحي، فمضى القاسم إلى المغرب وضيق الخناق على العصابة أكثر من خمسين يوماً كانت الحرب خلالها حرباً عنيفة فقل الطعام عند القوم حتى سأله سالوه أن ياذن لهم بمغادرة المدينة بنسائهم وأطفالهم لكنه رفض طلبهم، وحينذاك قام أهل قرطبة بعمل أيام الأساس عليهم أذ خلعوا أحد الأبواب وانقلب جموعهم من المدينة يوم الخميس ٣١ أكتوبر (= ١٣ شعبان ٤١٤ هـ) وحملوا بشدة على عدوهم الذي ركب إلى الفرار وقد اختلت صفوته وارتد القواد إلى مقاطعاتهم، ولجأ القاسم نفسه إلى أشبيلية التي أغلقت أبوابها في وجهه وخلعت طاعتها له، وقد شجعها على ذلك موقف قرطبة فاضطر للخروج إلى «شريش»، لكن يحيى ماضي إليه وحاصره بها وأرغمه على التسلیم وبذلك انتهى دور القاسم السياسي واقتاده يحيى إلى مالقة مكبلاً بالحديد وأقسم ليقتلنه.

غير أن الوساوس أقضت مضجعه فتراجع عن يمينه أذ رأى في نومه آباء يقول له: « أخي أكبر مني ، وكان محسناً إلى في صغرى ومسماً إلى عند أمانتي ... قاله الله فيه » . غير أنه أراد قتلها وهو ثمل إلا أنه كان كلما هم بالفتك به وكل الأمر إلى مشورة نمائئه الذين أفضوا إليه ذات مرة إلا خطر عليه من عمه القاسم طالما هو في الميس ، وبذلك ظل القاسم سجينًا ثلاثة عشر عاماً في قلعة من قلائل مالقة ، بيده أنه في عام ١٠٣٦ م (= ٤٢٧ هـ) علم يحيى أنه يحاول دفع الحامية إلى العصيان فقال: « أو بقى في رأسه حدث بعد هذا العمر » ، ثم أمر بختقه (٢٥) .

حين استرد أهل قرطبة استقلالهم فكرروا في تنظيم الأمور بهسا وترتيبها بارتجاع الأمور إلى العرش دون اللجوء إلى الثورة ، وفي شهر نوفمبر ١٠٢٣ م (شعبان رمضان ٤١٤ هـ) عقدت عدّة اجتماعات وتبردلت الآراء فاقتراح الوزراء على أبناء جلدتهم ثلاثة أشخاص ليختاروا منهم من يحبون ، أولئك هم : سليمان بن عبد الرحمن الرابع الرضا ، وعبد الرحمن آخر المهدي بالله ومحمد بن العراقي وكان الكل على ثقة من اختيار سليمان فوضعوا اسمه في أعلى القائمة وكتب أحمد بن برد الكاتب عهد التولية باسمه .

لكن نفوذ هؤلاء كان أقل مما هو متوقع ففشلوا فشلاً ذريعاً حين فاتهم أن يحسبوا حساب منافسه عبد الرحمن (أخي المهدي بالله) وكان شاباً في الثانية والعشرين من عمره حين أخرجه الحمويون عن العاصمة لكنه تسلل إليها خفية قبل ذلك الاجتماع بزمن قصير ، وانهزم فرصة

هياج القرطبيين على البربر لتكوين جماعة تؤيده في طلب الخلافة ففشل في هذا المشروع . أما الوزراء الذين دبوا الثورة ولم يكونوا ميالين إليه فقد زجوا برجاله في السجن ، وأطبق عليهم فيه حتى تمت البيعة بالانتخاب . فأطلقوا .

كذلك حاول هؤلاء الوزراء القبض على عبد الرحمن نفسه غير أنهم حينما أخذوا يعلون أسماء المرشحين للخلافة رأوا ضرورة ذكر اسمه مخافة اغتصاب الكثيرين من مواطنיהם أن هم تناصوه ، لكن لم يكن يخطر لهم ببال أن يكون هذا الأمير منافسا خطيرا لسليمان ، لذلك كتبوا اسمه قريبا بعض الشيء من السطر الذي كتبوا فيه اسم المنافس الثالث محمد بن العارقين الذي لم تكن له أدنى مكانة في نفوس العامة .

حين وثق الوزراء من عملهم دعوا الخاصة والجند وال العامة للاجتماع في المسجد الجامع يوم أول ديسمبر ١٠٢٣ م [١٥ رمضان سنة ٤١٤ هـ] لاختيار من يريدون ، وفي ذلك اليوم كان سليمان بن المتنبي أول من وافق المسجد مستصريا معه الوزير عبد الله بن مقامس وهو في أبيه حلة ، والسرور باد عليه لнетقه من أن العامة سوف تختاره ، فاستقبله أصحابه أحسن استقبالا وتمسوا منه أن يجلس على مرتبة أكثر ارتفاعا خصصوها له ، ثم ما لبث عبد الرحمن أن دخل المسجد من باب آخر في خلق كبير من الجن وال العامة ، فيما كادت جماعته تعبر عتبة الباب حتى نادوا به بشعار الخلافة ، فنحوت أرجاء المكان بالهتاف العالى .

أما الوزراء الذين لم يكونوا قسط يتوقعون هذا الأمر فقد ريعوا وألجموا ، وصار من المستحيل عليهم الانتظار وسط هذا العشيد فباعوا عبد الرحمن بالخلافة ، واقتدى بهم سليمان الذي كان أكثرهم ذهولا واضطربا ، فأخذه القوم إلى عبد الرحمن الذي قبل يده وجلس إلى جواره .

أما المنافس الثالث محمد بن العارقى فسرعان ما أقسم له يمين الولاء ، واذ ذاك قام الكاتب فمعا اسم سليمان من عهد البيعة ، وأثبتت مكانه اسم عبد الرحمن الخامس الذى تسمى بالمستظر .

الفصل السابع عشر

حب المستقر لحبيبة بنت عمّه سليمان ورفض أمها زواجها منه
شعره • حيازها وأدبها • ابن حزم •

الفصل السابع عشر

واحسة المؤرخ

ربما كان مؤرخ العصر الذي مزقته الفتن الأهلية وعصفت به الأعاصير الهوجاء أحوج ما يكون للابتعاد قليلاً عن مناظر الصراع التي كانت بين الأحزاب والفتنة الاجتماعية والسماء المهراء ، وربما كان هذا المؤرخ أشد الناس احساساً بال الحاجة إلى تهدئة المخاطر والمفاسد بـ شطر مثل أعلى من الهدوء والطهارة والأحلام ، وما نحن ذا نتوقف لحظة يتوجه فيها تفكيرنا نحو قصائد أملاها الحب الطاهر السليم على الشاب عبد الرحمن المستظر ووزيره ابن حزم ، فقد عبقت أشعارهما بعطر الشباب وامتازت بالبساطة والرقابة ، فهي تدخل على النفس بلا استثناء .

لذلك يطيب لنا أن ننصل إلى هذه الأنثام العذبة الصافية وسط تلك الفوضى الشاملة ، ونستمع إلى ترجيع البليل وسط العاصفة الهادرة .

كان عبد الرحمن لا يزال في ميزة صباح حين شغف حباً بحبيبة ابنة عميه سليمان الخليفة لكنه لم يوفق في هواه ، فقد عارضت أمها زواجه بها ، وأفهمته الفارق بين مكانتيهما ، فنظم لذلك تلك الأبيات التي سرت فيها روح الأنفة المجرورة جنباً إلى جنب مع الوله العميق (١) :

وتأبى المعال أن تجيز لها عنده
وهل حسن بالشمس أن تمنع البدر؟
جلالة قدرى أن أكون لها صهراً
وسقت إليها فى الهوى مهجنى مهراً
مخدرة من صيد آبائهما غمراً
فطرت إليها من سراتهم صبراً
يضرك منه أن تكونى له فطراً
وجالبة عنز التصرف رغبتي
يكلفها الأهلون رده جهالة
وماذا على أم الحبيبـة إذ رأت
جعلت لها شرطاً على تعبدى
تعلقتـها من عبدـ شمسـ غـرـيرةـ
حسـامةـ عـشـ العـيشـمـيـنـ رـفـرـفـتـ
لـقدـ طـالـ صـومـ الحـبـ عـنـكـ فـماـ الـذـىـ

هدوا ، وأستسقى لساكنها القطر
لأطفئ من نار الآسي يكمو جمرا
ـ وعيشك — كفأ مد رغبته سترا
بملكي لها وهي التي عظمت فخرا
جرائدها ، حتى ترى جونها شقرا
وأنبهم ذكرا ، وأرفقهم قدرا
وينسى الفتاة الخود عنرتها اليكرا
ولفظ اذا ماشت أسمعك السحرا

وانى لاستشفى بمرى بدار كرم
والصن أحشائى ببرد ترابها
فان تصرفيني يا ابنة العم تصرفى
وانى لأرجو أن أطوق مفترى
وانى لطعان اذا الخيل أقبلت
وانى لأولى الناس من قومها بها
وعندى ما يصبو الحليمة ثيبا
جمال ، وآداب ، وخلق موطن

ونحن نجهل كل شيء عن مشاعر حبيبته ، ولم يسعفنا الكتاب العرب
بشيء عن هذه الناحية ، ولم يتركوا لنا سوى صورة غامضة عن هذه
المسألة الرقيقة التي شاء الخيال أن يلوون جوانبها ، ومع ذلك فيظهر أنها
لم تكن تنكر حب الأمير عبد الرحمن . فقد حدث أن صادفته ذات يوم
فخفضت عينيها أمام نظراته الملتيبة ، واحمررت وجنتها خجلا ، وأنساحتا
اضطربتها أن ترد عليه سلامه ، فأساء عبد الرحمن تفسير هذا الموقف
وعزاه إلى جفائها إيهاد وانصرافها عنه ، ولم يكن ما جرى إلا حياء وعفة ،
وحينذاك أنشد :

ولم يرنى أهلا لرد سلامه
أصاب فؤادي عامدا بسهامه
بطيف خيسال زائر فى منامه
فتى فيك مخلوع عذار لجامه ؟
اذا لم يقم غيرى بحفظ زمامه

سلام على من لم يجد بكلامه
سلام على الرامي الذى كلما رمى
بنفس حبيب لم يجد لحبه
الم تعلمى يا عذبة الاسم انتى
وانى وفي حافظ لازمتى

وليس ثم دليل على أن عبد الرحمن وفق في الاتصال بحبيبته .
والواقع أن سوء التوفيق لازمه في حكمه ، وإن كانت هناك فاتنة غيرها
عطفت عليه وإن لم تبر بوعدها له ، مما تشهد به الأبيات التي وجهها
إليها وفيها يقول :

منذ تولعت بصدى
ولم يسوف بعهدي
على مفرش ورد ؟

طال عمر الليل عندي
يا غيزلا نقض السبود
أنسيت العهد اذ بتنسا

وأجتمعنا في وشاح
وتعانقنا كقصرين
ذهبنا في لازورد (٢)

وكان عبد الرحمن صديق يشبهه كل الشبه استعجبه لنفسه ، ذلك هو على ابن حزم الذي سكن أجداده كورة لبلة وأقاموا على نصريتهم حتى جاء جد أبيه حزم فاعتنق الاسلام ، ودفعه خجله من أصله لمحاولة محو كل أثر له ، فأنكر أسلافه ، وكذلك فعل أبوه أحمد الذي تولى الوزارة أيام العامريين اذ دعى أنه مولى فارسي أطلقه يزيد آخر معاوية بن أبي سفيان (٣) كما كان شديد الاحتقار لدين أجداده ، يستدل على ذلك مما جاء في أحد فصوله عن الأديان (٤) من أن النصارى يقولون بثلاثة ويقولون بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، أحد هم الآب ، والثاني الآبن والثالث الروح القدس ، وأن الآب هو الآبن وانه ليس بالآبن وأن الناسوت هو الله وليس بالله ، وأن المسيح هو الله . ومن فرقهم اليعقوبية وهم مئات الآلوف عدا ، ويقولون ان الله الخالق مات وصلب وقتل ، وأن العالم يبقى ثلاثة أيام بلا مدبر ثم قام من بين الموتى ورجع * .

لم تكن هذه التهكمات تهكمات رجل شاك بل مسلم شديد التمسك بدينه ، وكان ابن حزم من جماعة الظاهيرية التي تتقييد كل التقيد بالنصوص وتعني بتدخل العقل البشري في مشكلات القانون الفقهي كمسألة وجود الشر (٥) *

أما في السياسة فقد كان ابن حزم من أنصار الأمرة الشرعية التي أصبح مولى لها بالنظر إلى أصله المزعوم ، ولم يكن للأمويين مولى أشد منه اخلاصا لهم وتعلقا بهم وغيره عليهم ، وما اُعتلي على بن حمود العرش واستسلم له خيران كبير الصقالبة أدرك ابن حزم أن مستقبله قد ضاع لغير رجعة ، لكنه كان من الفئة القليلة التي لم يطر قلبها شعاعا ، فدأب على تدبير المؤامرات والمداسف رغم ما يحوطه من الأعداء والuboasisis لأنه كان يعتقد - شأن كل متجمس أن التريث هو عين الجبن ، وما وقف خيران على مكانده القاه في السجن بضعة أشهر ليرجع عن حماسته التي لم يعد ما يبررها ثم عاد فنفاه ، فاستعاد ابن حزم بحاكم حسن القصر القريب من اشبيلية ، وبقي هناك حتى ورد الخبر باختيار عبد الرحمن الرابع خليفة في بلنسية ، وحينذاك أبحر ليكون في خدمته واستبسيل في حربه في الواقعة التي غير فيها أصحاب المرتضى به ، واذ ذاك وقع في يد البربر الغاليين وظل في أسرهم ردها طويلا من الزمن (٦) *

وأخيرا جاء الوقت الذي عرف الناس فيه قدر ابن حزم حتى عد أعظم علماء عصره وأنحصب الكتاب الذين أخرجتهم إسبانيا منذ زمن بعيد . أما في اللحظة التي نتكلم عنها فلم يكن الناس يعدونه إلا شاعرا أو أحد لهاميم الشعراء الذين أنجبتهم بلاد الأندلس العربية ، ومع ذلك فقد كان لا يزال في دين الشباب ونضارة الحياة ، إذ لم يكن يكبر الشاب عبد الرحمن إلا بثمانية أعوام ، وكانت لابن حزم هو الآخر قصة غرامه أيضا وهي قصة ساذجة رواها هو نفسه في صدق وصراحة ولفظ مستساغ لا تستطيع حياله إلا أن تنقلها بتصورها حيث يقول : (٧) .

« ألقت في أيام صباى جارية نشأت في دارنا ، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما ، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها . وظهرت بها ونضرها ، عديمة الهمز ، منيعة البذل ، قليلة الكلام ، لا توجه الأراجي نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، وجهها جالب كل القلوب وحالها طارد من أنها ، تزدان في المنع والبخل ، مالا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد في أمرها غير راغبة في اللهو ، على أنها كانت تحسن العود احسانا جيدا . »

« أحببتها حبا مفرطا ، وسعيت عامين أو نحوهما أن تجبيني بكلمة وأسمع من فيها لفظا غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة ، فلعلهني بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخرى من النساء ونساء فتياتنا ، ومن لاث بنا من خدمتنا ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبثن صدرا من النهار ، ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها مقتحمة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن ، فانى لاذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هي فيه أنسا بقربها ، متعرضا للدنو منها ، فما هو الا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة ، فاتعمد أنا القصد إلى الباب الذى صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره ، وكانت قد علمت كلفي بها ، ولم يشعر سائر النساء بما نحن فيه لأنهن كن عددا كثيرا ، واذ كلهن يتنتقلن من باب إلى باب بسبب الأطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها ، وأعلم أن قيافة النساء فيما يميل اليهن أفقد من قبائنه مدلوج الآثار ، ثم نزلن إلى البستان ، فرغب عجائزنَا وكرائتنا إلى سيدتها في سماع غنائها فأمرتها ، فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله ، وإن الشيء يتضاعف حسنة في عين مستحسنها ، ثم اندرعت تغنى بأبيات العباس الأحنف حيث يقول :

انى طربت الى شمس اذا غربت
 شمس ممثلة فى خلق جارية
 ليست من الانس الا فى التصاوير
 فالوجه جوهرة ، والجسم عبرة
 كأنها حين تخطوا على البيض او حد القوارير

فلعمرى لكان المضراب انما يقع على قلبي ، وما نسيت ذلك اليوم
 ولا أنساه الى يوم مفارقتنى الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلت اليه من التمكين
 من رؤيتها وسماع ملامها ، وفي ذلك أقول :

لا تلمها على النفار مع الوصي
 سل ، فما ذاكمو لها بنكير
 هل يكون الهلال غير بعيد
 او يكون الغزال غنير نفوسور ؟
 وقلت ايضا :

منعت جمال وجهك مقتليسا
 أراك نذرت للرحمن صوما
 وقد غنيت للعباس شعرا
 فلوس يلتساك عباس لأضحى
 ولفظك قد ضئنت به عليا
 فلست تكلمين اليوم حيما
 هنيا ذا ، لعباس هنيا
 لفوز قاليا وبكم شجينا

« ثم انتقل الوزير أبي من دورنا الحديثة بالجانب الشرقي من قرطبة
 فى ربع الراحلة الى دورنا القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة بيلات
 مغيث فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدى بالخلافة ،
 وانتقلت أنا بانتقاله ولم تنتقل هى بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك . »

« ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتدا
 أرباب الدولة ، وامتحنا بالاعتقال والتزبيب والاغرام الفادح والاستئثار ،
 وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس ونخصتنا ، الى أن توفي أبي
 الوزير رحمة الله ونحن فى هذه الحال بعد العصر يوم السبت لليلين
 بقيتا من ذى القعدة (٨) عام اثنين وأربعين ، واتصلت بنا تلك الحال
 من الفتنة بعده الى أن كانت عندها جنازة لبعض أهلنا فرأيتها وقد ارتفعت
 الناعية فى المأتم وسط النساء فى جملة البواكي والنوادب ، فلقد أثارت
 وجدا دفيننا ، وحركت ساكنا ، على أنى كنت فى ذلك اليوم مرزاً مصاباً من
 وجوه وما أنت نسيت ، ولكن زاد الشجعاً وتوقدت اللوعة وتأكّد الحزن ،

وتضاعف الاسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامنا ، فلباه مجينا
فقلت :

يسكتي لميت مات . وهو مكرم وللحي أول بالسموم الدوارف
فيما عجبنا من آسف لامرئ توى وما هو للمقتول ظلما يأسف

ثم ضرب الدهر ضرياته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتقلب علينا جند
البربر ، فخرجت عن قربة أول المحرم (٩) سنة أربع وأربعين ، وغابت
عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام أو أكثر ، ثم دخلت قربة
فى شوال (١٠) سنة تسع وأربعين ، فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها
هناك ، وما كدت أميزها حتى قيل لي هذه « فلانة » ، وقد تغير أكثر
محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفينيت تلك البهجة ، وخاص ذلك الماء الذى
كان يرى كالسيف الصقيل ، والمرأة الهندية ، وذيل ذلك النوار الذى كان
البصر يقصد نحوه مبهورا ، ويرتاد فيه متخيرا وينصرف
عنه متخيرا ، فلم يبق الا البعض المتبقى عن الكل ، والخبر
المخمر عن العجيع ، وذلك لقلة اهتمالها لنفسها ، وعدم
الصيانة التى كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا ، ولتبديلاها فى
الخروج فيما لا بد لها منه ، مما كانت تصان وتترفع عنه قبل ذلك وإنما
النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يهتم بها استهدمت ،
ذلك قال من قال : (ان حسن الرجال أصدق صدق ، وأثبت أصل ،
وأعتقد جودة لصبره على ما لو لقى بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير
مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكفن ، وانى لو ثلت
منها أقل وصل ، وأنست لي بعض الانس لخولط طربا ، أو لمت فرحا ،
ولكن هذا النفار الذى صبرنى وسلامى ، وهذا الوجه من أسباب السلو :
صاحبها فى كل المحالين معذور اذا لم يقع ثبت يوجد الوفاء ، ولا عهد
يقضى المحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط تصادق يلام على تضييعه
ونسيانه :

هواك فلست أقرب به غرور وأنت لكل ما يأتي سرير ، (١١)

* * *

لا مشاحة فى أنه من اليسير على المرء أن يتبيّن في هذه القصة
السالفة نفحة الاحساس الرقيق النادر بين الجماعات التي تؤثر في العادة
وصف المحسن التي تجذب الشخص والعيون التي تسبيه ، والبسمة
التي تغريه .

ولا شك أن الحب الذي يتصوره ابن حزم إنما تمتاز به الفتنة
المادية ، وهو حب يعيق بالهوى العف والأناقة المستحبة والتقدير
والحماسة . ولعل ما يدفع المرء إلى الاعجاب به هو ذلك الجمال الهداء

والتواضع ، لكن يجب ألا ننسى أيضاً أن هذا الشاعر التضليل العفاف الذي أجرأ على القول بأنه كان نصرانياً بين شعراً المسلمين لم يكن عريباً خالصاً فهو حفيظ أسباني مسيحي ، لذلك لم تعتد تفكير الجنس الذي خرج منه ولا شعوره ، وعبثاً ما كان يحاوله أولئك الأسبان المستعربون من محاولة إنكار أصولهم ، وسخريتهم بأسلافهم النصارى ، فقد كان في قلب أولئك الأسبان على الدوام شيء خالص من الرقة والروحانية .

الفصل الثاني عشر

تقديم عبد الرحمن صغار الخاصة . مكائد ابن عمران -
تعريفه العامة وهجومهم على قصر عبد الرحمن . ثورتهم على
البربر ، استخلاف محمد المستكفي بن عبد الرحمن . سوء
معاملته للرجال . الثورة في قرطبة . هروب المستكفي
متخفيًا وقتلها بالسم . عرض الخليفة على يحيى بن حمود
وتوقفه في قبولها . القرطبيون يختارون هشاما ويبايعونه .
ضعف شخصيته . استجابة الحكم بن سعيد العائذ . قيامه
بفرض ضرائب جديدة واستعماله القسوة في جمعها .
تقريبه ابن عبد الجبار العتني على أوقاف المساجد . تنمر
العلامة والأشراف . مصرع الحكم بن سعيد وخلع هشام .

الفصل الثامن عشر

اضطراب الأمور الداخلية

لم تكن تنقضي سبعة أسابيع منذ وقع اختيار القرطبيين على عبد الرحمن [بن هشام بن عبد الجبار] ومنذ أن استجوب هذا ابن حزم حتى مات عبد الرحمن فودع الثاني السياسة واللذائذ الدنيوية إلى غير رجعة ، وراح ينشد السلوى ونسيان الماضي في العকوف على القراءة والعزلة والانهماك في الصلاة ، ولعل تجهم الأيام وما صادفه البعض من النفي قد أدى منذ زمن بهم إلى معرفة الرجال معرفة تامة وفهمهم والحكم على الحوادث ، غير أن الخطر كان محدقا بالقوم ، ذلك أن عبد الرحمن لم يقدم إلا صغار الخاصة ولم يتخذ من المشيرين سوى ابن حزم وابن عمه عبد الوهاب بن حزم وأبي عامر بن شهيد ، ورغم ما كان عليه هؤلاء من الكفاءة والتبريز إلا أن حرية أنفكارهم جعلتهم يصطدمون بالجامدين ، أما من يكبرونفهم في السن من الخاصة فكانوا أقرب إلى انتخاب منافسه سليمان الذي استبعدته العامة ، واذ ذاك أخذ هؤلاء الأشراف في تدبير المكائد جهرا لصالح سليمان حتى لقى عبد الرحمن نفسه أخيرا مضطرا للقبض عليهم ، وأيده العقلاء في عمله هذا لأنهم أدركوا آلًا محيسن له عن تلك الخطوة التي أقدم عليها وان تكون قد أغضبت منه جماعة الأشراف ، كما جعل السلطان نفسه هدفا لللوم لابقائه منافسيه الاثنين رهن الحبس ، إذ أنه رغم معاملته اللطيفة لهم إلا أنه حرم عليهم مغادرة القصر ، أضف إلى ذلك أنه لما كانت الثورات والفتنة قد عطلت معظم الأعمال العامة فقد نجم عن ذلك أن تخلف جمهور كبير من العمال العاطلين الذين أصبحوا على أتم أهمية للعمل بمعاولهم في تقويض دعائم ذلك المجتمع القديم ، وعما زاد الطين بلة أن تمكنت هذه الجماعة الهدامة من أن تجد لها رئيسا من الأمويين اسمه محمد وهو الذي كان يؤمل أن يقع عليه الاختيار لحظة أن يجتمع القوم لانتخاب الخليفة ، غير أن الكل تجاهلوه وأنكروه فلم يجر اسمه على لسان أحد منهم ، ولا عجب في ذلك فقد كان محمد هذا رجلا فدما لم يصب حظا من الفهم أو التعليم وإنما همه ملؤ بطنه وارضاه حواسه ، لكنه كان

في عيني نفسه شيئاً غير ذلك ، حتى لقد تسخط حنقاً حين علم بانصراف القوم عن اختياره ، وأنهم صرفوا العرش إلى شاب حدث ، وحينذاك استغل تأثيره على العمال الذين عدوا غلظته صراحة منه ، واتصل بهم اتصالاً وثيقاً ، فكان أدنى خواصه حائلاً اسمه أحمد بن خالد الذي تمكّن محمد بفضل معونته إياه من إغراء الصناع على النهب والتخييب ، وهياهم جميعاً لثورة بائرة .

لم يتوقع القوم في بادئ الأمر أي خطر من تعصب العامة ولم يظنوا أن ينال رذاؤ هذا القبض الأشرف المحبوبين طلما هناك متنافسون كثيرون ولكل منهم أتباعه ، غير أنه لما مات سليمان اتحد الأشراف وال العامة وكان الوسيط بين الطرفين رجل منهم اسمه ابن عمران الذي كان اطلاق سراحه على يد عبد الرحمن الخامس [المستظہر] طيبة منه وغفلة ، هذا على الرغم من معارضته أحد أصدقائه له في ذلك يقوله له : « ان مشي ابن عمران في غير سجنك ياماً يتر من عمرك عاماً » .

والواقع أن ابن عمران كان رجلاً شديداً الخطورة حاول استعماله زعيمه الحرس إلى جانبها ، ولم يجد أدنى عسر في هذا السبيل ، فكره « الدائرة » (١) الخليفية ذلك أنه كان قد حدث قبل ذلك بيومين من هذا الحادث أن جات إلى قرطبة كتبية من البربر تصد العمل تحت أمرة الخليفة الذي قبلها عن طيب خاطر لما أحسه من الخطير المحقق به وطاججه إلى الجندي فأثار ذلك غيرة « الدائرة » الذين هاجمهم ابن عمران فتوجهوا إلى الشعب قائلين : « نحن الذين قهرنا البربر وطردناهم عن قرطبة ، وهذا الرجل يسعى في دهم علينا وتمكينهم من نواصينا » .

★ ★ *

كان الجمهور المتلهف على الثورة في انتظار الاشارة ، فلم يكن من العسير حمله على الاستجابة إلى هذه التحريضات ولم يلبث الرجال أن اقتحموا قصر عبد الرحمن على حين غفلة من صاحبه ومن فيه واستنقذوا الأشراف المحبوبين داخله ، وسرعان ما أدرك الحاكم المكتود ميل الجمهور إلى الفتک به فسأل وزرائه المشورة - وكانتوا هم أشد حرساً على حياتهم - فراحوا يتذمرون المسألة فيما بينهم ، وأذ ذاك طمأنهم الحراس على أنفسهم أنهم تخذلوا عن عبد الرحمن وانقضوا من حوله ، وحينذاك تقلب الآنانية على معظمهم فتسليوا عن خليفتهم وانصرقوا عنه واحداً ثُر آخر ، إلا أنهم سرعان ما أدركوا إلا قيمة لمhood الحراس الذين فتكوا بالكثيرين منهم حين هموا بمساءلة القصر من باب الحمام ، وكان من بين القتل متقلد (٢) المدينة .

امتنع عبد الرحمن جواده وطبع في أن يتمكن من مغادرة القصر من نفس الباب فمنعته الدائرة بتسلية أطراف رماحم إليه وإنما على سبا فارتد على عقبه وتراجعت عن فرسه ودخل الحمام وتجدد من ملابسه كلها إلا من قميصه واستخفى في موقد الحمام .

في هذه الأثناء كان العامة والدائرة يتصلون البربر المنكودين لأنهم الوحش الشارد ويفتلونهم أنني تفوه سوءاً أكانوا في القصر أم في الحمام أم في المسجد ، وتقاسم العراس حريم عبد الرحمن وحملوه إلى بيوتهم .

بذلك انتصر محمد [بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر] وتولى به خليفة في الحجرة التي كان الخليفة المخلوع مختلفاً فيها ، ثم اتجه [محمد] نحو « دار الملك » وجلس على السرير وحوله الدائرة والعامة ، غير أن مركبه كان لا يزال مهدداً بالخطر طالما كان خصمه على قيد الحياة ، لذلك أمر أن يبحث عنه في كل ناحية ، حتى إذا عثروا عليه جاءه به فقتله بيده (٣) يوم ١٨ يناير ١٠٢٤ م .

لقب محمد بالمستكفي وحاول التقرب إلى العامة بتوزيع المال وخلع الألقاب على كل طامع فيها ، غير أن سخط الطبقة الوسطى وجماعة الأشراف على محمد بلغ غايته حينما عهد بالحجابة إلى صديقه الحائك ، ولذلك لم يقدر لعهده أن يدوم طويلاً ، فقد أساء الولاية كما هو مفروض فيه ، ولما كان يعرف أن هناك جماعة تحمل للkick له والتأمر عليه فقد ذج في السجن بالكثير من أقضائه أسرته وأمر بختق أحدهم (٤) مما أدى إلى تسرب قيران السخط عليه بقرطبة ، كما ألقى القبض على كبار رجال دولة الخليفة السابق كابن حزم ، فخاف أبو عامر بن شهيد وكثيرون معه أن يلقوا ما لقيه أصحابهم ابن حزم فغادروا العاصمة ويمموا وجوههم شطر مالقة حيث ذهبوا إلى أميرها يحيى بن حمود وهو نوا عليه القيام بعمل يقضى على الفوضى الضاربة بأجرانها على قرطبة (٥) ، غير أن محاولاتهم في هذا السبيل لم تبق طي الكتمان فقد ذاع القول في قرطبة بأن يحيى يتأهب للنهوض لهاجمة المدينة ومن ثم نشب الفتنة بها في شهر مايو (٦) سنة ١٠٢٥ م ، وفتك الناس بالوزير الحائك ، واستبد النصب بالشعب قلم يكف عن ضربه حتى بردت أوصاله .

ثم مضت العصامة إلى قصر محمد المستكفي فأضرمت به النار ، وحينذاك جاءه الحرس الخليفي وقالوا له : « قد اضطررنا إلى مكافحة عدونا (٧) ونحن خارجون إليه ولا ندري ما يحدث عليك بعدها » . فلما

رأى محمد أن زمام الأمور قد أفلت من يده إلى غير رجعة لم يوجد مناصاً من التلطف في الرد عليهم والانتقاد لهم ثم غادر القصر والمدينة وليس ثياب ذوات المجال وخرج متربما بين امرأتين ، ثم راح ينشد ملحاً له في قرية صغيرة من قرى (٨) الشغر ، ولم يلبث أن مات مسموماً بيد أحد جناته (٩) .

بقيت قرطبة ستة أشهر بلا حاكم يدبر أمورها ، وقام مجلس الملك بادارة حكومتها على خير وجه ، الا أنه ما كان مثل هذا الوضع أن يدوم طويلاً ، بل كان لابد من يوم تؤول فيه الحكومة الى خليفة ما ، لكن لم يكن هذا اليوم قد حان موعده بعد .

ومع أن العهد القديم كان قد زال إلا أنه كان لا بد للعهد الجديد من أن يواجه أدواراً من المحن ، وكانت هناك جماعة من ذوي التفكير الصائب رأت أن الملكية لا تزال الصورة الوحيدة التي يمكن أن تكون عليها الحكومة لاقرار النظام ، لكنهم كانوا في حيرة من يسوقون هذه الملكية ، وهل تبقى للأمويين ؟
واذن فليحاولوا ما أرادوا .

* * *

واختار القوم خير أمير من أمراء البيت الأموي حين ساقوا العرش إلى عبد الرحمن الخامس إلا أنهم أخفقوا في هذه المحاولة.

كان اقرار النظام وارضاء الشعب المضطرب التاثير المستعد في كل لحظة للتمرد والسلب والنهب يقتضى اختيار أمير تكون تحت أمرته قوات أجنبية مما لا يتوفّر للأمويين ، ومن ثم أشار البعض أن يساق العرش إلى يحيى بن حمود الذي لم يكن مكرورها من الجماعة كل الكراهية ، ويغيل علينا أن الأخذ بهذه الفكرة لا يرجع إلى ذوى القاصد السينية كما يذهب إلى ذلك أحد المؤرخين العرب (١٠) ، بل نادى بها شيعة النظام الذين رأوا ألا سبيل للتفاهم سواها ، فأخذوا حينذاك في مفاوضة يحيى وكان مقينا بمالة ، ولم يظهر يحيى لهفة في قبول ما عرضه عليه أهل قربطة بل أبدى عدم الالکتراث ، ذلك أن حذره من تقلب القوم الدائم ومعرفته أنه لم يكن أمامهم من أحد يسألونه هذا السؤال سواه دفاعه لللامامة حيث هو ، واكتفى بأن يرسل إلى قربطة أحد (١١) القواد المغاربة على رأس بعض القوات ، وكان ذلك في نوفمبر (١٢) ١٠٢٥ م

برهنت الأحداث على صدق ما رأه يحيى أذ سرعان ما تألف سكان العاصمة من الاحتلال المغربي لهم واستمعوا بأذان واعية إلى ما يقوله لهم كبيراً صنقاية الشرق : خيران صاحب المزية ومجاهد أمير دانية، وقال هؤلاء الرسل

ان موليهما على استعداد لما يهد الموعنة اليهم اذا كانوا يرغبون في التحرر ، ولم تذهب هذه المهدود بيد ، ففي شهر (١٣) مايو سنة ١٠٢٦ م جهز الأميران رجالهما وزحفا على العاصمة في عسكر غير ، واذ ذاك قام أهل قرطبة بالثورة وخلعوا الحاكم الذي فرضه يحيى عليهم بعد أن قتلوا العدد الكبير من جنده ، حتى اذا فرغا من ذلك فتحوا أبوابهم لخيانة ومجاهد فدخلها ، لكنهما ما لبشا أن تنازعا الأمر فيما بينهما حين أخذنا يتشاركان في اقامة الحكومة ، وخاف خيانة أن يقدر حليفه به فأسرع بالعودة إلى المريمة (١٤) يوم ١٢ يونيو ١٠٢٦ م ، وبقي مجاهد فترة من الوقت بالعاصمة الا أنه غادرها هو الآخر دون أن يعيد إليها السلطة التي صمم رجال مجلس المشورة على ارجاعها عقب خروجه من بينهم ، وهكذا كانت أممهم تجربة محزنة أدركوا منها أنهم كانوا مقدمين على المستحيل .

ذلك أن المجيء بأمير أموي إلى العرش من غير أن تكون تحت أمرته قوات أجنبية ووضعه بين طائفتين لا يمكن التوفيق بينهما معناه الحكم عليه مقدما بالهلاك أما عن طريق ثورة شعبية أو مؤامرة يدبرها ضد الوطنيون من أهل البلد . ومعنى ذلك أن ارجاع الأمويين إلى العرش - لاقامة حكومة ثانية الدعائم - كان محاولة فاشلة ، لكنها كانت في نظر رجال الساعة المسؤولين الوحيدة التي لابد لهم منها .

كان أبو الحزم بن جهور - أبرز أعضاء مجلس الحكم - أشد الناس أخذًا بهذه الفكرة وترويجها لها ، ومن ثم شرع في مشاوراة ولاة الشغور من أنصار الحزب الأموي والصقالبة ، وإن لم يكن ثم ما يربط بينهم أجمعين سوى كراهيتهم الشديدة للبربر .

تشاور القوم وقلبو الموضع طويلا فيما بينهم وانتهى الأمر ببعض هؤلاء السادة إلى الموافقة على ذلك المشروع لاعتقادهم العازم بخروج أزمة الأمور من أيديهم ، واقتصر بعضهم أن يسوقوا العرش إلى هشام أكبر خوة عبد الرحمن المرتضى وكان ينزل اذ ذاك « ألبونت » التي كان قد فر إليها معتقدا بها بعد مصرع أخيه .

ومنذ شهر أبريل (١٥) ١٠٢٧ م أخذ سكان قرطبة في مبايعته ، غير أنه انقضت قرابة ثلاث سنوات قبل أن تذلل من أمامه جميع العقبات ، وفي خلال هذه الفترة كان هشام الثالث الملقب بالمعتد (١٦) الذي دأب على التنقل من بلد إلى آخر لعارضه كثير من الزعماء للفكرة التي أخذ بها أهل قرطبة (١٧) الذين علموا بما هو جار ، وسرعان ما التأم شمل أعضاء « دارة الملك » للاتفاق على الاستعدادات اللازم اتخاذها لاستقبال الأمير

أروع استقبال ، غير أنه تناهى اليهم الخبر (١٨) يوم ١٨ ديسمبر ١٩٢٤م بأن هشاما قد دخل المدينة قبل أن يعودوا العدة لاستقباله ، واد ذاك خف الجندي للقاء وتعالت صيحات الفرح في جميع أرجاء البلد واحتشدت العامة في جميع الشوارع التي سيسير فيها الأمير وتوقعوا عرضاً ملوكياً رائعاً ، غير أن القوم أخفقوا فيما أملوه فقد أقبل هشام على فرس دون حرك الملوك مختصر الخليفة ، ودخل في زي تتحممه العين وتستنكره ، وعليه كسوة رثة لا تتفق أبداً ومرتبة الخلافة مما لا يحرك التفوس ، ومع ذلك فقد راح الناس يهنتونه ويصيغون بالدعاء في وجهه طامعين أن تكون دولة الفوضى قد دالت ، وممنين أنفسهم بحكومة عادلة حازمة .

كان هشام الثالث أضعف من أن يحقق الآمال المعقودة عليه ، ذلك أنه رغم طيبته وسماته إلا أنه كان في الوقت ذاته ضعيفاً متربداً كسولاً ، لا يعنيه غير ملء بطنه ، وقد تبين للأشراف غباده مقدمه عدم توقيفهم في اختيارهم أيامه ، وعقد في دارة الملك اجتماع كبير قدم فيه جميع الموظفين إلى الخليفة الذي لم يالف هذه الاجتماعات ولا تلك الخطب ، فلم يفتح عليه بغير كلمات قلائل حتى لقد أثار في الكلام عنه أحد الوزراء ، أما هو فقد ارتजع عليه ولم يفه بكلمة يطيب بها خاطر الشعراء الذين كانوا ينشدون بين يديه ما أعدوه من قصائد بمناسبة اعتلاء العرش ، بل لقد ظهر عليه أنه لم يفهم شيئاً مما كانوا ينشدونه .

هكذا بدت فاتحة عهد الخليفة كل أمل فيه لاسيما حين استحبب بعد قليل الحكم بن سعيد (اقزاز) الذي كان للمواطن العاملين إلا أنه كان يخترف في بادئ الأمر الحياة بالعاصمة حيث تعرف بهشام ، ذلك لأن الأمراء الأمويين كانوا كثيراً الاختلاط بطبقات المجتمع الدنيا ينشدون منها العونة ، فلما دبت الفتنة انخرط الحكم كجندي وسرعان ما رفعته شجاعته وكفاءته الحربية واكتسب تقدير أصحاب التغور الذين خالما تحت أمرتهم ، فلما بويح هشام بالخلافة راح الحكم يفتش عنه وذكره بصداقته القديمة له وعرف من أين تؤكل الكتف ، ولم يلبث أن سيطر عليه ، فلما صار حاجبه بذلك غاية همه لجعل مائدة مولاه مملوقة على الدوام يأطيب الطعام وأذ الشراب ، وأحاطه بالجواري والغنيمات والراقصات ، ومجمل القول أنه حاول أن يجعل مولاه يتقلب في أطاف البهنية ، ولم يكن هشام الغبي يهمه سوى هذا ، بل لقد أرضاه كل الرضى أن يتخلص من تعبه معالجة الأمور التي تزعجه ، وقررت نفسه أن يكل للحكم بن سعيد تدبير شئون الحكم .

وَجَدَ الْحُكْمُ خَزِينَةَ الدُّولَةِ خَاوِيَةً ، وَرَأَى أَنْ سَدَ النَّفَقَاتِ يَتَطَلَّبُ مِنْهُ تَوْفِيرُ دَخْلٍ أَكْبَرَ وَأَعْظَمَ مَا يَأْذِنُ لَهُ بِهِ الشَّرْعُ ، فَكَيْفَ يَتَأْتِيُ لَهُ تَحْقِيقُ هَذَا الْمَطْلَبُ ؟

كَانَ لَابْدَ مِنْ فَرْضِ ضَرَائِبٍ جَدِيدَةٍ ، غَيْرُ أَنْ ذَلِكَ الْعَمَلُ لَابْدٌ وَأَنْ يَؤْدِي إِلَى ضَيْنَاعِ مَكَانَتِهِ عِنْدَ الشَّعْبِ لِذَلِكَ اضْطَرَرَ الْوَزِيرُ إِلَى اصْطِنَاعِ الْجِيلِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَهُنَّ وَانْ تَكُنْ يَعْيَدَةً عَنِ الشَّرْفِ إِلَّا أَنَّ الْحَاجَةَ فِي الْوَاقِعِ هِيَ الَّتِي حَمَلَتْهُ عَلَيْهَا فَصَادِرُ كُلِّ ثَمَنٍ اكْتَشَفَ أَنَّ أَبْنَاءَ الْمَظْفَرِ قَدْ عَهَدُوا بِهِ إِلَى أَصْدِقَائِيهِمْ ، وَأَرْغَمَ كَبَارَ التَّجَارِ عَلَى شَرَاءِ ذَلِكَ كُلَّهُ بِالشَّمْنِ الْبَاهِظِ ، كَمَا أَلْزَمُهُمْ بِشَرَاءِ الرَّصَاصِ وَالْحَدِيدِ الْمُتَخَلِّفِ مِنَ الْقَصُورِ الْمَلُوكِيَّةِ الَّتِي دَكَتْ أَثْنَاءَ الْفَتَنَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَانَّ هَذِهِ الْأَمْوَالِ الْمُأْخُوذَةِ بِتِلْكَ الْطَّرِيقَةِ لَمْ تَقْفِ بِسَدِ الْحَاجَةِ ، فَاتَّصَلَ بِفَقِيهِ مَرْذُولٍ هُوَ ابْنُ عَبْدِ الْجَبَارِ الَّذِي دَلَّ الْخَلِيفَةَ عَلَيْهَا [بْنُ حَمْودٍ] مِنْ قَبْلِ عَلَى كُلِّ مَا يَمْلِأُ الْخَزِينَةَ وَانْ يَكُنْ ذَلِكَ بِطْرَقَ مَرْذُولَةً .

لَمْ يَعْدَمْ ابْنُ الْجَبَارُ فِي تِلْكَ الْمَرَةِ الْوَسِيْلَةُ لِتَقْدِيمِ مَبَالِغٍ طَائِلَةٍ مِنْ وَقْفِ الْمَسَاجِدِ إِلَى الْحُكْمِ بْنِ سَعِيدٍ ، وَلَمْ يُبَيِّنْ خَبَرُ هَذَا الْعَمَلِ سَراً مَكْتُومًا فَقَدْ أُرْجِفَ بِهِ أَهْلُ قَرْبَطِيَّةِ لِاسْتِيْمَا الْفَقَهَاءِ ، وَكَانَتْ رَوَاتِبُ الْفَقَهَاءِ مِنْ أَعْضَاءِ الْمَحْكَمَةِ قَدْ زَادَتْ قَبْلَ ذَلِكَ فَلَمْ يَرْفَضُوا تِلْكَ الْزِيَادَةَ رَغْمَ يَقِينِهِمْ بِأَنَّهَا جَاءَتْ مِنْ طَلَاقِيْنِ الْضَّرَائِبِ غَيْرِ الشَّرِيعَةِ ، لِذَلِكَ كَانَ مِنَ الْطَّبِيعِيِّ أَنْ يَحْنَقَ الْحُكْمُ عَلَى الْفَقَهَاءِ ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ رَدَهُ عَلَيْهِمْ رَدًا قَاسِيًّا اللَّهَجَةَ وَضَعِيفَهُ أَبُو عَامِرُ بْنُ شَهِيدٍ وَتَلَاهُ عَلَانِيَّةُ فِي الْقَصْرِ أَوْلَأَ ثُمَّ فِي الْجَامِعِ ثَانِيَّةً فِي يُونِيُّو (١٩٤٠) سَنَةَ ١٠٣٠ مَ، فَاغْتَمَ الْفَقَهَاءُ أَشَدَّ الْغَمَةِ وَحَاوَلُوا تَحْرِيكَ الشَّعْبِ وَدَفْعَهُ لِمَشَاطِرِهِمْ غَضِيبِهِمْ ، لَكِنَّهُمْ أَخْفَقُوا فِي مَحاوِلَتِهِمْ هَذِهِ اذْ الظَّاهِرُ أَنَّ الْجَمِهُورَ لَمْ يَرِي فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ مَا يَدْعُوهُ لِلتَّبرِيمِ وَالسَّخْطِ وَضَاعَتْ الْحُكْمَةُ مِنْ جَانِبِهَا نَقْمَتْهَا فَقْتَلَنَ وَزِيرَا إِلَى احْدَى الْمَؤَامِرَاتِ ، وَحَثَّهَا ابْنُ شَهِيدٍ عَلَى اطْاحَةِ الرَّؤُوسِ الْكَبِيرَةِ كَمَا قَالَ فِي قُصْبِيَّةِ لَهُ رَفِيعَهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ ، وَفِيهَا يَنْصَحُهُ أَلَا يَلْقَى سَمْعًا إِلَى أَصْحَابِ الْمَطَاعِمِ هَؤُلَاءِ وَأَنْ يَتَرَكَ لِلسَّانِهِ تَأْدِيَبِهِمْ وَالنَّيْلَ مِنْهُمْ .

رَبِّا كَانَ الْأَمْرُ سَهْلًا هِيَنَا عَلَى الْحُكْمِ بْنِ سَعِيدِ الْحَائِكِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هَنَاكَ مِنْ يَعَارِضُهُ سَوْيَ الْفَقَهَاءِ الَّذِينَ كَانُوا أَذْدَاكَ أَهُونَ مِنْ أَنْ يَبْلُوُا خَاطِرَهُ وَيَشْغُلُوا بِالْهُ ، لِكَنَّهُ كَانَ يَوْاجِهُ أَعْدَاءً أَشَدَّ خَطْرًا وَأَقْوَى شَكِيمَةً وَأَعْنَى بِهِمْ أُولُوكَ الْأَشْرَافِ الَّذِينَ نَاصَبُهُمْ مَعْظَمَهُمُ الْعَلَاءَ ، فَقَدْ كَانَتْ وَضَاعَةً نَشَانَهُ قَدْنَى فِي عَيْوَنِهِمْ لَا يَزُولُ ، فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَيْهِ كَجِنْدِي سَمَا بِهِ جِدَهُ . مَلَتْ بِهِ كَفَائِتُهُ ، بَلْ نَظَرُوا إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ حَائِكٌ وَضَيْعَ لَا يَفْرَقُونَهُ

أبدا عن وزير محمد الثاني على الرغم من الفارق الكبير بين الوزيرين ،
اذ كان أحدهما صانعا أما الآخر فقد قضى الشطر الأكبر من حياته في
المسكرات وفي حاشية أمراء التغور ، وما كانوا قوما لا يأبهون بالأساليب
التي تتخذ ملء الخزينة فقد كان من اليسير عليهم غض النظر عما قد
يعدم اليه أحد رجال طبقتهم من الوسائل المالية التي اضطر الوزير
[القفاز] إليها ، ولكن وضاعة نبعته دفعتهم للتشهير به عند العامة التي
استغلوها لتشاطرهم حقهم الذي حملتهم عليه من فعهم الخاصة .

لم يغضب الحكم في بادئ الأمر منهم ، لذلك لم يحرمهم نصيبيهم من
المشاركة في الحكم بدليل معطاته ابن شهيد وده واتخاذه ايامه موضع
ثقته ، لكنه لما رأى أنهم لم يجربوا نداء الا بالازدراة والاحتقار وأنه
لا يحركهم سوى سوء الطوية والكراء والعداوة فقد تسعير غضبا وراح
ينشر موظفيه بين الرعاع ، وكان هؤلاء الذين استعملهم من استجابوا
لدعوة الأشراف ، ولسنا في حاجة لأن نقول ان الوزير لم يعهد بالوظائف
الا إلى « أغمار من دينهم حتى الكاس ، وتنضيد الآس ، والتفكك بأعراض
الناس ، فإن ضجع مظلوم سخروا منه » .

وكانوا يهدون الحكم بن سعيد متآمرا مسلوب القدرة ، وجنديا لكن
تعوزه الشجاعة ، وفارسا تغلب عليه السذاجة ، وربما أعمتهم الكراهية
عن حقيقته وان يكن الثابت المؤكدة انهم عدوا الى أدناً الأساليب لاسقاط
عدوهم ، ذلك انهم حاولوا أولا تحريك الناس للتمرد عليه قائلين لهم ان
ركود التجارة الذي كان السبب الفعلى للنكبات العامة لا يرجع الا إلى ندامة
الضرائب التي فرضها الوزير على معظم أنواع التجارة ، وأتت هذه
الأقوال أكلها ، فاتفق جماعة من الشعب مع الخاصة على مهاجمة بيت
الوزير الذي أنهى إليه أحد معارقه الخبر قبل أن يقدم المتآمرون على انحصار
ما اتفقا عليه ، فغادر شاره وأقام بقصر الخليفة ، وأسقط الضرائب التي
يت弟兄 الناس منها ، وقرأ على الناس منشورا طويلا قال فيه انه لم يفرض
تلك الضرائب الا لسد حاجيات بيت المال المتزايدة ولكنه لن يعتمد الى ذلك
بعد الآن ، فرکن الناس الى الهدوء ، واذ ذاك عمد الأشراف الى باب آخر
يتحققون به غرضهم ذلك انه لما كان الحكم قليل الثقة في الجنود البلديين
صنائع الخاصة فقد حاول تكوين بعض الفرق البربرية (٣٠) ، مما دفع
الأندلسيين للتتمرد ، وعمد الأشراف الى عمل ما يزيده تسعير السخط
عليه ، فلما عرف ابن سعيد ما يدبرونه ضله سلك السبيل الناجحة
لابقاء الجندي على الطاعة له بأن عاقب رؤوس الفتنة فآخر أعطيياتهم
واذ ذاك حاول الأشراف افساد ذات البين بينه وبين هشام فانهقوا .

لأن تأثير الحكم على السلطان الضعيف كان أشد من تأثيرهم هم عليه ، حتى حرم عليهم دخول القصر ، لم يستثن من ذلك سوى ابن جهور وحده - رئيس المشيخة - فقد احتفظ بشيء من السلطان على الخليفة الذي كان يعبد نفسه رهين فضله إذ يدين له بالجلوس على العرش ، أو بلفظ آخر أنه كان مدينا له بالمكانة الجوفاء التي هو فيها ، لذلك فشلت جميع المحاولات التي بذلها الحكم لصرف ابن جهور عما بيده من الأعمال ، ومع ذلك لم يدخله اليأس بل ذهب على ملاحة الخليفة حتى تمكن في النهاية من التغلب على ترددة ، وشعر ابن جهور بما يدور له ، ولعله أحسن يضعف مركزه فقرر أن يبعد الوزير وال الخليفة مما ليكون الحكم للمشيخة وحدها ، ورحب فملاؤه بمشروعه هذا .

لكن كيف يتأتى لهم أن يجدوا من يناصرهم في هذا العمل .

هذا كانت المشكلة :

لقد كان في المجلس كثيرون من لا يحجبون عن المساهمة في خلع هشام الثالث عن العرش ، لكن يظهر أنه لم يكن هناك غير أعضاء المجلس نعم يفكرون في استبدال الفوضى بالملوكيّة لأن القلوب والأذهان كانت لا تزال متعلقة بالخلافة ، لذلك رأى الأعضاء أن الحكم تتفضّلهم كتمان ما هم بسبيله ، وتطاھروا بأنهم يريدون إبعاد هشام بخلافة غيره ، وأخذنوا يشاوضون - على هذا الأساس - أحد أقارب الخليفة ويدعى أمية [بن عبد الرحمن العراقي] ، وكان شاباً شديد التهور طماعاً قليلاً التبصر ، وأنهمه الأعضاء أنه من اليسير عليه الاستحواذ على العرش إذا بدأوا أن يتزعم الفتنة ، فرحب الأمير الشاب بما عرضوه عليه دون أن يفكر في أنه لن يكون سوى آلة في أيديهم يلقونها جانباً حين يتم لهم ما يريدون تحقيقه ، ولا كان أمية بن عبد الرحمن العراقي مبسوطاً الكف فقد سهل عليه أن يضم إليه الجناد الذين حرمهم الفرزان أعطياتهم .

وفي ديسمبر ١٠٣٠ م (محرم ٤٢٣ هـ) (٢١) كمن هؤلاء الرجال في كمين نصبوه للحكم بن سعيد ثم وتبوا عليه وهو يقاد القصر وطروحو أرضاً وفتکوا به قبل أن يتمكن من تجريد سيفه ، ثم حزوا رقبته وغسلوها في طشت سمك لأن الدم والرجل عفراهما ورفوها على رمح ، وحينذاك مضى أمية فقاد الجموع من العسكر وال العامة الذين انضموا إليه ، بينما اعتلى هشام «المليلة» و معه نساؤه وأربعة من علمائه ، وقد ارتجفت أوصاله حيث سمع الصيحات المروغة تتباوا بها أبناء قصره ، ثم توجه إلى الثوار الذين دخلوا القصر و سالمهم ماذا يريدون منه وهو لم يفعل

شيئاً يذكر ونه عليه ، وعرفهم أن كانت لهم ظلامة فليرفعوها إلى وزيره ، فأجابوه « وأى حاجب نعني ؟ » ثم رفعوا رئيس حاجبه ابن القزاز على سنان ربيع .

بينما كان هشام يحاول تهدئة ثائرة أولئك الرجال السفاكين الذين كانوا لا يجيروننه إلا بالسباب والقذف تقدمت طائفة أخرى إلى مخدع المحريم وتهبّت كل ما وصلت إليه يدها ، وعثروا على قيود جديدة زعموا أن الحكم صبّنها لتصفية الأشراف ، فثار أمينة ثائرة التهاب بالحركة والقول إذ قال لهم : « هذه لكم فاستبقوها عندكم ، وسلقوها العلية وافتکروا بالخبيث » .

وحاول بعضهم الصعود فلم يفلح لشدة ارتفاع العلية ، واستغاث هشام بأهل البلد الذين لم يسامهو في النهيء فلم يفتحه أحد .

اعتقد أمينة أن الوزارة سوف يستغلونه ، فمضى إلى دارة الملك وجلس على أريكة هشام وحوله زعماء الفتنة الذين جلّغ عليهم الوظائف المختلفة ، وأصدر إليهم أوامره كما لو كان هو الخليفة يقيسا ، فقال له أحدهم : « أنا تخاف عليك في هذا اليوم المسموم للقتل لما ترى من انقلاب الناس عليك » .

قال له أمينة : « بايعوني أنتم اليوم واقتلوني غداً » (٤٢) .

لم يكن هذا الشهاب الطموح يدري شيئاً عما يجري في بيته ابن جهور إذ ذاك ، فقد اجتمع منه بدأبة الفتنة رئيس المجلس للتشاور مع رفقاء الذين دعاهم إلى داره وأخنوها بباحثون عما يتخذونه ، فلما تم اتفاقهم فيما بينهم نهذوا إلى القصر في مواليهم وخدمتهم وكلهم شراكى السلاح وصاحوا بهم « لاسب ولا نهك حرمة ، سنخلع هشام وعلينا التبعة » . وسواء أكان حضور هؤلاء الرجال المظام قد أرهب الجمهور أم أنه خاف أن يعمد حرسهم إلى فضه ، أم لم يعده ثم شيء قيم ينهبوه . فقد أخذ النظام يعود بالتدريج ، وأذ ذاك هتف الوزارة بهشام « أن انزل من الالية فانك مخلوع ، ولكننا سنمن عليك بالحياة » ، واستسلم هشام لهم مكرهاً إذ لم يكن في العلية مثونة ، ونزل فقاده الشیوخ هو ونساعه إلى ناحية من الساحة المقابلة للمسجد الجامع فقال لهم أثناء سره : « ليتننى قرب البحر ترمون بي في بنته فيكون أخف لشأنى ، فافعلوا ما شئتم واحفظونى في ولدى وأهلى » .

فَلِمَا كَانَ الْمَسَاءَ دُعِيَ الْوَزَرَاءُ وَعُمَّامَهُ قِرْطَبَهُ إِلَى الْجَامِعِ وَتَشَارُورُهُ
مَا يَصْنَعُونَ، بِهِشَامَ فَقَرَ الرَّأْيَ مِنْهُمْ عَلَى الْمِيَادِرَةِ إِلَى حَبْسِهِ فِي قَلْمَةِ اِنْقُوقَاتِ
عَلَيْهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَوَكَلَ إِلَى جَمَاعَهُ مِنَ الْمُشِیخَةِ حَمْلَ هَذَا الْقَرَارِ إِلَى
أَسِيرِهِمُ الْخَلِيلَةَ .

حِينَ بَلَغَ الشَّیْوخَ الْدَّهْلِیَّزَ طَالَعُوا مُنْظَراً مُحْزَنَاً، أَذْ رَأَوْا هَشَاماً
مُفْرَشَا الْأَرْضَ وَمِنْ حَوْلِهِ نِسَاؤِهِ يَكِنُّ فَسَبَلَاتَ شَعُورِهِنَّ مُتَسْقِوْقَاتِ
الْجَيْوَبِ، وَقَدْ ارْتَسَمَ الْأَسَى وَالشَّجَبِيَّ فِي عَيْنِي هَشَامٍ وَهُوَ يَحْتَضِنُ طَفْلَتَهُ
سَاقِرَا لَهَا بَكْمَهُ مِنْ قَرْ لَيْلَهُ وَكَانَ شَدِيدُ الْحُبُّ لَهَا، وَكَانَ الطَّفْلَةُ
الْمُسْكِيَّةُ أَصْغَرُ مِنَ أَنْ تَدْرِكَ التَّعْطُبَ الْأَلْمَ بِأَبِيهَا فَظَلَّتْ تَنْتَفِضُ بِرَدَا فِي
هَذِهِ الْبَقْعَةِ الْفَاسِدَةِ الْهَوَاهُ الرَّطَمَةِ، أَذْ كَانَتِ الْلَّيْلَةُ شَدِيدَةُ الزَّمْهَرِيرِ وَكَانَتِ
الْطَّفْلَةُ أَنْ تَمُوتُ جَوْعًا أَذْ لَمْ يَفْكِرْ أَحَدٌ فِي اِرْسَالِ شَيْءٍ مِنَ الطَّعَامِ لِتَلْكَ
الْعَائِلَةِ الْمُنْكُودَةِ، وَلَمْ يَمْبَعِثْ ذَلِكَ هُوَ الْأَهْمَالُ أَوْ الْمُبَالَغَةُ فِي النَّكَابَةِ
وَالْقَسْوَةِ .

ثُمَّ تَكَلَّمُ أَحَدُ الشَّیْوخِ فَقَالَ إِنَّهُمْ جَاءُوا إِلَيْهِ لِيَعْلَمُوهُ أَنَّ الْمُشِیخَةَ
وَوَجْهُهُ أَهْلُ الْبَلَدِ الْمُجَتمِعِينَ بِالْمَسْجِدِ قَدْ اِنْقُوقَوا عَلَى.....

فَلَمْ يَدْعُهُ هَشَامٌ يَتَمَّ مَقَالَتَهُ بِلَ قالَ لَهُ « لَيْكَنْ مَا أَرَادُوا ، لَكَنْ
سَأَلُوكُمْ كَسْرَةَ خَبْزِ أَسَدِ بَهَا جَرَعَ هَذِهِ الْطَّفْلَةَ » .

وَهُزِّ الْمَوْقَفُ مُشَاعِرُ الشَّیْوخِ فَلَمْ يَسْتَطِعُوْا أَنْ يَمْسِكُوْا دَمَعَهُمْ
وَجَاؤُوهُ بِالْبَخْزِ ، ثُمَّ تَكَلَّمُ الشَّیْوخُ الَّذِي كَانَ يَدِيرُ دَفَّةَ الْحَدِيثِ قَائِلًا لَهُ :
« لَقَدْ اسْتَقَرَ الرَّأْيُ عَلَى أَنْ تَؤْخَذَ عَنْهُ اِنْبَلَاجُ الصَّبِيجِ إِلَى اَحَدِ
الْقَلَاعِ » .

فَقَالَ هَشَامٌ : « أَلَا سَأَلُوكُمْ سَرَاجًا آنِسَ بِضُوئِهِ مَعَ نِسَائِي؟ » .

ثُمَّ جَاءَ الْغَدَرُ .

وَنَقْلُ هَشَامٍ إِلَى ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ وَأَصْدَرَ الشَّیْوخُ بِيَانًا إِلَى أَهْلِ قِرْطَبَهُ
أَنْبَأُوهُمْ فِيهِ أَنَّ رِسُومَ الْخَلَافَةِ زَالَتْ ، وَأَنَّ زَمَانَ الْأَمْوَارِ قدْ اِنْتَقَلَ إِلَى أَيْدِي
الْمُشِیخَةِ ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْقَصْرِ حِينَ كَانَ أَمْيَةُ الَّذِي كَانَ شَدِيدُ الثَّقَةِ بِعَهْدِهِ
الْوَزَرَاءِ السَّرِيَّةِ ، لَذَلِكَ اسْتَدْعَى وَجْهَهُ الْجَنْدِ لِيَبَايِعُوهُ لَكِنَّ سَرْعَانَ مَا زَالَتِ
الْغَشَاؤَةُ عَنْ عَيْنِيهِ حِينَ أَخَذَ الْوَزَرَاءُ فِي لَوْمِ الْمُوَظَّفِينَ وَالْجَنْدِ عَلَى تَسْرِعِهِمْ
فِي مَبَايِعَةِ مُثْلِ هَذَا الْأَفَاقِ دُونَ أَنْ يَنْتَظِرُوْا قَرَارَ مُشِیخَتِهِمْ ، وَقَالَ
ابْنُ جَهُورٍ :

« ان الشيوخ محوا رسم الخلافة وارتاح الناس لما فعلوه فلا تثيروها
يا عسکر فتنۃ تذهب بالكل ، وهذه نعمتنا عليكم ، وترقبوا المزيد
، كلما ازددتم لنا طاعة » :

ثم التفت الى الحرس وقال لهم : « لا يبقى بقرطبة أحد من بنى أمية
ولا يكتفونهم أحد ، واستنزلوا أمية ذاته وآخر جوہ عما بيده » .



حواشي الكتاب

حواشى الفصل الأول

(١) راجع ابن النديم ٢٨٩/١.

G. Weill *Geschichte der Califen*, t. II, p. 107.

(٢)

(٣) فيما يتعلق بطبك والخرمية راجع ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية.

Browne : *A Literary History of Persia*, Vol. I, Ch. IX.

(٤)

(٥) راجع نص المقريزى الوارد فى :
Journal Asiatique, IIIZ Serie II, p. 134.

(٦) فيما يتعلق بهذه التاحية انظر ما كتبه هوتسمان فى الدائرة.

Browne : Op. Cit., Vol. II, p. 405 seq.

(٧)

(٨) راجع الجوينى فى الجريدة الآسيوية (السنة الرابعة) المجلد الشامن .
من ٣٦٤ - ٣٦٥ .

De Sacy : *Exposé de la Religion des Druzes* (Paris 1836). (٩)
Introd. p. CLXIV.

Ibid., pp. 130-153.

(١٠)

De Sacy : Op. cit., pp. 112, 153-158.

(١١)

(١٢) ماجع ما كتب عن الأثنى عشرية فى الدائرة .

(١٣) أما اسمه الكلمل فهو الحسين بن أحمد بن محمود ، وكان يدعى أيضاً بالمحتسب ،
راجع في ذلك دائرة المعارف الإسلامية والمراجع المذكورة هناك ، وتضييف إلى ما قاله
المؤلف من أن علة تسميته بالمحتسب هي أنه كان محتسباً بالبصرة وفي غيرها من مدن
العراق .

De Sacy : Op. cit., p. CXIX.

(١٤)

(١٥) انظر مقال « الفاطميين » في الدائرة .

(١٦) راجع ابن عذارى : *البيان المغرب* (طبعة نوزى) = ١٩٠/١ . وترجمته
من ٣٦٤ .

(١٧) مثل الخليفة العز عن صحة النسب الذى يربطه بالرسول (صلى الله عليه
وسلم) تأجّاب أرجاء حاسمة بأن استل ميفه من عمده إلى متصله وقال : « هذا حسبي »
لم ملا كثيـه بـدرة من الذـهب ونشرـها على الحـاضـرين وقـال « وهذا نـسـبي » وبـهـذا سـكـتـ كلـ
معـترـضـ ، انـظـرـ :
Journal Asiatique, 3ème. Serie, p. 167.

(١٨) أمر عبد الله بسبب للمصاوبة في الصلوات العامة ولم يستثنن سوى على راتبعة
تغريب .

(١٩) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٩٥/١ ، وترجمته من ، ٤٤٦ .

(٢٠) ابن حوقل : المسالك والمالك (طبعة دى خويا) ليدن ١٨٧٣ ، ٧٤-٧٣/٢ .
وقد نقل المقرى هذه العبارة في نفح الطيب .

(٢١) تاريخ ابن حبيب ، ص ١٦٠ .

(٢٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية .

(٢٣) راجع صاعد الطليطي ، ملقيات الأم (طبعة ترجمة شيشخو) ، بيروت سنة
١٩١٢ ، ص ٦٤ .

(٢٤) راجع العميدى ، مخطوط اكسفورد ، ورقة ٤٧ ١ - ب ، وقد تجم دونزى هذه
النهاية فى : Journal Asiatique 5ème Serie , t. II , p. 93.

ثم قارن هذه المجتمعات المذكورة في النص بما جاء في ابن الحasan : النجوم
الظاهرة (طبعة جينبول) ، ج ٤٢١ - ٤٢٠/١ ، والمسعودي في خراسان ، والمرجع
السابق .

(٢٥) المقرى نفح الطيب ، ١٣٦/١ .

(٢٦) جاء في أمari : المكتبة العربية الصقلية Amari : Bibliot. Ar. Sicula

« كان ابن معمر كلما بفلسفة أبيد قلس ملازمًا للرأسمتها ، وخرج إلى للشرق فرارا
لما اتهم بالزنقة لأكتارة في فلسفة أبيد قلس واشتغل بملحمة أهل الجبل وأصحاب الكلام
والمعزلة ، ثم عاد إلى الأنجلوس ظاهر التمسك والبروع ، وأغتر الناس بظاهره واحتلوا
اليه ثم ظهروا على معتقده ، وقبع منهبه ، فانقضى منه البعض ولازمه بعض ودانوا
بنحلته ، وكان له لسان خلوب يتوصى به إلى مراده ونضيف إلى ما ذكره دونزى في
المن أن ابن معمر كان يعرف بالجلي ، وفي زيادة التعريف به تقول هو أبو عبد الله محمد
أبو عبد الله بن معمر ، وقد درس على جماعة من أئمة العلم في قرطبة ، ثم تفقه على يد
المعزلة وأهل الكلام في المشرق ، ثم تظاهر بالتمكك ويصفه ابن حيان « بالظنين المنطوى
على تحمل السريرية ، الرايبي للفتنة » وذلك في مخطوط له اطلع عليه المرحوم محمد عبد الله
عنان ونقل عنه في كتابه دولت الإسلام في الأنجلوس ، ٤٢٢/٢ . وانظر الحاشية التالية .
(المترجم) .

(٢٧) راجع عن ابن معمر ما كتبه القلطان في تاريخ الحكماء (طبعة ميلر) ،
من ١٦ ، والفتح في المطبع (طبعة القدسية ، ١٢٠/٢) من ٥٨ ، ويوجد هذا
الفصل أيضًا في المقرى : نفح الطيب ، ١٢١/٢ ، وقد ألف الزبيدي كتاباً يधض فيه آراء هذا
القىلسوف ، راجع أيضًا عن ابن معمر : الشبين : بقية المقص من ٧٨ ، ترجمة رقم
١٦٣ ، وأ ابن الفرضي : تاريخ علماء الأنجلوس ، ترجمة رقم ١٢٠٢ ، وقد كتب الأستاذ ميشيل
آثين بلايثيون (مدريد ١٩١٤) رسالة مفصلة عن ابن معمر بعنوان :

Abenmasarrah y escuela, origenes de la filosofia hispano musulmana.

(٢٨) لقد بلغ من مدى فجاجهم أن عبد الرحمن الثالث - كما سبقنا فيما بعد - أطاح
برأس أمير من أسرته لازاته الشيعية .

(٢٩) ابن حوقل : المسالك والمالك ، ٧٦/١ .

(٣٠) جاء في Chronica General, III, p. 324. (م Morales : الموضع في القرن السادس عشر وصف مسهب وتصويري قوى لهذا الوادي ونملة الكهف .

(٣١) راجع المcri : نفح الطيب ، ٩/٢ ، ١٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ .

(٣٢) المcri : شرحه .

(٣٣) هذا هو الأرجح في أصله وإن كانت هناك رواية تصرّفية تزعم أنه نصراً ثني من زعماء أشتربيس وهي رواية ضعيفة ، والصواب أنه زعيم فسلم كان قد ولي بعض الولايات الشمالية (في سبتمانيا) في الأندلس فسعى إلى منهاجه النون التصرّفاني « أويدو » أمير أكويتانيا حتى زوجه أحدي بناته وأسمها « لاميجيا » ومنتسبه من استقراء الأحداث التاريخية أن يقول أن الذي دعى « أويدو » لحالته متواترة هو ما كان من نزاع شديد بين الدوق النصراني وبين شارل مارتل الذي كانت اطماعه تمتد إلى ولاية أكويتانيا . (المترجم)

(٣٤) أما المذكور الأسبان الذين بالغوا كثيراً في أهمية النجاح الذي صانوه بلايزعون كذلك أن متواترة قتل اثناء ارتقاده ، لكن الواقع هو عكس ذلك تماماً ، إذ أن هذا القائد ظل حياً بضع سنوات بعد هزيمته هذه ، ثم مات في شرطانيا ، انظر : Ialdore, e. 53.

وترجمته ، من ٢٨ ، حاشية رقم ٢ .

(٣٥) تكلم أيزيدور (الفصل ٧٦) عن هذه الماجدة الكبرى .

(٣٦) يقول بوزي في Recherches, t. I, p. 126. ما نصه « وكان تزولهم في مقاطعة شنونة ، ولا كانت سفن المسلمين المعدة للسفر موجودة بغير رباط فقد سمع المسلمون هذه السنوات الملاكة بستي رباط » ، راجع أيضاً أخبار مجموعة ، من ٦٢ ، وترجمتها من ٦٧ ، والبيان المغرب ، ٣٩/٢ ، وترجمتها من ٥٧ .

(٣٧) أخبار مجموعة ، من ٦٢ ، وترجمتها من ٦٧ ، وابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٩ - ٢٨/٢ ، وترجمتها من ٥٦ - ٥٧ .

Sebastien : Chronic. (Esp. Sagrada), t. XIII, p. 14

(٣٨)

Dozy : Recherches, t. I, p. 140-141.

(٣٩)

(٤٠) لقد ظلت بعض المدن مثل أشتوترة وقى غير مسكنة حتى بعد سنة ٨٥٠ م .

Dozy : op. cit., t. I, p. 116 et seq.

(٤١)

(٤٢) أما أحمد بن يعقوب الذي كتب حوالي سنة ٨٩٠ م فيقول إن إمارة ماردة (الواقعة على نهر الوادي الباياني) هي حصن على الحدو ، راجع دي خوبه في من ١٦ من النص العربي الوارد في : Specimen Liter. Exhibens descripteionem al Maghreb.

Menachi, Silensis Chronicum (Esp. Sagr.) t. XVII ; Chron. (٤٣)

Albeldense. وكذلك المجد الثاني والعشرين من نفس المجموعة .

Chronic. Albeldense. (E p. Sagr. 1, t. XIII, p. 64. (٤٤)

اما لفظ Castra de Napza الذي يستعمله مؤلف هذه الحوليات فالقصور به حصن القبيلة البربرية نزة التي كانت تسكن المنطقة الواقعة بين تربجلو والوادي الباياني ، راجع ابن حيان ، ورق ٩٩ ب ، ١١٠ .

(٤٥) راجع ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٩٩ ب .

(٤٦) المقتبس ، ورقة ٨٢ ب ، راجع كذلك وصف مسورة الذى ذكره المسعودي فى مروج الذهب (طبعة باربييه دى مينارد) = ٣٦٢/١ ، وقد ورد هذا الوصف فى نفع الطيب ، ٢٢٢/١ ، وترجمته ، فى :

(٤٧) أسهب ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٩٨ ب - ١٠٢ ب ، فى ذكر تفاصيل هذه الحوادث ، راجع أيضاً ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤٤/٢ ، وترجمته من ٢٢١ ، حيث يشير إلى أن أحمد بن معاوية مات فى مستهل ربىع الأول سنة ٢٨٨ هـ ، (= فبراير Sapiro : Chronicon (Esp. Sagr.), t. XIV c. 14. ، راجع أيضاً Chronica de los principes de Asturias y cantabria, Escr. I.)

هذا وتوجد وثيقة أخرى (من سنة ٩٩٢ م) فى :

Espagna Sagrada, t. xix, p. 383.

Charte chez Berganza ; Antiguedades de Espagna, t. I, (٤٩)
p 197, Col. 2.

حواشي الفصل الثاني

(١) كانت هذه القلعة تقع جنوبى ماردة ، وكانت فى هذه الأيام التى يتكلم عنها دوزى مسكنى لبرانس كثامة بقيادة زعيمهم المعروف يابن راشد الذى مات فى محاربته الملك التصرانى ومحاولته دفعه عن الحصن ، وقد تمكن أردونيو الثانى من الاستيلاء على الحصن : الأمر الذى أزعج بقية المسلمين فى ماردة التى يادر صاحبها وهو محمد بن تاجيبه إلى موادعة أردونيو الثانى بما بعث إليه من الهدايا والتحف ، فاكتفى الأمير التصرانى بذلك وعاد إلى بلاده ، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون فى تاريخه . (المترجم)

Chronique du Moine de Silos, c. 44, 45.
(٢)
وابن خلدون ، العبر ، ١٢٨/٤ ، هذا وقد اتبعنا المؤلف الأخير فيما يتعلق بتحديد التاريخ .

(٣) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٨٦/٢ ، ١٨٦ ، وترجمته من ٢٩٤

(٤) البيان المغرب ، ١٧٧/٢ ، ١٧٨ ، وترجمته من ٢٨٣ ، وانظر أيضاً :
Sampiro Chronicon, c. 17 ; Moine de Silos, c. 46, 47.
ويلاحظ أن هذه القلعة كانت من أمنع حصون تلك الناحية .

(٥) راجع ابن عذارى : البيان المغرب / ١٧٧-١٧٨ ، وترجمته ، ٢٨٣ ، والمفصل السابع عشر من حواليات سامبiero ، وكذلك مذكرات كاهن ميلوس ، الفصل ٤٦ ، ٤٧ ، ويضيف الترجم إلى ذلك أنه يلاحظ أن هناك اختلافاً بيناً في تغير هذه المعركة بين المصادر العربية الإسلامية والمصادر التصرانية ، إذ تنكر الأولى أن الجيش المسلم ارتد بقيادة أمرائه سالماً إلى أرضه ، على حين تؤكد الصادر المسيحية أن الهزيمة كانت تامة ، وأن ساحة القتال كانت مقطعة بجثث قتلى المسلمين وأسلحتهم وعتادهم ، وقد بني دوزى على هذه المصادر الأخيرة رأيه ، وإن كان في الوقت ذاته استعمل المراجع الإسلامية وفي مقتطفها البيان المغرب ، لكن ليس من شك في أن الجماعة الإسلامية التي فرت لها للحياة والعودة إلى أرضها كانت من القلة بالمقارنة التي تشير صراحة إلى مدى النكبة ، يدل على هذا ما أورده ، ابن حيان في المقتبس (المخطوط) من قوله في التعليق على هذه الزيارة « وانقلب الكفرة لعنهم الله إلى بلادهم أعزه » ، فكان هذا مما أحبط الناصر لدين الله وحركه مجاهدة أعداء الله . انظر عنان : ٢٩٥/٢ ، حاشية ١ - (المترجم) .

(٦) أما عن هذه البلدة التي كانت تقع إلى الجنوب قليلاً من القرفة المسماة اليوم Alhircemas الرابضة على شاطئه مراكش في الريف فيمكن مراجعة الإدريسي في Description de l'Afrique et l'Epagne, p. 199, 205. وانظر أيضاً البكري : Description de l'Afrique Septentrionale, p. 212-213.

وكتاب الاستیصال ، ترجمة دی فانین ، من ٦٥

(٧) راجع Recherches, t. II, 281. Dozy : نقل عن البكري (شرحه) ، من ٢٤٩/١ وترجمته من ١٧٩ ، وابن خلدون : العبر =

= ٢٨٢/١ وترجمته ١٣٩/٢ ، ويذكر البكري أن هاتين الأميرتين هما ابن المعتصم بن صالح وابن عباس أمة الرحمن وخولة .

(٨) البيان المغرب ، ١٧٩/١ ، وترجمته من ٢٤٩ ، ويزيد على ما قاله دوزي في المتن أن مصزعه كان حين حضر غزوة أبي العباس القائد ، أما يسوس بن اسحق فكان الرجل الذي أشتد أمره في تدمير « سير إليه الأمير عبد الله في سنة ٢٨٢ م = ٨٩٦ م) جنداً جعله الامارة فيهم إلى عمّه هشام بن عبد الرحمن بن الحكم الذي انتصر وإن لم يكن انتصاره حاسماً . (المترجم) .

(٩) قوائمه الكاملة سعيد بن صالح بن سعيد بن ابريم بن متصور .

Description de l'Afrique Septentrionale; p. 219. (١٠) أورد البكري : نص هذه الأبيات ، وكذلك ابن عذاري : البيان المغرب ١٨١/١ وترجمته من ٢٥٢ ، وأبن خلدون : العبر ، ٢٨٤/١ وتفصيف إلى ما ذكره دوزي في المتن أعلاه أن مما جاء في رسالة عبد الله الشيفي قوله :

فإن تستقيموا استقموا لصالحكم وان تعسلوا عنى انتلسكروا قتلا
واعلو بسيقى قاهرًا لمسنيونكم واستطهوا عذرا وامتزوا عدلا
وانظر ما قاله دوزي عن نص الأبيات الواردة في المتن ويرجعها في :

Gottingische Anzeigen, 1858, p. 1091-92.

وكتلك تعليق دنى سلين على ابن خلدون . (المترجم) .

(١١) وهذه هي المدة من أول إلى ثالث ذى الحجة .

(١٢) كان هذا القائد رجلاً من البربر وأسمه أحمد بن العباس من بنى يطوف .

(١٣) نكوت المراجع العربية أنهم كانوا يلقبونه بالبيتم .

(١٤) فيما يتعلق بهذه المحوانات راجع البكري : Description de l'Afrique, p. 94-95.

وابن عذاري : البيان المغرب ١٧٧/١ - ١٨٢ ، وترجمته من ٢٤٧ - ٢٥٥ ، وأبن خلدون : العبر ، ٢٨٢/١ - ٢٨٥ ، وترجمته ١٢٨/٢ فيما بعدها .

(١٥) انظر ما سبق .

(١٦) كان هذا الحليف هو شانجة بن غرسية ملك نفارة حينئذ ، وقد اختلف دوزي بالإشارة إلى مملكة نفارة .

Chrónic. de Moine de Silos; c. 47.

(١٧)

(١٨) لا ترى مكانة الصدق في قول البيان المغرب ، غير أن ابن الفرضي : تاريخ علماء الأنجلوس ، رقم ١٤٥٧ ، والفتح في العقد ، ٢٧٢/٢ ، قد تناولاها في حياة يقيق راجع ثانية في ترجمته للبيان المغرب ، ٢٨٦/٢ ، خاشية رقم ١ .

(١٩) راجع ابن عذاري البيان المغرب ، ١٨١-١٧٩/٢ ، وترجمته من ٢٨٧-٢٨٥ وإنظر أيضاً : Sampiro : Chronicon c. 18.

(٢٠) مكذا في البيان المغرب ، لكنها واردة في دوزي باسم Osma . (المترجم) .

(٢١) مكذا اسمها في البيان وهي في دوزي Alcubilla . (المترجم) .

٢٢) رابع مراصد الطلع •

(٢٢) يشير المؤلف هنا الى ما كان من قيام أهل نكارة هممازية شارمان فضله عن غافتتهم باتفاقه لكن لم تجد محالاتهم هذه المرة ولم تمنع المدينة من السقوط في يد المغير الأفرينجي الذى أعمل يد التخريب والتدمر فيها حتى لا تكون مصدر مضايقه له ، ثم تذهب للرجوع وفي أمره أتى عزيز كره ولذاته ما الحتقه شرمان بابيهم فهاجا مع جماعات أخرى مؤخرته عندما بلغ ناحية تعرف بمفر رونشفال أو يكب شيرزلا ، واقتسم الهجوم الاسلامى بعنصر المباغتة التى لم يكن يتوقعها شارمان ، على أن الرواية النصرانية تتقول أن البشكستش هم الذين قاموا بهذا الهجوم المباغت - . (المترجم) •

(٢٤) يقع هذا الوادى بين استيلا وبانبلونة ، أو على وجه الدقة بين مويس وساليناس دى أور .

(٢٥) متى ذكره المؤلف ما قاله أحد المؤرخين مشيرا الى هذه الظاهرة من الرخص ف يقول « كانت تبدل كل ستة أقزاء بنوهم فلا يوجد من يشتريه » . (المترجم) •

(٢٦) وتلك يوم الخميس ١٢ ربیع الثانی سنة ٢٠٨ ، كما تذكر المراجع الاسلامية . (المترجم) •

(٢٧) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٨٢/٢ - ١٨٩ ، وترجمته من ٢٩١-٢٩٧ ، وابن خلدون : العبر ، ٤/١٢٥ وانظر ايضا ما جاء فى : Sampiro : Chron., c. 19 ; Ragull : Vita Vel Passio Sancti Pelegii (Schott), t. IV, p. 348.

(٢٨) كان الواجب أن تعتبر حملة أردوتى في هذه السنة ذلك لأن ساميرو يقول أن الملك فى عودته إلى سمورة وجد زوجته قد ماتت ، والثابت أن الملكة ماتت فى صيف سنة ٩٢١ م ، انظر فى ذلك Espagna Sagrada, t. XXXVII, p. 269.

Sampiro, Ch. c. 18. (٢٩)

Ibid., c. 19. (٣٠)

(٣١) تكلم ياقوت فى معجمه عن بقيرة فنكر موضعين فى اسبانيا بهذا الاسم ، احدهما متاخم لطليطلة والآخر فى اقليم مرية ، راجع ايضا ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ٢٦/٢ ، انظر فيما بعد حاشية رقم ٢٢ .

(٣٢) أورد شانجه هذا النص فى انعام ممنوح بعد الاستيلاء على بقيرة ، انظر : Espagna Sagrada, t. xxxiii, p. 486.

(٣٣) كان القوامون بالدفاع عن بقيرة جماعة من كبار وجواره بين لب وبنى ذى التون ، وقد وقروا أمرى فى يد عدوهم أردوتى الذى قتلهم ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى بن ذى التون لفاراه من حبسه ، وكان لذلك وقع شديد فى نفس المسلمين تمثل فى لومهم الشديد للناصر . - (المترجم) •

(٣٤) نصيب هذه الشائنة من الصحة ضئيل ، وقد تجحت شرفة قليلون من الآثار فى النجاة ، قارن ما جاء فى ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٩٥/٢ ، وترجمته من ٢٠٦-٢٠٥ بما جاء فى ابن حيان : المقبيس ، ورقة ١٥٥ ت .

(٣٥) فيما يتعلق بهذه الحملة راجع البحث المفصل عنها فى البيان المغرب ، ١٩٦/٢ - ٢١٠ ، وترجمته من ٢٠٧ - ٢١٢ .

(٣٦) كان ذلك في أواخر سنة ٢١١ هـ ، راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ١٦٥ ٢ ،
من ٢٠٧ ، والواقع أنها كانت قبل ٩ أبريل سنة ١٩٤٣ م .

Dozy : *Recherches*, pp. 142-152.

(٣٧)

(٣٨) فيما يتعلق بالجوانب التاريخية والسياسية لهذه المسألة راجع ما كتبه سير
ترماس أرتولد في الدائرة تحت كلمة « خلقة » .

Nicholson : *a Literary History of the Arabs*, p. 204.

(٣٩)

(٤٠) ابن خردانة ، مخطوط أكسفورد ، ورقة رقم ٩٠ .

(٤١) ابن عذاري : البيان المغرب ، من ١٦٢/٢ ، ٢١٢-٢١١ ، وترجمته من
٢٦١ . ٢٢٨-٢٢٣

(٤٢) راجع ما كتبه لييف برونسال في الدائرة تحت مادة « مغراوة » .

(٤٣) في الأصل الفرنسي « الحاكم الإسباني » وقد أثرت بدلًا منها كلمة « عهد الرحمن »
لإيضاح المعنى (المترجم) .

(٤٤) ابن عذاري : البيان المغرب ، ١/٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٢١٠/٢ ، ٢٢٠ ، وترجمته من
٢٨٩ . ٢٩٧ ، ٢٣٩

Espagna Sagrada, t. xxiv, p. 241.

(٤٥)

(٤٦) راجع البيان المغرب ، ٢٢٠/٢ ، وترجمته من ٣٣٩ .

Dozy : op. cit., p. 160.

(٤٧)

Sapiro : *Chronicon*, c. 22.

(٤٨)

(٤٩) البيان المغرب ، ٢٢٢/٢ ، وترجمته من ٣٤٢ .

Sapiro : *Chronicon*, c. 22.

(٤٩)

Dozy : op. cit., pp. 152-156.

(٥١)

(٥٢) ابن خلدون : كتاب العبر ، ١٣/٤ .

(٥٣) يذكر قصي أسرة قوطية الأصل جبت المسيحية وقت الفتح العربي . (المترجم) .

(٥٤) الواقع أن هذه مبالغة من دوزي ، ولعل الذي يبعث على أن يقول هذا القول
هو ما رأه من محاولة محمد بن هاشم التجبي في موادعة النماري ، والحقيقة أن
استقرار تاريخ هذه الأسرة في تلك الحقيقة يفسر اتجاهه ، ذلك أن التجبيين كانوا يتحدثون
عن سياسة الناصر في استنزاله الولاء ، هذا على الرغم من أنه لما مات محمد بن عبد
للرحمن التجبي سنة ٢١٢ هـ ، أقر الناصر ولاده هاشم الذي أظهر المودة للسلطان
ثُمَّ مات هاشم تطلع ولاده محمد للحكم مكانه فتلاً الناصر ثم عاد فائزه ، فبقى
في نفس محمد بن هاشم التجبي شئ ظهر أثره حين تخلف ابن بقية آل بيته عن السير
مع السلطان في خروجه سنة ٢٢٢ ، ما حمل السلطان على التزويث لقتاله ، ثم ما كان بعد
ذلك من موادعة محمد بن هاشم لراميرو ملك ليون . (المترجم) .

(٥٥) راجع ابن خلدون في Dozy, *Recherches*, t. I, p. 221. وانظر أيضاً
الملحق رقم ١٢ بنفس المرجع ، P. xxxii - xxxiii

Ibid., op. cit., loc. cit. (٥٦)

(٥٧) يكاد مطالع هذه الصحفات وهذا الكتاب الذي بعثه الناصر إلى أحمد بن اسحق
يؤكد انه من أمرة وضيعة ، لكن الواقع أنه كان يمت إلى الناصر بصلة القربي ، وإن
كنا لا نعرف مدى هذه القرابة ، فإذا تذكرنا ذلك عرفنا السر فيما يقوله دوزي في المتن
أعلاه من أن أحمد بن اسحق هذا كان يتطلع لولادة العهد ، كما يفسر عدم تسرع الناصر في
قتله إلا حين اتصل بالفاطميين في المغرب ، انظر ابن الأثير ، ١١٥/٨ . - (المترجم) .

(٥٨) نص هذا الخطاب وارد في أخبار مجموعة ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٥٩) وكان خروجه للصيد - المترجم .

(٦٠) أما هذا القائد فهو أحمد بن محمد بن العباس ، وكان يشغل منصب قائد
القوات السلطانية المرابطة قرب سرقسطة ، وكان السلطان قد بعثه لمحاربة نصارى
برشلونة الذين حاولوا غزو البلاد الإسلامية ، وهزهم أحمد بن محمد بن العباس هزيمة مذكرة
أفت عددًا لا يأس به من مقاتليهم ، واستولى على الكثير من عتادهم وسلاحهم ، وذلك
في شوال سنة ٢٢٤ هـ ، أما الكلام الذي يالتنا في تاريخ جمادى الأولى سنة ٢٢٦ هـ حين
منار إلى ملك ليون وحليفه أمية بن اسحق ، فقد أمر الناصر قاتلا آخر هو عبد الحميد
بن بسييل بالانضمام إلى أحمد بن محمد بن العباس . (المترجم) .

(٦١) راجع ابن خلدون في Dozy : *Recherches* t. I, app. II. وانظر أيضاً
المسعودي في مروج الذهب طبعة ياربيعه دي مينارد ، ٧٧/٣ . ولقرى : نفح الطيب
• ٢٨٨/١

(٦٢) كان محمد بن هاشم التجيبي قد راسل السلطان في المصالحة وطلب الأمان ثم
عدم الناصر - على غير انتظار إلى القبض على من أرسلهم ابن هاشم من أخواته وأصحابه
إلى السلطان لتوكييد الموافدة . وحين ذلك تبين لابن هاشم التاجر الذي أصابه وما يتربى
عليه من تقييم أظافره ، فعاود طلب الأمان وكتب الناصر أمانا له ولاخته وأصحابه من
أهل سرقسطة ، واشترط عليه شروطاً إذا وفى بها كتب له السلطان عهداً على مدينة سرقسطة
ويستعمله عليها وتم ذلك كله وفق ارادة السلطان الذي دخل سرقسطة في محرم ٢٢٦ هـ
(= نوفمبر ٩٢٧ م) دخول الظاهر المنصور . (المترجم) .

(٦٣) كانت طوطة ملكة نفارة وارملة شانجة والوصية على ولدها غرسية ، وكان
وفودها على الناصر وهو في قلعة . - (المترجم) .

(٦٤) راجع ابن خلدون في Dozy : *Recherches*, t. I, p. xxxii-xxxiii,
app. xii.

حواشي الفصل الثالث

Vita Johannis Gorziensis (Pertz, Mon. Germ.), c. 816.

(١)

(٢) ابن الإبار : الخطة المسيرة ، من ٩٤ .

(٣) راجع المcri : نفع الطيب ٩٢/١ ، وراجع أيضاً ما كتبه ليفي بروننسال في الدائرة ، مادة « الصقالبة » وما أوردته هناك من المراجع .

(٤) انظر ما كتبه بارتولد في الدائرة ، مادة Slaves وراجع أيضاً ابن حوقل المالك والممالك ٧٥/٢ ، ويطلق مؤرخو قرطبة على أوتو الأول اسم « ملك الصقالبة » ، انظر ابن عذاري : البيان المغرب ٢٢٤/٢ ، وترجمته ضن : ٣٦٢ ، حاشية رقم ٢ ، والمcri : نفع الطيب ، ٧٣٥/١ .

(٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ٧٥/٢ .

Liudprand : Antapadosis, t. VI, c. 8.

(٦)

(٧) راجع ابن حوقل : المسالك والممالك ٧٥/٢ ، والمcri : نفع الطيب ٩٢/١ .
ولازم هذا بما جاء في :

Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, p. 233.

(٨) راجع المcri : نفع الطيب ، ٥٧/٢ ، ٥٧/٣ ، أما الكتاب المشار إليه في المتن فاسم « كتاب الامتناع والبالغة على من انكر مدخل الطقالبة » ، أما مؤلفه الذي أشار إليه ابن الإبار إلى كتاب : تكلفة الصلة رقم ٨١ فقد عاش زمن الخليفة هشام الثاني ، انظر : Pons Boigues : En aya-bio-bibliographico sobre los Historia dores y geografos arabigo espanoles, (Madrid 1898), pp. 114-116.

(٩) المcri : نفع الطيب ، ٢٧٢/١ - ٢٧٣ .

(١٠) أخبار مجموعة ، من ١٥٦ .

(١١) ليس من شك في أن ما انتوت عليه قلوب البعض من الحقد على الناصر لتقريره الصقالبة وعلى رأسهم نجدة بن حسين قد كان له دخل كبير في هذه الهزيمة ويصرح بذلك المؤرخ ابن الخطيب حين يقول « أن طائفة من جند الناصر الذين آثر حسنته على ما هبّ له من المصنوع له ولم تناصحه في الحرب حق التنصّع ، فنجات داخل مصاف القتال وجرت الهزيمة على المسلمين بسببيها ». وما كاد الناصر يصل إلى قرطبة حتى قبض على نحو الثلاثمائة من الفرسان فصلبوا وأمر بالتداء عليهم « هذا جزاء من شر الإسلام وكاد أمره ، وأفضل بمصاف الجهاد » ، وهذا ما يشير إليه دوزي في المتن أعلاه قبل صفحات قلائل في عبارة موجزة ، انظر في ذلك ابن الخطيب ، أعمال الأعلم ، من ٣٧ (طبعة بيروت ، ١٩٥٦) . المترجم .

(١٢) لا أقل من أتنا لن نعود نسمع عنه شيئاً ما .

(١٣) لقد بذل البليطية قصارى جهده للكتابة ، غير أن محمد بن هاشم لم يسترد حريته إلا بعد عامين .

(١٤) فيما يتعلق بوقتى شلسنقة والخندق ، راجع ما كتبه Dozy ; *Recherches*, t. I, pp. 156-70. ولم يرد لهزيمة المسلمين هذه ذكر في حواليات مؤرخى عبد الرحمن ولا في ابن عذارى ، وإذا استثنينا ما كتبه المؤرخون المسيحيون أمثال Sampiro : op. cit., c. 22, 23 ; Liudprand : *Antapodosis*, L. V, c. 2 de l'édition de Pertz, *Annales de Saint Gall*, (in) Pertz : *Monum. Germ.*, t. I, f. 78.

فلا يعرف المرء إلا شيئاً قليلاً من تاريخ أخبار مجموعة ، من ١٥٥ - ١٥٦ ، وأiben خلدين والمسعودى في مروج الذهب ٣٢٢/١ ، ٧٧/٢ ، وقد نقلها عنه المقرى في نفع الطيب ٢٢٨/١ ، أما النصوص العربية البعثرة هنا وهناك فقد جمعها نوزى في المراجع السابق ، انظر نفس المرجع ، ملحق رقم ٤ ، من xxviii-xxix كما أن هناك بعض الروايات العربية المتعلقة بهذه الحملة وهي واردة في الحلقة المسيرة ، من ١٥٠ ، وفي الكامل لأبن آثیر . انظر أيضاً ، *Annales du Maghreb et d'Espagne*, pp. 323-324.

raguج كذلك البكري (مخطوط باريس) رقم ٥٩٠ ، ورقاً ١٥٠ ، وترجمة فانيسان للبيان المغرب ، ٢٤٨/٢ ، حاشية رقم ٢ .

(١٥) عرف هذا باسم Teliare أو Patalium وقد وردت كلمة Placitum على أن البيح الصريح يتعلق بهذا الموضوع وارد في مخطوط لفين fonds Vossius, no 91. أما بوكاس Junta في الإسبانية الحديثة التي هي أقرب ما تكون لكلمة Placitum راجع إلى تحقيق ذلك : Sampiro : op. cit., c. 19.

(١٦)

Bergenza : *Antigüedades de Espagna*, t. I, p. 215. (١٧)

(١٨) اضفنا ما بين الحاسرتين من الترجمة الانجليزية لايضاح المعنى . (المترجم) .

Sampiro, op. cit., c. 23 (١٩)

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٦/٢ ، وترجمته من ٢٤٨ .

(٢١) ابن الأبار : الحلقة المسيرة ، من ١٤٠ .

(٢٢) يقصد المؤلف بذلك أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم . (المترجم) .

(٢٣) انتهى كثير من المؤرخين إلى نتائج خاطئة فيما يتعلق باقامة أبي يزيد الأولي في القيروان ويمكن الاعتماد على ما جاء في البيان المغرب ، ٢٢٤/١ ، ٢٢٦ - ٢٢٦ ، وترجمته من : ٣١٦-٣١٢ ، وذلك نقاً عن ابن سعدون وهو مؤلف معاصر يفرق غيره من المؤلفين في أن كتاباته مطبوعة بطبع النقا أكثر منهم .

(٢٤) فيما يتعلق بالقائم راجع ما كتبه سويرنهaim عنه في الدائرة .

(٢٥) كان ذلك سنة ٩٣٦ م . (المترجم) .

Alkairawan, Histoire de l'Afrique, trad., Pellisier et Remusat, (٢٦)
p. 104.

(٢٧) فيما يتعلّق بابو يزيد وثورته راجع ما كتبه باسبيه في الدياثرة والمساين الواردة
هذا

Sampiro : op. cit., c. 23. (٢٨)

Berganza : Antigüedades de Espagna, t. II, Esc., 329, et (٢٩)
Risco : Historia de Leon (Madrid, 1792), t. I, p. 211.

Bergaza : op. cit. • انظر المراسيم الواردة في المراجع السابق .

(٣١) فقد أعطي على سبيل المثال بستان الكولت إلى نمير كاردين ، انظر مرسوم
٢٢ أغسطس ٩٤٤ في المرجع السابق ، وثيقة رقم ٢٤ .

Cronica Rimada, p. 12 (Wiener Jahrbrüchen) Anzüge — (٣٢)
Blatt du Tome exvii.

Sampiro, op. cit., c. 23. (٣٣)

(٣٤) أهللت النسخة الانجليزية ترجمة هذا السطر وما يليه - (المترجم) .

Sampiro, op. cit., c. 23. (٣٥)

(٣٦) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٢٧-٢٢٦/٢ ، ٢٣٠ ، وترجمته من
من ٢٤٩ ، ٢٥٦ وكان صاحباً لرواية التصر في هذه المعركة مما أحمد بن العباس وتنبه
صاحب طبلطة .

(٣٧) راجع : البيان المغرب ، ٢٢٠-٢٢٩/٢ ، وترجمته من ٢٥٤-٢٥٥ . وقد انتهت
هذه الأعمال في صفر سنة ٣٢٥ (= سبتمبر ٩٤٦) .

Sampiro, op. cit., 24. (٣٨)

(٣٩) فيما يتعلّق بحقيقة تاريخ موت راميرو راجع : Dozy : Recherches, t. I., pp. 170-173.

ويلاحظ أن زوجي في هذا البحث يميل لترجمة الرواية الثالثة بأنه مات في سنة
٩٥١ .

(٤٠) وكذلك اعتماداً على تأييد جنتة الملكة ظوطة - (المترجم) .

(٤١) كانت أم شانجة وزوجة فريديناند شقيقتين .

Sampiro : Chronic. c. 25. (٤٢)

(٤٣) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٢٧-٢٢٦/٢ ، وترجمته من ٢٦٠ .

(٤٤) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٢٦-٢٢٥/٢ ، ويلاحظ أن أحمد بن يعلى هو
قائد هذه الصلات .

Chronicon de Cardéna (Espagna Sagrada), t. XXIII, p. 317. (٤٥)

(٤٦) العبر لابن خلدون ١٤٢/٤

(٤٧) فيما يتعلق بهذا العالم اليهودي راجع :
Graetz : *Les Juifs d'Espagne*, trad., G. Stenne, Paris 1872, p. 75. cf. also
History of the Jews, 1892 ; Vol. II, pp. 220-225.

(٤٨) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٢٧/٢ ، وترجمته من ٣٦٧ ، هذا ويشير
تراءة حسداى بن « سبروط » بدلاً « من شبروط » الواردة في المخطوط ، انظر ابن خلدون :
العبر ، ١٤٢/٤ .

(٤٩) ابن خلدون : نفس المرجع والجزء والصفحة .

Amari : *Storia della Musulmane di Sicilia*, II, pp. 242-248. (٥٠)

Amari : op. cit., II, p. 249-250. (٥١)

(٥٢) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٢٧/٢ ، وترجمته من ٣٦٦ .

(٥٣) يقصد المؤلف بذلك تونس - (المترجم) .

(٥٤) ورد اسم أريونتيو الثالث في المنشورات حتى شهر مارس ٩٥٧ . انظر في ذلك :
Espagna Sagrada, t. XXXIV, p. 268.

على أنه بمقارنة ما جاء فيها بما هو وارد في المويليات العربية يتبع خطأ التاريخ
المتکور في مخطوطات سامبiero حول موت هذا الملك من القول بأنه مات في سنة ٩٥٥ م .

(٥٥) كان عبد الرحمن قد قله أمر طليطلة عام ٩٥٤ م ، انظر ابن الأبار : الملة
السيراء ، ص ١٤٠ ، وأبن عذاري : البيان المغرب ، ٢٢٥/٢ وترجمته من ٣٦٣ .

(٥٦) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٢٧/٢ ، السطر الأخير ، ص ٢٢٨ وترجمته ،
من ٣٦٨ .

حواشي اليمش الرابع

(١) ابن خلدون في : Dozy : Recherches, t. I, p. 97.

(٢) قال ساميرو ما يقرب من هذا القول في معرض حديث عن رامبرو الثاني :

كما كان في الوقت ذاته صهر فريدياند جونثالث - (الترجم)

Luzzato : Notices sur Abu-Jousuf Hasdail ibn Shaprut, p. 24.

(٤) انظر ابن خلدون : العبر ١٤٢/٤

Espagna Sagrada, t. XXXIV, p. 269. (٥)

(٦) يكتب جيشه الملك طربطة ملكة نفارة . (الترجم)

(٧) كما كان في الوقت ذاته صهر فريدياند جونثالث - (الترجم)

(٨) انظر ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٥/١٢ ، وترجمته من : ٣٨٨

(٩) سيدر عليك فيما بعد قبة لقاء أربون الرابع مع الحكم الثاني .

(١٠) ويسعوه في الإسبانية بال Il-malo اي الخبيث او الرديء ، راجع المري : نفع الطيب : ٢٥٧/١ .

(١١) لقد أخطأ ساميرو في تنبيله لمشاء بالاقطاء فيما يتعلق بتاريخ مملكة ليوبن حتى أنه كثيرا ما يقول أن أربون الثالث طلق « أوراك » مكان ذلك على ثورة فريدياند عليه . أما ريسكو Risco - كما جاء في Esp. Sagrada, t. xxxiv, p. 261-263 . فقد اعتمد على ما جاء في الوثائق الدليل على أن « أوراك » ظلت تحت أردونيو الثالث حتى مررت .

Sampiro : c. 26. (١٢)

(١٣) البيان المغرب ، ٢٣٧/٢ ، وترجمته من ٣٦٨-٣٧ .

(١٤) راجع حياة جرمليش حيث يقول :

Judem quendam cui nomen Hasadew, quo neminem unquam prudentiorem se vidisse aut audisse nostri testati sunt; cf. Vita Johannism Gorziensis, c. 12.

(١٥) يلاحظ أن نويți لم يشير إلى المرجع الذي استند منه هذه القصيدة وتتابع في ذلك الاستاذ ليلى بروفسال ، أما الترجمة الإنجليزية فقد اشارت إلى المصادر وذكرت أنه هو : Graetz : History of the Jews Vol. III, D. 232. - (الترجم)

(١٦) المري : نفع الطيب ٢٥٦/١ .

(١٧) هكذا في الأصل الفرنسي ، أما في الترجمة الإنجليزية فهو رأيopro الشالث
والمصحح هو كما جاء في الأصل وما اثبتناه هنا في الترجمة العربية – المترجم .

(١٨) راجع في Sampiro : Chronicon, c. 26.
العربية وقصيدة مناصم بن سرك الواردة في :
Luzzato : Notices sur Abu Jousowf Ha daili Ibn Schaprut, pp. 24, 25,
29-31.

ومعيار ابن خلدون التي يبعث بها دوزي إلى مسيير لوزاتو والتي طبعتها هذا العالم
في كتابه السابق ، من ٤٦-٤٧ ، والتي يراها المقارئ في كتاب :
Dozy : Recherches, t. I, p. 98,

(١٩) لم يشر المؤلف دوزي ولا ليقي بروفنسالي إلى تاريخ هذه الحملة لكننا نثبت هنا
ـ بناء على ما جاء في المصادر العربية – أن هذا الابحار كان يوم أول المحرم سنة ٣٤٧
ـ وإن السفن قصدت مدينة الشيفي « معد بن اسماعيل » – { المترجم } .

(٢٠) راجع ترجمة العبر لابن خلدون ٤٥/٢ ، وابن عذاري البيان المقرب ، ٢٨٧/٢
ـ وترجمته من ٣٦٩ .

Sampiro : Chronicon, c. 26.

(٢١)

Dozy : Recherches, t. I, p. 98. (٢٢)

Esp. Sagrada, t. XXXIV, p. 270. (٢٣)

Sampiro : op. cit., c. 26. (٢٤)

Espagna Sagrada, t. XXXIV, pp. 270-271. (٢٥)

ـ . (٢٦) راجع ابن خلدون : العبر ، ١٤٣/٤ .

Dozy : Recherches, وراجع ابن خلدون في Annales Compostellino, (٢٧)
t. I, p. 98.

Sampiro : Chronicon, c. 26. (٢٨)

ـ . (٢٩) ابن عذاري : البيان المقرب ، ١٦١/٢ ، ٢٢٩ ، ٢٧٠ ، وترجمته من ٢٥٩ .

ـ . (٣٠) الاضافة من الترجمة الإنجليزية ليفساح المعنى . { المترجم } .

ـ . (٣١) ابن عذاري : البيان المقرب ، ٢٤٧/٢ ، وترجمته من ٢٨٢ .

ـ . (٣٢) ابن حوقل ، المسالك والممالك ، ٢/٧٧ .

ـ . (٣٣) ابن حوقل ، نفس المرجع والجزء ، من ٧٦ .

ـ . (٣٤) نفس المؤلف والمرجع ، من ٧٦ ، ٧٨ .

ـ . (٣٥) انظر كتاب حمديا الذي يبعث به إلى الخزندار في : Carmoly : Des Khozars au Xeme siecle, p. 37.

ـ . (٣٦) ابن عذاري : البيان المقرب ، ٢٤٨-٢٤٧/٢ ، وترجمته من ٢٨٣ ، انظر أيضًا

ـ . ابن حوقل : المسالك والممالك ، ٧٦/٢ ، والمقرى : فتح الطيب ١/٣٦٦ ، ٢٧٣ .

ـ . (٣٧) المقرى ، شرحه ، ٢٠٢/١ .

Hroswitha : Passio, s. Pelagii.

(٤٦)

(٤٧) أضفتنا لهذا التاريخ في الترجمة العربية فقد وجيناها مكتوبًا بالقلم الرصاص
بخط الاستاذ تسيبولد في هامش المترى : نفع الطيب : ٢٤٤/١ . في النسخة الموجودة
بمكتبة جامعة القاهرة - (المترجم) .

(٤٨) فيما يتعلق باعمال التتفيف في مدينة الزهراء ، راجع ما جاء في جريدة التيمس
 بتاريخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٠ ، تحت عنوان an arabic Pompeii اما عن صور ولوحات
الكتشاف والدراسة الفنية للنظر عنها :

E. Wikishaw : Hispano-arabic Art at Medina-el-Zahra'a (Burlington Magazine, August 1911).

(٤٩) راجع ابن حوقل : المالك والممالك ٧٧-٧٦/٢ ، وابن عذاري : البيان المثوب ،
٢٤٦-٢٤٧/٢ ، وترجمته من : ٢٨٢-٢٨١ . والمترى : نفع الطيب ، ٢٤٦-٢٤٤/١ ،
واما بعدها ، وانظر ما كتبه ليني بروقتسائل في دائرة المعارف الإسلامية ، تحت كلمة
« الزهراء » .

Vita Ishaunis Gorziensis, c. 136.

(٤١)

حواشي الفصل الخامس

(١) المقري : نفع الطيب ٢٥٤/١ .

(٢) راجع ابن خلدون في : Dozy : Recherches t. I, p. 98.

(٣) Sampiro Chronicon, c. 26.

(٤) راجع ابن خلدون : العبر ، ١٤١/٤ .

(٥) ابن عذاري : البيان المغرب ، ص ٢٥٠/٢ ، وترجمته من ٢٨٨ .

(٦) كان هذا القسم يعرف بدار الناعورة - المترجم .

(٧) ورد في عنان : دولة الاسلام في الاندلس ، ص ٤٥٨ باسم « خيزون » وقال انه قاضى قضاء أهل الذمة في قرطبة - (المترجم) .

(٨) وربت هذه القصة يأكلها في ابن حيان وفي المقري : نفع الطيب ٢٥٢/١-٢٥٢/٢ ، انظر أيضاً ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٥١/٢ وترجمته من ٢٨٨ . وفي هذا المرجع يتبعى على القارئ أن يستبدل عام ٢٥١ الوارد في صفحة ٢٥٠ بعام ٢٥٢ ، وذلك لأن حوادث سنة ٢٥٢ لم تبدأ إلا من صنعة ٢٥١ ، مطر ١٩ ، راجع أيضاً ابن خلدون العبر ، ١٤٥/٤ .

(٩) ابن خلدون : العبر ١٤٥/٤ ، وكذلك : Dozy : Recherches, t. I, p. 98.

(١٠) أما ابن خلدون فيسميه في نفس الجزء والصفحة بابن الميث ، ويسميه المقري بابن الخيزان .

(١١) نعته ابن خلدون : العبر ، ١٤٥/٤ بالكاثوليكي ، وعنته تعرف أن القوم في قرطبة كانوا يسمون المطران بهذا الاسم الذي يطلق على القسيس النسطوري في الشرق ، راجع كتاب البلدان لأحمد بن يعقوب .

(١٢) ويسميه ابن خلدون : العبر ١٤٥/٤ ببعد اه .

(١٣) انظر ابن خلدون ، نفس المرجع والجزء والصفحة .

(١٤) Sampiro : Chronicon, c. 27.

(١٥) الواقع أن الخوف تسرب إلى نفس شانجة من هذا العطف الكبير من جانب الخليفة الحكم على أندونيو الرابع ، وأدرك أن ما تمهد به الحكم للملك النصراني لايد وان تكون له عواقبة الوحشية عليه هو ذاته ، لذلك لم يرد بما من أن يفعل ما فعله أندونيو حتى يقصد عليه خطته أو على الأقل يكتف بمحنة الحكم عن تناحيته ، لذلك يادر لارسال سفاراة من قبله إلى الحكم يجدد ما قطعه على نفسه لأبيه الناصر من تصريحه بعض القلاع ، انظر الحاشية التالية - المترجم .

(١٦) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمته من ٢٨٩ ، وابن خلدون : العبر ، ١٤٥/٤ .

Sampiro : op. cit., c. 26. (١٧)

(١٨) راجع البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمته من ٢٨٩ .

(١٩) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمته من ٢٨٩ ، وابن خلدون : شرحه ١٤٥/٤ .

(٢٠) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٥٧/٢ ، وترجمته من ٣١٨ . هذا يلاحظ أن الحملة التي زحفت على قلهرة كانت بقيادة غالب بن عبد الرحمن وسعيد بن الحكم الجعفري وكانت سنة ٣٥٧ .

Sampiro : op. cit., c. 27. (٢١)

(٢٢) كان من بين ما تام به الكوفة بوريل للتغطيل على حسن نيته تجاه الخليفة انه بعث مع سفاره من رجاله ثلاثة من أسرى المسلمين كانوا لديه - (المترجم) .

ابن خلدون : العبر ، ١٤٦/٤ .

Sampiro : Op. Cit., 27. (٢٤) وقد مات شانحة جوالى نهاية سنة ١٦٦
Risco : Historia de Leon, t. I, p. 212. (٢٥) انظر في ذلك = .

Chron. du Moine de Silos, c. 70. (٢٦)

Dozy : op. cit., II, p. 286-299. (٢٧)

Sampiro : op. cit., c. 28. (٢٨)

ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٥٥/٢ ، وترجمته من : ٣٩٥ .

(٢٩) راجع ابن البار : الحلة السيراء ، من ١٠٢-١٠١ ، والقرى : نفع الطيب ، ٢٥٦/١ ، لما فيما يتعلق بابي الفرج الاصفهاني . فانظر ما كتبه عنه بروكلمان فيدائرة . والمراجع المذكورة هناك .

(٣٠) راجع طبقات الام لصاعد الطليطلى ، من ٦٦٦٤ .

ابن خلدون في المقدمة .

(٣١) راجع البيان المغرب ، ٢١٦/٢ ، وترجمته من : ٣٩٧ .

(٣٢) نفع الطيب ، ١٣٧ .

(٣٣) فيما يتعلق بهذا الحدث المعروف أيضا باسم ابن الاعمر في المتنوى سنة ٢٥٨ . (٢٩٦٨) راجع ما كتبه الغبri في بقية المتنوى . يقع ٧٧١ ، من ١١٨-١١٦ ، وابن القرى : تاريخ علماء الاندلس ، رقم ١٢٨٧ ، جن ٣٤-٣٦٢ ، وابن عذاري : البيان المغرب ٢٧٤/٣ وترجمته ، من ٤٢٩ حاشية رقم ٥ .

- (٢٥) فيما يتعلق بابن على للقلبي راجع ما كتبه عنه محمد بن شنب في الدائرة .
- (٢٦) فيما يتعلق بابن القوطي راجع ما كتبه عنه محمد بن شنب في الدائرة .
- (٢٧) المcri : نفع الطيب ، ٣٦/٩ :
- (٢٨) يعلى بذلك المنصور بن أبي عامر .

حواشي الفصل السادس

(١) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٧٤/٢ ، وترجمته من ٤٦٦ .

(٢) يقصد بالاسفنج : التين - (المترجم) .

(٣) فيما يتعلق بهذه القصة راجع ابن الخطيب : الاهاطة (مخطوط جيانجوس) ورقة ١١٧ ب ، وعبد الواحد المراكشي : العجب : من ١٨ ، ١٩ وترجمته من ٢٢-٢٢ ، وذلك نثلا عن الحميدى في كتابه الأمانى الصادقة .

(٤) سيرى القارئ حين مراجعته النسخة الفرنسية اختلافا بسيطا اقتضاه الوضع الفرنسي ، وقد أثروا في هذه الترجمة العربية إيراد النص كما هو مذكور في المصادر العربية (المترجم)

(٥) ذلك هو القاضى محمد بن بشير بن شراحيل المافرى ، راجع عنه على وجه الخصوص الخشنى : قضاة قرطبة ، من ٥١ وما بعدها .

(٦) هو محمد بن اسحق بن السليم الذى أصبح قاضى قرطبة عام ٩٥٦ (= ١٩٦٧) ، أما فيما يتعلق به فراجع الخشنى : قضاة قرطبة ، من ٢٠٢ .

(٧) أورد هذه القصة أيضا عبد الواحد المراكشي فى كتابه العجب ، من ١٨ ، وترجمته من ٢٢-٢١ ، نثلا عن الحميدى حين كلامه عن ابن حزم ، أما مضيف ابن أبي عامر فاسمها : أبي عبد الله محمد بن اسحق التميمي .

(٨) راجع ابن عبد الله المراكشي (مخطوط باريس ، رقم ٦٨٢) ، ملحق عربى ورقة ١٠٦ .

(٩) وردت بشانه كلمة موجزة فى المجرى : نفع الطيب ، ٩٠٤/١ ، راجع أيضًا ابن الآبار : تكملة الملة ، رقم ١٢٥١ ، من ٤٢٨-٤٢٧ .

(١٠) فيما يتعلق بهذا الشخص راجع ما ورد عنه فى طبقات الأمم لصاعد الاندلسى (طبعة لويس شيفر) من : ٧٨ ، وأبن أبي أصيحة : عيون الآباء فى طبقات الآباء (طبعة بولاق) ، ٤٣/٢ ، ١٢٩٩ ، كذلك الضبي : بنية المتن ، رقم ١٦٤٠ ، من : ٤٨٣ ، والمجرى : نفع الطيب ١١٩/٢ .

(١١) راجع ابن عذاري : البيان ، ٢٧٤-٢٧٢/٢ ، وترجمته من : ٤٣٨-٤٢٤ ، وعبد الواحد المراكشي : العجب ، من : ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٢٧ ، وترجمته من ٢١ ، ٢٢ ، وأبن الآبار : الحلة المسيرة ، من ١٥٢-١٤٨ ، وهذه هي سلسلة نسبه الكامل : أبي عامر محمد بن أبي حفص عبد الله (وأمه بريدة) بن محمد (وأبن بنت يحيى الحاجب) بن عبد الله بن عامر (نديم السلطان) بن أبي عامر محمد بن لوليد بن يزيد بن عبد الله .

- (١٢) راجع آيات محمد بن حسين التبّنى الواردة في ابن عذارى : البيان المقرب
٢٧٢/٢ ، وترجمتها من ٤٢٥ .
- (١٣) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء والمصفحة ، ٢٧٤ ، وترجمتها من ٤٢٦ .
- (١٤) راجع ابن الأبار الحلة للمبيراء ، من ١٥٢ .
- (١٥) المقى : نفع الطيب ، ٢٨٩/١ .
- (١٦) الخشنى : تاريخ قضاة قرطبة ، من ٢٠٧ .
- (١٧) البيان المقرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمتها من ٢٨٩ .
- (١٨) في الترجمة الإنجليزية ٢٢ نهر أيز : (المترجم)
- (١٩) راجع ابن عذارى : البيان المقرب ، ٢٦٧/٢ ، ٢٦٨-٢٦٧ ، وترجمتها من ٤١٥ .
وكل ذلك يوحى باسم « عامر » متقوشاً على سكة ذلك المهد .
- (٢٠) قارن ذلك بما جاء في المقى : نفع الطيب ، ٢٥١/١ .
- (٢١) المقى : نفع الطيب ، ٦١/٢ .
- (٢٢) ابن عذارى : البيان المقرب ، ٢٦٨/٢ ، وترجمتها من ٤١٦-٤١١ ، وكل ذلك
ال المقى : نفع الطيب ، ٦١/٢ .
- (٢٣) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء والمصفحة ، وترجمتها من ٤١٧ .
- (٢٤) ابن عذارى : شرجه ، من ٢٦٩ ، وترجمتها من ٤١٧ .
- (٢٥) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، من ٢٦٩-٢٦٧ ، وترجمتها من ٤١٦-٤١٥ .
- (٢٦) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، من ١١٠ ، ١٧٠ - وترجمتها ، من ٣٠٤ .
- ٢١٤
- (٢٧) نفس المرجع والجزء ، من ٢٧٥ ، وترجمتها من : ٤٢٩ .
- (٢٨) واسمه الكامل هو : محمد بن قاسم بن طمسن ، ويكتفى من البيان المقرب بخط
اللقط الآخرين ، أما القاتقون فقد خبطه بلتعـ الطاءـ والميمـ وتشبيهـ اللامـ المتردحةـ وقد
جاراهـ فيـ هـذـاـ الـخـبـيـطـ يـتـرـجـمـ الـبـيـانـ - (المترجم) .
- (٢٩) أما عن هذه الناحية التي درسها البكري ، من ٤١ ، فيمكن مراجعة البيان
المقرب ، ٤٠٦/٢ ، حاشية رقم ١ .
- (٣٠) كانت هزيمة بن طمسن في ناحية تعرف بقحص مهران . - (المترجم) .
- (٣١) أسعن هذا الحصن جماعة من الأدارسة عام ٩٣١هـ (= ١٩٢٩ م) . أما فيما
يتعلق بحجر النمر وتأسيسه فيمكن مراجعة ما كتبه ابن حوقل : المسالك والمالك ،
٥٦/٢ ، وكذلك الأنطريقي ، Description de l'Afrique, p. 203. ، وكذلك البكري في
Description, pp. 250-257. وانظر ابن خلدون : العبر ، الجزء الأول ، في الملحق .

- (٣٦) ترجمها نوزى في الفرنسية بـ «سخرة النسر» *Roche des Aigles* وتبعد نحو ذلك ستو كم في الترجمة الإنجليزية فجعلها *The Eagles' Rock* - (المترجم) .
- (٣٧) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع بن عذاري : البيان المغرب ، ٢٦٠/٢ ، ٢٦٥/٢ ، ٢٦٩ - ٢٧٨ ، وترجمته من : ٤١٦ - ٤١٨ ، ٤١١ - ٤٠٦ ، وأبن أبي زمع : روض الفرطام ، من ٥٦ - ٥٨ ، وأبن خلدون : العبر / ٢ - ١٤١ ، ١٥٠ - ٢١٦ / ٢٥٠ ، من ترجمته .
- (٣٨) البيان المغرب ، ٢٦٥/٢ - ٢٦٧ ، وترجمته من ٤٢٩ - ٤١١ .
- (٣٩) البيان المغرب ، ٢٦٥/٢ ، وترجمته من ٤١١ .
- (٤٠) البيان المغرب ، ٢٦٩ - ٢٧٦ ، وترجمته من : ٤٢٩ - ٤١٨ .
- (٤١) ابن أبي زمع : روض الفرطام ، من ٥٨ ، وأبن خلدون : العبر ، ١٥٢ من الترجمة .
- (٤٢) راجع بن عذاري : البيان المغرب ، ٢٦٥/٢ ، وترجمته من ٤١٢ ، وأبن خلدون : العبر / ٢ - ١٥٢ ، ٢١٦ / ٣ .
- (٤٣) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٦٥/٢ ، وترجمته من ٤١١ ، وقارن ذلك بما جاء في ابن خلدون : العبر ، ٣ / ٢٦٦ .
- (٤٤) وربت كلمة «الأحومون» في الترجمة الإنجليزية - (المترجم) .
- (٤٥) للبيان المغرب ، ٢٦٦/٢ ، وترجمته من ٤١٢ .
- (٤٦) ابن عذاري : نفس المرجع والجزء ، من : ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، وترجمته من ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ .
- (٤٧) المقري : نفع الطيب ، ٥٩/٢ .
- (٤٨) يسييه ابن عذاري بالجعفرى ، أما «جهنم باسم أطلقه الحكم على «صبيح» .. انظر في ذلك البيان المغرب ، ٢٦٩/٢ ، وترجمته من : ٤١٨ ، ولهذا السبب سمى هذا العبد الطلاق بالجعفرى ، أو «الجعفري» ، هذا ويلاحظ أن الخلافاً - في بنداد - كانوا يحبون أن يطلقوا أسماء الرجال على مصائرهم .
- (٤٩) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٦٦ - ٢٦٥/٢ ، وترجمته من ٤١٢ .
- (٥٠) ابن عذاري : نفس المرجع والجزء ، من ٢٤٦ ، وترجمته من : ٢٨٥ . ويلاحظ أنه في صفحة ٢٦٩ من الأصل العربي من البيان (من ٤١٨ من الترجمة) وربت كلمة «رمضان» بدلاً من صفر ، وهذا خطأ .
- (٥١) للبيان المغرب ، ٢٦٨/٢ ، وترجمته من : ٤١٦ .

حواشي الفصل السابع

(١) ويعرف في المراجع العربية بالنظمى .

(٢) هذا النص الذي أورده المؤلف مأخوذ من البيان المغرب ٢/٢٧٦-٢٧٧ - (المترجم)

(٣) راجع فيما يتعلّق بترجمته ما كتبه دوزي في كتابه :
Notices sur quelques manuscrits arabes, 1851, p. 141-147.

والمراجع الواردة في الحواشى هناك . (المترجم)

(٤) تفسيراً وتأكيداً لما أوردته دوزي في المتن أعلاه ننقل ما جاء في ابن عذاري ،
شهر ٢/٢٧٧ : « وقد عزما على رد الأمر للمغير بن الناصر أخي مولаем الحكم خشية من
انتقامه على أبيه هشام الصغر بيته وأنكار الناس لتنقيمه ، على أن يقر ابن أخيه
هشاما على العهد بعده ، فيمنان على المغير بسوق الخلافة إليه وبقيا مولاهما بارتقاب
كين ولده ، ويكون الملك في أيديهما بحاله » (المترجم)

(٥) ليس هناك من المراجع ما يشير إلى آخرة الدم بين فاتق وجولدر ، لكن جرت العادة
بإطلاق هذا اللفظ على الخصيّان ، انظر عبارة ابن الطيب الواردة في :
Dozy : Recherches, I, p. 37.

وانظر أيضاً الترجمة الفرنسية للبيان المغرب ، ٤٢٢/٤ ، حاشية رقم ١

(٦) هذا ما جاء في ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢/٢٧٧ حيث أشار إلى أنه قال :
« هل أنا لا أتبع لكما وانتما صاحبها القصر ومدبرها الأمر » ، والظاهر أن جل اعتماد دوزي
كان على ابن عذاري وحده في هذه الناحية .

(٧) في الأصل الفرنسي « وابن اخته » ، ولكن ابن الأبار في الطبعة السيرية ،
من ١٤٢ يذكر أنه « أخيه » .

(٨) ابن الأبار : نفس المرجع ، من ١٤٨ - ١٥٣ .

(٩) نفس المؤلف والمراجع ، من : ١٥٤ - ١٥٥ .

(١٠) هذه العبارة كلها مأخوذة من ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٧٩/٢ ، ويلاحظ
أن دوزي قد أورد هذه العبارة في شكل خطابين على لسان المغير ، وكذلك فعلت الترجمة
الإنجليزية ، أما المجرى : نفع الطيب ، ٦٠٩٢ فنراه لم يوجد في هذا الصدد سوى هذه
الجملة « أنا منعم مطيع !! » . (المترجم)

(١١) إضافة إلى ما يقوله دوزي في المتن وتأكيداً لها المعنى نسوق ما ذكره المجرى
في نفع الطيب ، ٢٧٩/٢ ، في هذا الصدد حيث قال في شأن جولدر وفاتق أنهما « إنكم
الى جعلناكم ظاهراً له الملة والاستيشاً بما أثأه الله ، والاعتداد بما رأيتم ، وقال له :
إن الجزء المعنون عنا أرشدك الله اليه فجزاك الله عن ابن مولانا خيراً ، وعن درلتنا
وعن المسلمين » ، ظاهراً لهم بعض القبول . (المترجم)

- (١٧) كل ما سبق وارد بالتفصيل في البيان المغرب ، ٢٧٦-٢٧٩ / ٢ ، وترجمته من ٤٣٠-٤٢٥ ، وراجع أيضًا المري : نفع الطيب ٥٩/٢-٦٠ .
- (١٨) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٧٠-٢٨٠ / ٢ ، وترجمته من ٤٢٩-٤٣٠ ، وابن الأبار : الجلة السيراء ، من ١٤١ .
- (١٩) المري : نفع الطيب ، ٦٠/٢ .
- (٢٠) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٧٥-٢٧٦ / ٢ ، وترجمته من ٤٢٩ .
- (٢١) المقصود بذلك المصطفى وابن أبي عامر - (المترجم) .
- (٢٢) المرجع الوحيد في كل ما يتعلق بهذه التحوادث هو ابن عذاري البيان المغرب ، ٢٨١-٢٨٠ / ٢ ، وترجمته من ٤٣٨-٤٣٩ .
- (٢٣) تزيد على ما قاله المؤلف في المتن أن الترجمة استولت على الانطليسيين واستبدلت بهم آنذاك المصطفى وشورفهم ، وأطمانت ذلك نفوس القرم فقد ذالك دولتهم ، ولم يكتفوا بذلك في أحاديثهم وظهر على العناية شعراً لهم حتى ليقول أحدهم
- أنخرج من قصر أمير الهمسدي كل متن، ~~بتبني~~^{بتبيه} سلط حسبياني
لمن رأيشسا - منهوم قال لـ. مسنيسان قبل النساء بالبساتين
عف ظهر المسلط المترافق اذ خلق من ثقليم الظاهر
والقول في ذلك كثير ، والشعر جم ، والفوحة عامة - (المترجم)
- (٢٤) تزيد على ما قاله المؤلف ابن الأبار من أنه « لما انتقض للعيوب على البر ذلك وخيت الاختراب ولم يكن عند الميخافي يعني ولا دفاع ضعن محمد بن أبي عامر لصبيح أم هشام مكون الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لأنينا ، على أن يهد بالمال ويذيل إليه قوانبه » ، انظر الجلة السيراء ، من ١٤٤-١٤٥ .
- (٢٥) يسمى المؤرخون العرب هذه الكلمة باسم حصن الحامة ، وهي من أرض جليقية ، وهذه الكلمة ترجمة حرافية لكلمة Balneario بحسب ما هو مكتوب في : Samperio c. 23. أما اليوم لم تعرف هذه الكلمة باسم : Los Baños ، أما فيما يتعلق بجملة ابن أبي عمر فراجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٨٢/٢ ، وترجمته من ٤٣٩ .
- (٢٦) تؤمن شعره الذي يغنى فيه بنفسه ومحاطاته قوله :
- ربعت ينقى هول كل كريهة
وبدأ صاحبي الا جنسان بشبع
واسمر خسله وايده باشر
أسود تلاقيهما أسود خواره
فين شسيعى التي على كل نظمالية
آهود يمسا لا تقيي العسان
- راجع البيان للتدرير ٧٩٢/٢ ، وابن الأبار الجلة السيراء ، من ٣٥٢ . وقد جاء في هذا المرجع الآخر قوله :

الم ترني بعثت الاقامة بالصبي
تبعدت بعد الزعفران وطيبة
أروني لمن يضم حمای وموافق
انا الصاحب المنصور من آل عاصي
تلاد أمير المؤمنين وعيشه
خلا تصيبوا انى شفقت بغيركم

ولين المشاهيا بالخيول الفسوار
صدا البرع من مستمكبات المسامر
اذا اشتهرت الاصرار بين العساكر
يسقطي اقد الهمام تحت المعابر
وناصحة المشهور يوم المعاشر

(٢٢) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٨١/٢ ، وترجمته من : ٤٣٩-٤٢٧ .
والمقى : ناتنط الطيب ، ٦٠/٢ .

حواشي الفصل الثامن

- (١) ذكر ابن الأبار : *الحطة المسيراء* ، من ١٤٢-١٤٧ ، مجلدة من أشغاله في أعيتها
فتلاته ،
- (٢) ابن الأبار : *نفس المرجع* ، ١٤٢-١٤١ ، وابن عذاري : *البيان المفسر* ،
٢٢١/٢ ، ٢٧١ ، وترجمته من : ٢٩٦ ، ٤٢٠ ، وهناك كثير من المراجع عن المصطفى :
اما اسمه الكامل فابو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر القمي ، ويمكن للقارئ الرجوع الى
ما ذكره الفقيه عنه في بقية المتن ، رقم ٦١٤ ، من ٢٤٠ .
- (٣) المترى : *فتح الطيب* ، ٦٠/٢ .
- (٤) ابن الأبار : *الحطة المسيراء* : من ١٤٢ .
- (٥) المترى : *فتح الطيب* ، ٢/٦٠ .
- (٦) المترى : *نفس المرجع والجزء والمصححة* .
- (٧) شرحه ، من ٦١ .
- (٨) راجع ابن خلكان ، ترجمة دى سلين ، ١٢٠/٢ .
- (٩) لم يعد لهذه التلاعية وجود اليوم ، راجع البيان المقرب ، ٤١٠/٢ ، حاشية
رقم ١ .
- (١٠) لم يشر هوذى الى المصدر الذي ربع اليه ، ولكننا نقلناه من ابن عذاري :
البيان المقرب /٢ ، ٢٨٢ ، ويلاحظ ان المترى : *فتح الطيب* /٢ ، ١١-٦٢ يوجز في هذه التلاعية
ايجازاً شديداً - (المترجم) .
- (١١) راجع ابن الأبار : *الحطة المسيراء* ، من ١٤٢ ، وقارئها بما جاء على ابن
عذاري : *البيان المقرب* ، ٢٨٤/٢ ، وترجمته من : ٤٤٢ .
- (١٢) انظر ابن عذاري : *نفس المرجع والجزء* ، من : ٢١٠ ، وترجمته من : ٤٥١ .
- (١٣) وذلك شريكاً لابن جعفر المصطفى - (المترجم) .
- (١٤) انظر ابن الأبار : *الحطة المسيراء* ، من : ١٤٢ .
- (١٥) لم ينفرد ابن عذاري بهذه يذكر هذا التاريخ بل ذكره ايضاً *النويري* (طبعة
رامبرود جاسبرو) ، من ٢٦٨ .
- (١٦) راجع في كل ما سلف ابن عذاري : *الرجوع السابع* /٢ ، ٢٨٥-٢٨٢ ، وترجمته
من ٤٤٣-٤٤٤ ، والمترى : *فتح الطيب* ، ٦١/٢ ، ٦٢ .

- (١٧) ابن عذاري : شرحه ٢٨٨/٢ ، وترجمته من ٤٤٩-٤٤٨ ، والمترى : نفع الطيب ، ٣٩٥/١.
- (١٨) ابن عذاري : المرجع السابق ، ٢٨٥/٢ ، وترجمته من ٤٤٤ ، والمترى : نفع الطيب ٦٢/٢ ، أما فيما يتعلق بهشام فراجع : Dozy : Recherches, t. II p. 237.
- (١٩) فيما يتعلق بوصف هذا القصر وأحداث هذه الفترة راجع ابن سعيد : المغرب في حل المغرب ٢٠١-٢٠٠/١ (تحقيق دشوقى خسيف) دار المعارف القاهرة ١٩٦٤ - (المترجم) .
- (٢٠) ابن عذاري : البيان المغرب ٢٨٥/٢ ، وترجمته من : ٤٤٤ ، ونفع الطيب ٦٢/٢.
- (٢١) وربت هذه الأبيات في النفع ، من ٧ ، والبيان المغرب ٢٩١/٢ وترجمته من ٤٥٢ ، والحلة السيراء هو ١٤٧ ، ونفع للطيب ١/٢٧٥.
- (٢٢) وربت هذه الأبيات بصورة أطول من هذه في المذكورة لابن بسام ، ق ٤ ، الجلد الأول ، القاهرة ، من ٤١١ .
- (٢٣) وذلك في قوله تعالى : « وَإِذَا جَيَّبْتُم بِحَيَّةٍ تَحْيُوا بِأَحْسَنِ مَلَهَا » أو يدومها ، مسورة للنساء ، آية ٨٦ - (المترجم) .
- (٢٤) البيان المغرب ، ٢٩١ ، ٢٨٦/٢ ، وترجمته من : ٤٤٧-٤٤٥ ، ٤٥٢ ، والمترى : نفع الطيب ٣٧٦-٣٧٥.
- (٢٥) ابن عذاري : نفع المرجع والجزء ، من ٢٨٩ ، وترجمته من ٤٤٠ .
- (٢٦) مما كتبه إلى المنصور بن أبي عامر قوله :
- هينى أنسات فلين العقو والكرم
إذ قاتلى نصوه الانسان والقدم ٠^١
يا خير من مت الآيدي ~~البيـ~~ اما
ترى لشيخ ثوابه عنده التسلم
بالفت في السخط فاصفح صفح مقتدر
ولو تشفع ليك العرب والعجم
على ان ذلك لم يرقق عليه قلب المنصور الذى رد عليه ردا غليظا بمقيدة على الروى
نفسه ختمها بقوله :
- نفع اذا سخطت ليست برافيبة ولو تشفع فيك العرب والعجم
وهذا البيت وغيره مما يوضح ما انطوت عليه نفسه من حقد كريه كان أولى به أن
ينزع نفسه عنه لاسيما وقد بلغ من التفود والقوة والتكتن ما بلغ - (المترجم) .
- (٢٧) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ٢٨٦/٢ ، وترجمته من : ٤٤٥ ، والمترى : نفع الطيب ٣٦١/١ .
- (٢٨) البيان المغرب ، ٢٨٨/٢ ، وترجمته من ٤٤٩ ، وابن الإبار : الحلة السيراء من : ١٤٣ ، والنورى : من ٢١٨ .
- (٢٩) المقصوب بذلك كاتب المنصور بين ابن عامر - (المترجم) .
- (٣٠) البيان المغرب ، ٢٨٩-٢٨٨/٢ ، وترجمته من : ٤٤٠-٤٤٩ .

حواشي الفصل التاسع

- (١) راجع التفيري ، من ٢٦٩ .
- (٢) يقصد بذلك غالباً والد أسماء زوجة المنصور بن أبي عاص - (المترجم)
- (٣) ابن حزم : طبق الجملة ، طبعة يتربوف ، من ٢٥ .
- (٤) نلذ، أخبرينا عن ذكر البيت الذي يلي هذا رغم أن المقرى . فتح الطيب ٣٩٦/١ أورده وذلك لا يناله في المذهب مما ينفي عنه السمع ويكره اللسان النطق به - (المترجم)
- (٥) هو أبو شعر يومب بْن هارون الرمادي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، راجع عنه ابن بشكراو : كتاب الصلة : رقم ١٢٧٦ ، من ١١٣ ، ٦٦٤ ، والمفتري بفتح الملتمن رقم ١٤٥١ ، من ٤٧٨-٤٨١ ، والفتح : المطبع (طبعة القاهرة) ، ١٢٢٥ ، من ٨٢-٧٨ ، وعبد الواحد المراكش : كتاب الموجب (الترجمة) من ١٨ ، حاشية رقم ١ ، والشافعى : يكتبة الدهر (طبعة دمشق ١٢٠٤) ، والمقرى . فتح الطيب ٤٤٠/٢ ، وكذلك في فهرسته .
- (٦) قاتن ما جاء في عبد الواحد المراكش : من ١٧ ، وترجمته من ٢٠ بهمسه . الرمادي الوارد في الحاشية التالية .
- (٧) انظر الشعر الوارد في المأوى فتح الطيب ٤٤٢/٢ - (المترجم) .
- (٨) سورة المائدة ، آية رقم ٥ .
- (٩) راجع ابن الأبار : الحطة السيراء ، من ١٥٥-١٥٤ ، وأبن حزم : طرق للحمة ، من ٤٢-٤١ ، وانظر كذلك المقرى : فتح الطيب ، ٢٨٦/١ .
- (١٠) راجع المراكش : الموجب ، من ١٧ ، وترجمته من : ٢١-٢٠ ، إلا أنه ظهر أن الرمادي قد غفل عنه فيما بعد لانته نجده مذكوراً بين الشعراء الذين صنعوا ابن أبي عاص في حملة التي شنتها على برشلونة سنة ٩٨٦ م ، انظر ابن الخطيب ، الإهاطة (طبعة القاهرة) ٧١/٢ .
- (١١) هو أبو محمد بن عبد الله بن إبراهيم الأموي الأصيلي (نسبة إلى قبيلة أصيلة Arcilla بعرائش) وكان محدثاً بارزاً وفقها معروفاً ، ومات سنة ٢٩٢ ، وراجع المفتري بفتح الملتمن رقم ٩٦ ، من ٣٧٧-٣٧٨ ، وأبن الترثي : تازين علام الأئم ، رقم ٧٥٨ ، من ٢٩٢-٢٩٣ .

- (١٦) هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرطمة بن نكوان ثغر قضاة الجماعة بقرطبة في عهد الدولة الأموية ، وقد ولد سنة ٢٤٢ هـ ، هذا وقد وردت الاشارة اليه في ابن بشكوال : كتاب الصلة (نقل عن ابن حيان). رقم ٦٣ ، من ٢٠٨-٢٠٩ - (المترجم) .
- (١٧) هو أبو بكر بن الحسن البزيدي النحوي الأندلسي الشهير ، مات في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة ، راجع الضيبي بقية المتن ، رقم ٨٠ ، من ٥٧-٥٦ ، وأiben الفرضي : تاريخ علماء الأنجلوس ، رقم ١٢٥٥ ، من ٣٨٣ ، وأiben خلكان : وفيات الأعيان ، ٨٣/٢ ، والقطع : المطبع ، من ٦٢-٦١ ، راجع أيضاً الترجمة الفرنسية للبيان المغرب ٤٨٨/٢ ، حاشية رقم ٢ - (المترجم) .
- (١٨) راجع صناع الطيطلي : كتاب طبقات الهم (طبعة شيفو) . من ١٧-١٧ ، وأiben عذاري : البيان المغرب ، ٣٥٧/٢ ، وترجمته من ٤٨٧-٤٨٨ ، والمقرى : نفع الطيب ١٣٦/١ .
- (١٩) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٣٥٢/٢ ، وترجمته من ٤٨٧ ، وقد نشر ذلك بالأسطر الثلاثة الأخيرة الواردة في المكتبة العربية المسقانية (جمع أماري) .
Amari : Biblioteca Arabo-Sicula , p. 874.
- (٢٠) انظر على سبيل المثال ابن الإبار : الحلقة العينية ، من ٤٥١-٤٥٢ .
- (٢١) راجع المقرى : نفع الطيب ٢٦٦/١ .
- (٢٢) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٣٠٩/٢-٣١٠-٣١٠ ، وترجمته من ٤٨٠ ، والمقرى : شرحه ، نفس الجزء والصفحة .
- (٢٣) المقرى : نفس الرجع ٥١/٢ .
- (٢٤) ابن عذاري : البيان المغرب ٢٧٠/٢ ، وترجمته من ٤١٩ .
- (٢٥) فكان ذلك في سنة ٣٦٨ كما ذكر الحميري : صلة جزيرة الأندلس ، من ٨١ .
- (٢٦) فيما يتعلق بالازفة ، راجع ابن عذاري : البيان المغرب ٢٩٥-٢٩٤/٢ ، وترجمته من ٤٥٨-٤٥٧ ، والمقرى : نفع الطيب ، ٣٨٠/٢ ، ومقال ليلي بروفسال في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « مدينة الظاهرة » .
- (٢٧) راجع البيان المغرب ، ٢٩٨-٢٩٩/٢ ، وترجمته من ٤٥٩-٤٥٨ .
- (٢٨) البيان المغرب ، ٢٩٦-٢٩٧/٢ ، وترجمته من ٤٥٩-٤٥٨ .
- (٢٩) Dozy : Recherches , t. I , p. 81-83.
- (٣٠) انظر ابن حوقل : المسالك والممالك ، من ٧٨ .
- (٣١) راجع ابن خلدون : العبر ٥٥٦/٢ ، ٢٢٧/٢ .
- (٣٢) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٤٠/١ ، ٢٣٧/٢ .
- (٣٣) فيما يتعلق ببلجين وأسرته راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٥٨/٢ ، ٢٥٨ وما بعدها ، وترجمته من ٤٦٣ وما يليها ، وأiben خلدون : العبر (الترجمة) ٥٥٢/٢ وما بعدها .
- (٣٤) راجع ابن عذاري : نفس المرجع والجزء من ٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٠ ، وترجمته من ٤٤٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٩٠ .

- (٢١) راجع المcri : نفس المرجع من ٢٧٣ ، السطر الأول .
- (٢٢) المcri : نفس المرجع ٢٧٢/٣ .
- (٢٣) المcri : نفس المرجع والجزء والمصلحة ، وانظر ايضا Dozy : Recherche , t. I, append, p. xxx.
- (٢٤) المcri : شرحه ، ١٨٦/١ .
- (٢٥) ابن الأبار : الحلقة العصيراء ، من ١٠٢ .
- (٢٦) راجع المcri : نفح الطيب ٦٤/٢ ، وابن عذاري : البيان المقرب ، ٢٩٩/٢ ، وترجمته من : ٤٦٤ ، وابن حزم : طرق الحمامنة ، من ١١ ، وراجع ايضا ابن الأبار في : Dozy : Recherches, t. I, append, p. xxx.
- اما فيما يتعلق بالتاريخ فراجع نفس المرجع ، ١٧٦/١ ، وكذلك : Codera : Boletin de la Roy. Acad. de Historia, t. XXXII, p. 101.
- (٢٧) الثابت انه مات يوم ٤ من المحرم سنة ٣٧١ م .
- (٢٨) هذه الكلمة تعريب لكلمت Pierre Sécha واما اسمه الكامل فهو أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أبيه بن الحكم الريضي ، اما تعلق بالبطرشك فالرجح ان ذلك نسبة الى بخله ، وان قال ابن الأبار « البطرشك » سمعناه الحجر الياس ، انظر ايضا : Dozy : Recherche; t. I, p. 173-181.
- (٢٩) ويعرف باسم « شانجة بن غرسية » او « شانجة ابارة » ، Sancho Abarca - (الترجم) .
- (٣٠) وتلخ « روطة » هذه Rueda او « روحة » ، في مقاطعة بلد الوليد .
- Cl. Chronic. du Moine de Silos, c. 71 ; Dozy : op. cit., 1. (٣١) p. 180-181.
- (٣٢) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٩٩/٢-٢٠٠ ، وترجمته من : ٤٦٥ .
- (٣٣) راجع المcri : نفح الطيب ٢٥٨/١ .
- (٣٤) العبر لابن خلدون ١٥٢/٢ ، ٥٥٨ ، ٢١٦/٣ .
- (٣٥) انظر ابن عذاري : البيان المغرب : ٢٠١-٢٠٠/٢ ، وترجمته من : ٤٦٦-٤٦٧ .
- وراجع ايضا المcri : نفح الطيب ، ٢٦١/١ .

حواشي الفصل العاشر

- (١) راجع ابن خلدون في الطبعة الثالثة من :
Dozy : Recherches, t. II, pp. 99 et 174.
- (٢) Sampiero : Chroni. c. 29; Chronicon Iriense, c. 12.
- (٣) Dozy : op. cit., I, 179-180.
- (٤) Dozy : op. cit., I, p. 99.
- (٥) Dozy : op. cit., I, p. 180.
- (٦) Dozy : op. cit., t. I, p. 99.
- (٧) Chronicon Irien e, c. 12، وابن خلدون في دوزي ، المراجع السابق . ١٠٠/١
- (٨) ابن خلدون في دوزي ، المرجع السابق ، ١١٥-١٤١/١
- (٩) يوم الثلاثاء ، الثنتي عشرة ليلة خلت لدى الجمعة سنة ٢٧٤ وهو الخامس من مایه ، راجع ابن أبي القیاض فی ابن البار : الحلة السیراء ، من ٢٩٣ ، وکان يوم ٥ مایو من سنة ٩٨٥ مطابق يوم الثلاثاء .
- (١٠) يذكر ابن الخطيب في مقاله عن المنصور في الاحاطة (طبعة القاهرة ، ٧٢ ، ٧٢ ، ٧١) قائمة بأسماء هؤلاء الشغفاء الذين اصطحبهم المنصور معه - (المترجم) .
- (١١) أخذ بنو الخطاب منذ زعم ابن البار - أعني في القرن الثالث عشر الميلادي - يزعمون أنهم عرب ، غير أن أسلفهم من أهل القرن العاشر لم يفكروا أبداً في الالتباس إلى هذا الأصل .
- (١٢) يقول ابن أبي القیاض ، إن ذلك كان ليلة - ثلاثة وعشرين يوماً ، غير أننا اتبعنا ما ذكره ابن حيان .
- (١٣) راجع ابن البار : الحلة السیراء ، من ٢٥٢-٢٥١ .
- (١٤) ابن الخطيب : الاحاطة ، ٧١/٢ .
- (١٥) سقطت برشلونة - كما جاء في ابن الخطيب : الاحاطة ، ٧١/٢ ، يوم الاثنين متتصف صفر سنة ٢٧٥ ، وهو يوافق يوم ٦ يوليو ١٩٨٥م ، ولا تقع الوثائق العربية مجال للشك في تحديد صحة سقوط برشلونة ، وهي تتلاق تماماً مع الوثائق اللاتينية التي أوردها العالم « بوفارول » الذي يذهب إلى أن سقوطها جاء بعد سنة من ذلك التاريخ ، ولم يلاحظ بوفارول أن رأيه ينافي الوثيقة التي اعتمد عليها ، كما أن عبارة Kalendarum Julii feria quarta لسنة ١٩٨٥ ، وليس للسنة التالية له .

(١٧) راجع ابن الأبار : الحلقة السيراء ، من ٢٥١ ، كما أن المنصور قام بعده حملات ضد كونت قشتالة وملك نثارة ، وهي حملات لا توجد لدينا التفاصيل الكافية عنها .

(١٨) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٤٨/٢ ، وترجمته من ٣٥٠ ، كما ذكرى عدم اتفاق كل من ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، من ٣٤٣، p. 394 *Annales* وابن خلدون : العبر ٢٥٩/٢ ، ١٢/٢

(١٩) راجع ما جاء عنه في هذا الجزء من للترجمة العربية . - (المترجم) *

(٢٠) يقصد المؤلف بذلك العزيز باه نزار بن العز الدين أش - (المترجم) *

(٢١) يلاحظ أن المؤرخين الذين يقولون بأن المنصور أتم أيضاً إلى أفريقية جيشاً بقيادة ابنته عبد الملك المظفر إنما يخاطرون بين هذه الحملة وبين حملة أخرى بقيادة زوجها منوكه تتلخص فيما يليه ، ذلك أنه في الوقت الذي تمنى بم Siddiqه لم يكن عبد الملك يتتجاهنـ الثانية عشرة من عمره ، راجع التوربي Histoire d'Espagne, p. 281. أما اسم عصابة الحقيق فهو عبد الله بنه جعفر .

(٢٢) فيما يتعلق بهذه الجواهـش راجع ابن أبي زرع : بيوض القرطاجين ، من ٥٩٨ . وأبا شـخـدون : العبر ١٥٢/٢ ، ٢١٩/٣٠ ، ٢٧٣ ، وابن عذاري . البيان المغرب : ٤٢/٢ ، وترجمته من ٤٦٧ ، وأبن الأبار : الحلقة السيراء ، من ١٥٦ .

(٢٣) هذه برقـة واضحة تقدـ شـهـدـ المـجاـيـيـوـنـ بـأـنـ الـمـنـصـورـ كـانـ رـجـلاـ شـهـيدـ الـسـتـقـامـةـ .

(٢٤) وردت هذه الآيات يأكلها في ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٠٢-٢٠٣ ، وترجمته من ٤٦٨ ، وأبن الأبار : الحلقة السيراء ، من ١١٦ ، والمربي : نفع الطيب ، ٢٩١/١ .

(٢٥) راجع المـقـرـىـ ، شـرـحـهـ ١/٣٦٠-٣٥٩ ، وابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٠٧/٢ ، وترجمته ، من ٤٧٧ وما يـعـدـهـ .

(٢٦) راجع ابن خلدون ، في Dozy : Recherches, I, p. 100.

Chronicon Conimbricense (Esp. Sagrada, t. XXIII) pls. I et IV. (٢٧)

(٢٨) انظر وثيقة الـأـبـ فـلـورـاـ في : Espagna Sagrada, t. XXXVI, no. 14, on, VII, p. 228.

وكتـلـكـ ماـ أـورـدـهـ رـيـسـكـيـ في Histoire de Leon, t. I, p. 228. Dozy : Recherches, t. I, p. 100. (٢٩).

(٣٠) هذه التفصـلاتـ وـأـنـدـهـ فيـ Lucas de Tuy ، إنـماـ فـيـ ماـ يـعـدـهـ Dozy : Recherches, t. I, pp. 181-184. هذا القـائدـ وـاسـمهـ فـرـاجـ .

= وانظر كذلك القمة التي أوردها ابن الأثير في : الكامل ٩/٤٢ وترجمته في : Annales, p. 393

(٢٣) انظر الوثائق اللاتينية الإفريقية في : Risso : Historia de Leon, p. 228 : Espagna Sagrada, t. XXXIV p. 308.

(٢٤) راجع ابن خلدون في : Dozy : Op. Cit., p. 100.

(٢٥) Dozy : op. cit., t. I, p. 224 et suiv.

(٢٦) يقصد المؤلف بالوسط هنا ما يعرف بالحضررة ، وبالشمال الثغر - (المترجم) .

(٢٧) Annales Complutenses (Esp. Sagr.), XXIII, p. 311. (٢٨) كما : التاريخ

الواحد في Annales Toledo, 383. وهو تاريخ مخطوط .

(٢٩) في كل ما يتعلق بهذه الاحداث وما يتليها راجع على الامتنان ابن عذاري في : البيان المغرب، ٢/٣٠٣-٣٠٦... وترجمته من : ٤٧٥-٤٧٧، وينكل ابن البار في الجهة المغاربة .

(٣٠) Dozy : op. cit., (1 ere. ed.) t. I, p. 24-27.

(٣١) راجع عبد الواحد الراكيش : المعجمة : من ٤٥٢-٤٥٤ ، وتترجمته من ٢٠ ، وأبا الفداء : ٥٣٤/٢ ، والقرى نفح الطيب ٥٧/٢ ، والضبي : بغية الملتمس ، من ٣١ ، وابن الأثير : الكامل : ٧٩/٩ ، وتترجمته : Dozy, Recherches t. I, p. 106. أما فيما يتعلق بمعرفة فراجع ابن خلدون في :

وانتظر أيضا في كل ذلك ما أورنته المصادر التالية :

Chronicon Burgense (Espagna Sagrada, t. XXIII, p. 309); Annales Complut., p. 313; Annales Compost., p. 320, Ann., Toledo, p. 384.

اما الحوليات المسماة "Januarii" فيجب أن تقرأ كلمة Junii بدلا من "Januarii" Kal.

(٣٢) المتأخر اواخر الذي يقصد المؤلف هو عبد الله البطرشك - (المترجم) .

(٣٣) راجع الوثيقة رقم ٩٩٠ الواردة في مجموعة : Esp. Sagrada, t. XIX, p. 382.

(٣٤) راجع ابن خلدون في الطبعة الثالثة من Dozy, Recherches, t. I, p. 100, note 3.

Ibid., p. 101. (٣٥)

Ibid., p. 102, note, 1. (٣٦)

(٣٧) ابن البار : الحلقة العصيراء ، من ١١٢ .

(٣٨) راجع ابن البار فيما نقله دوزي عنه في الطبعة الأولى من كتابه : Recherches, t. I, p. 280.

Ibid., t. I, p. 280. (٣٩)

(٤٠) ونضيف الى ما ذكره المؤلف في المتن اعلاه ما وجده البطرشك هذا وهو في جسمه الى المنصور من شعر نقيس منه القصيدة التالية التي تصور شدة تعصمه بالحياة :

مع الله لا يعجم سبزه في الأرض مارب
سوى حسن المؤت الذي انا راهب
ن ولكن انما الله لابد فـ ~~فـ~~
روبيت هن ريبة نيه كـ ادب
يتركك منه واجبـا لك واجبـ
ويجزيك منه فوق ما انت طالب
على قدرها قدر الذي انت وامبـ
ولا بد دون المـ ~~المـ~~ عـلـك راغبـ
ويعـتـ عمـوم الـبيـث منـسـك المـراهـبـ
~~لـلـلـلـلـ~~ من حاجـبـ الله حاجـبـ
يسـيرـ بهـسا فيـ الأرضـ ماـشـ وـرـاكـبـ
قـيمـتـ عنـ الشـطـبـ والـدهـرـ غـائـبـ
(التـهمـ)

(٤٨) الحلة العبراء . مس ١١٣-١١٤ : Dozy : op. cit. t. I, p. 279.

حواشي الفصل العاشر عشر

- (١) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٦٥/٢ ، وترجمته من : ٤٨٩ .
- (٢) راجع ابن أبي زرع : روض القرطاس ، من ٧٢ .
- (٣) راجع ابن عذاري ، نفس المرجع والجزء ، من ٣٦٦ ، وترجمته من ٤٩١ .
- (٤) المقري : نفح الطيب ، ٢٨٩/١ .
- (٥) المقري : نفس المرجع والجزء ، من ٣٩٣ .
- (٦) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٤١/٢ (طبعة ليفي برونسال ، باريس ١٩٣٠) والتوكيد ، من ٢١٩ .
- (٧) ابن خلدون : العبر ، ٤١/٢ ، وابن أبي زرع : روض القرطاس ، من ٦٥ .
- (٨) راجع المقري : نفح الطيب ٦٤/٢ ، وابن عذاري : البيان المغرب ، ٣٦٢/١ ، وترجمته من : ٢٧٢-٢٧١ . وابن خلدون : العبر ، تاريخ البربر ، ٢٤٣/٢ ، وترجمته من ٢٤٣ ، وابن أبي زرع : روض القرطاس : من ٦٦٥ وابن الأبار في الطبعة الأولى من : Dozy : Recherches, t. I, p. 285.
- (٩) انظر الآيات الأخيرة من مرثية ابن دراج القسطلي لصيغ في الشعاليين يتقبّل الدهر / ٤٣٨/١ .
- (١٠) راجع ابن أبي زرع وابن خلدون فيما سبق .
- (١١) ورد في تعليق بالترجمة الإنجليزية بناء على ما جاء في : F. Myrich : The Church in Spain, (1892), p. 237. أنه جاء في رواية أخرى أن البياض ليوم الأول هو أول من أذاع هذا النبأ - (المترجم) .
- (١٢) في الترجمة الإنجليزية « التونسي الثاني » والمصحح هو الوارد بالملن . - (المترجم) .
- (١٣) انظر ما جاء في Florey : Esp. Sagr., t. iii and xxix. تكره ابن عذاري : البيان المغرب ، ٣٦٦-٣٦٧/٢ ، وترجمته ، من ٣٩١ ، ٣٩٢ .
- (١٤) فيما يتعلق بشئت ياقوب راجع المؤلفين العرب للذين ذكرهم ليفي برونسال في دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة « شانت ياقوب » .
- (١٥) جاء في المرجع الذي اعتمدنا عليه وهو ابن عذاري « مدينة غاليسية أى عاصمتها » ، وكلمة « غاليسية » هنا قاصرة جداً فهي تعنى الولاية البرتغالية التي تسمى اليوم « بيرة » وكثيراً ما كانت هذه الولاية مملكة عاصمتها « بازور » انظر في ذلك : Dozy : Recherches, t. I, p. 150.

(١٦) يشير ابن عذاري في البيان المغرب ٢١٧/٢ ، ٢١٧ ، وترجمته من ٤٩٢ إلى إقليم في هذه الولاية يسمى « فلدارش » Valadares وقد ورد اسم هذا الأقليم أيضاً في الوثيقة Esp. Sagrada, t. XXII, p. 275.

(١٧) فيما يتعلق بالأخبار السابقة راجع ابن عذاري : البيان المغرب ٢١٧-٢١٦/٢ ، ٢١٧ وترجمته من ٤٩٢-٤٩١ .

(١٨) يستناد من وثيقة برميدو ، الثاني المطبوعة في : Espagna Sagrada, t. XIX, p. 381. أن هذا الفرج واقع على شاطئ نهر منور .

(١٩) راجع ابن حيان في ابن عذاري : شرحه ٣١٢/٢ ، ٣١٢ ، وترجمته من ٤٨٢-٤٨٣ ، والمترى : نفع الطيب ٢٦٨/١ ، ويظهر أن ابن عذاري أضاف من عنده عبارة « إلى باب الذهراة » .

(٢٠) وهي « ملية » عند ابن عذاري

(٢١) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ٢١٨/٢ ، ٢١٩-٢١٨ ، وترجمته من ٤٩٢-٤٩٣ .
وكل ما ينطأ عنه عن هذه العملية تماماً هو وايد في Historia Comps. (Esp.-Sagr.) t. XX, L.I, c. 2881.
إنهما هو صحيح ، أما ما يزعمه هذا المؤرخ من أن Rodrigo Valesquez قد أصبح من خلفاء النصرور فهو خطأ لأنه حاتم قبل ذلك الوقت بستة عشر عاماً انتهى في ذلك Espagna Sagrada, t. XIX, p. 166-169.

أما فيما يتعلق بالعلاقات الواردة في الجواهير اللاتينية عامة فيمكن مراجعة Dozy. Recherches, I, I; p. 199

(٢٢) راجع ابن خلدون في :

(٢٣) راجع المترى : نفع الطيب ١٤٦/٢ ، ١٤٦ ، وكذلك : Rodrige de Tolede : De Relvis Hispanieis L. V. c. 16 ; Lucas du Tuy Chronicon mundi.

(٢٤) راجع ابن أبي زرع : روض القحطاني ، من ٦٦-٦٧ ، وابن خلدون : العبر ، تاريخ البربر ٢٤٤/٢ ، ٢٤٨ .

حواشي الفصل الثاني عشر

(١) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢١٠/٢ ، وترجمته من : ٤٨١-٤٨٣
وأبن الخطيب الاحاطة ، عن ٧٣ ، والراكنى للعجب من ٢٧-٢٨ ، وترجمته من ٢٦ .

(٢) وتقع فى القليم ربة على بعد تبعة فراسخ من ناجرة .

(٣) راجع المترى : نفح الطيب ، ٦٥/٢ ، وأبن الإبار : الجلة السيراء بر ص ١٥ ،
وأبن الخطيب ، الاحاطة ، ٦٧-٦٨ . وأبن يسام ، في النجيرة ، عبد الواحد الراكنى .
المعجب من ٢٦ ، وترجمته من ٢٦ ، ويلاحظ أن المرجع الأخير يجعل وفقاً لـ المنصور بن
آبي عامر في سنة ٣٩٣ م .

(٤) ابن الخطيب : الأجلطة من ٧٣ ، والمقرى : نفح الطيب ، ٢٥٩/١
Chron. Borgense (Esp. Sagr., t. XXII), p. 309
(٥) Charle de 1027 : Llorente : Noticias de los tres Provincias
Vascongadas (Madrid 1896), t. III, p. 355.
Chron. du Moine de Silos (Esp. Sagr., t. XVII), c. 72.

(٦) انظر المقرى : نفح للطيب ، ٣٩٢/١ ، وقارقه بما جاء في
Rodrigue de Tolède : Histor. Arabum, c. 31.

(٧) المترى : نفس المرجع والجزء ، من ٣٩٢

(٨) شرحه ٢٧٤/١ .

(٩) المقرى : نفس المرجع والجزء والصفحة .

(١٠) Dozy : Recherches, t. II, p. 237, note-3.
هذا هي القراءة الصحيحة لاسمها ، اذ قرأه
ـ سنبسيـ بضم الباءين وسكون النون وضم الباء الموحدة ، وقد
ذكره الضبي في كتابه بغية الملائكة من ٤٢٣-٤٢٢ ، باسم قاسم بن محمد الغرسى
الشانسى - (المترجم) .

(١١) هو أبو عمرو أحمد بن عبد الملك بن هشام الاشبيلي المعروف بأبن المكتوى ،
راجع عنه ابن بشكوال : كتاب الصلة رقم ٢٢ ، من ٣٤-٣٢ ، والحميدى (مخطوط
اسفورد) ورقة رقم ٥٦ ب ٥٧ ، والمقرى نفح الطيب : ١١٧/٢ ، وتنظيف إلى
ما ذكره دوزى ما ترجمته به أبن بشكوال في كتابه الصلة حيث قال «أنه كان حافظاً للفقه
عندما فيه على جميع أهل عصره ، عارفاً بالقرى مثل مذهب مالك ولا ينادى
السلطان ولا يميل منه بهراه ، وكان القريب والبعيد غنته في الحق سواء ، ودعى إلى
الفضاء بقرطبة .. توقي ليلة السبت لصلاة العصر لسبعين خلون من جمادى الأولى سنة
٤٠١ ، وكانت جنازته عظيمة شهدها ولضيق حاجب مشام بن الحكم ، وكان مولد ابن =

الذكرى سنة ٢٤٤ ، وسمع أبو محمد بن الشفاق القمي يقول على قبره يوم نفته : رحمة الله يا أبا عمرو فضحت الملقا بقرة حنطة في حياته ولتضحيتهم بعد مماتك ، اشهد أنني ما رأيت أحدا حفظ السنة كحفظك ولا علم من وجدهما كعلمك » - (المترجم) *

(١٤) كان هذا القاضي يعرف بأبن السريع الذي سيشير إليه المؤلف ذكرى بعد قليل في المتن - (المترجم) :

(١٥) Dozy , op. cit. t. II p. 237-240. وهذه العبارة التي قالها المنصور واردة في سراج الملوك لأبن أبي رندكة الطرطوش *

(١٦) هو صاعد بن الحسن الربيع البغدادي ، وقد من المشرق إلى الاندلس ثم مثام ، ثم غادرها ومات بصفية سنة ٤١٧ هـ (= ١٠٣٦ م) ، راجع عنه ابن يشكوال : الصلة ، رقم ٣٦ ، من ٢٢٥-٢٣٧ ، والضبي : بقية المتن ، رقم ٣٣ ، من ٢٠٦-٢١١ ، وأبن خلجان : وفيات الأعيان ، ٦٢٢/١ ، وعبد الواحد المراكشي : العجب ، من ٥١٩ ، وترجمته من : ٢٢ ، وما بعدها ، والمقرى : نفح الطيب : ٥٢/٢ ، وما بعدها ، بكل ذلك التهريست *

(١٧) هناك قصة أخرى غير التي أوردها ذكرى في المتن أعلاه لا ترى باسماً من أزدادها هنا أيضًا وتأكيداً لما ذكره المؤلف ، وهي التي تذكرها عبد الواحد المراكشي في كتابه العجب ، من : ٢١-٢٠ ، إذ روى أن أبا العلاء يقع هذا الكتاب - حين كل - في حلم يحصله بين بيته وغير النهر : نهر قربة ، فخانت الغلام قتنه فنزل نسق في النهر هو والكتاب فقال ابن العريف :

لقد غاص البصر كتاب المصون
لضحك المنصور والخلفيون فلم يدع ذلك صاعداً وقال من قوله مرتجلاً
عاد إلى مسكنه ، أنساً توجد في قعر البحار « المصون »

وقد وردت الاشارة إلى كتاب المصون أيضاً في كشف الظنون ، ولقد ثبت أن هذا الكتاب الذي أجمع الأباء والذرخون على فقده لا يزال موجوداً ، فقد نظر السيد هاشم الندوى في كتابه « تذكره النواير من المخطوطات العربية » من ١٢٩-١٢٥ ، المطبوع في حيسن آيد للذكرين بالهند سنة ١٧٧٠ هـ ، وجود نسخة ثانية من هذا الكتاب في مكتبة جامع التروين بناس ، وذلك نقلًا عما جاء في مجلة « معارف » التي تنشرها دار المستشرقين ببلدة أعظم كده ، ومع ذلك فإن الأستاذ ليلى بروفسور لم يشر في طبعته الفرنسية للكتاب الذي ترجمة إلى هذه المسألة الهامة . (المترجم) *

(١٨) توجد في هذا الموضوع قصة تختلف ما أورده المؤلف ذكرى في المتن ، وقد نذكرها المراكشي في العجب ، من ٢٠ ، إذ قال أن أبا العلاء هذا يدخل فيما على المنصور بن أبا عمار في مجلسه أنسه ، وقد تقدم أنه اتخذ قييساً له من رقاع الخراطة التي كانت تصل إليه فيها الأموال منه ، فليس به تحت ثيابه ، فلما خلى المجلس ووجد قرصمه له أراد التجربة ، وبقي في القيسين المتقد من الخراطة ، فقال له المنصور « يا هذا يا أبا العلاء ، نقلال » هذه الخراطة التي وصلت إلى فيها ميلات مولانا اتخذنا شعاراً ، فاعجب المصون ذلك ، وقال : « لك عندي مزيد » - (المترجم) *

(١٩) أبا عمار : البيان المقرب ، ٢٠٩/٢ ، وترجمته من ٤٧٩ .

- (٢٤) المقرى : نفح الطيب ، ٧٤/١
- (٢٥) المقرى : نفن المرجع والجزء والمصفحة
- (٢٦) ابن الخطيب ، الاماطة (مخطوط جاينجوس) ، برقة ١١٨ ب
- (٢٧) المقرى : شرحه ، من ٧٧
- (٢٨) راجع ابن عذاري : البيان المقرب ٤١٠/٢ ، وترجمته من ٤٨١
- (٢٩) المقرى : نفح الطيب ، ٤٠٦/١ - ٤٠٧
- (٣٠) اورد هاتين القصتين ابن عذاري : البيان المقرب ٢١١-٢١٠/٢ ، وترجمته من ٤٨٢-٤٨١

حواشي الفصل الثالث عشر

(١) راجع النويرى ، ص ٢٢١

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، من ١٥٩ ، وابن حيان : الذخيرة ، ورقة ١٣٠ ب ، وابن عذارى : البيان المغرب ٢٧/٣ ، وما بعدها ، وقد أورده كل واحد من هؤلاء المؤرخين قصة هذه المؤامرة بالتفصيل .

(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء ، من ١٤٩ ، ولنقضان الوثائق يلاحظ القارئ ان المؤلف انتقل سريعا الى عهد المظفر ، على أن المعجب ، من ٢٧ ، يقول ان أيامه كانت اعيادا في الخصب والتمام والامن ودامست سبع سنين الى أن مات - (المترجم) .

(٤) كانت هذه الامeras الأربع هي التي لها الصداره بين اشراف البلاط ، راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٩٠/٢ ، وترجمته من ٢٥١ .

(٥) يتدرج تحت لفظ « الصقالبة » نصارى شمال اسبانيا الذين كانوا يعلمون في الجيش الاسلامي . انظر ابن الخطيب ، مادة « جباستة » (مخطوط جيانجوس) ورقة ١٢٤ ب .

(٦) الشخصى : قضاء قرطبة ، من ١٧٦-١٧٥ .

(٧) راجع ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، ٢ ، ورقة ٨٠ ب ، ١٤٦ اسب ، من مخطوط لين ، وراجع بشأن هذه الطائفة كتاب أزيز بلاشيوس : Aben Mesarra y su escuela.

(٨) فيما يتعلق بهذه الأفكار راجع :

Gobinean : Trois ans en Asie, p. 347.

حيث يصفها بأنها أفكار منتبة خالصة ، وانظر ايضا ترجمة دى سلين لقمة ابن خلدون ، ج ٢ ، من ٢-٢ ، وحاشية رقم ٣ .

(٩) ابن حزم : الملك والنحل ، ورقة ١-٢٢٨ ب .

(١٠) راجع المجرى نفع الطيب ، ٢٨٧/١ ، والحسيرى : الروض المنطار (مادة : الزهراء) ، وراجع على الشخصون ابن عذارى : البيان المغرب ، ٦٥-٦٤/٣ .

Dozy : Recherches, 3eme ed., t. I, p. 184-192.

(١١) أما اليوم فيسمى « شانجيلا » الا انه في العصر الذى نحن يمسنه كانوا يقولون « شانجول » ، انظر : Dozy : op. cit. t. I. p. 188. راجع ايضا ابن عذارى البيان المغرب ، ٢٨/٣ ، وينكر ذلك المؤلف ان أم عبد الرحمن كانت تسمى « عبدة بنت شانجة » التصرينى ، ويمكن التأكيد من عدم ثقة المؤلف بصحة نسبة حيث يشير في صفحة ٤٢ من النص الى أنها كانت نباتية « بشكتسيه » .

(١٢) راجع النويرى ، ص ٢٢٩ لاصيما البيان ٦٨/٣ نقلًا عن ابن عون اه والرقىق .

(١٤) راجع ابن الأثير : الكامل (طبعة نورمبرج) ٤٩/٨ ، *Annales*, 384-5
 وانظر أيضاً ما ورد في : *Annales Toledano* , II, 403. ولم يكن هذا
 الأصلوب من التصعيم بالناشر ، وينظر البكري . *Description de l'Afrique* , p. 121).
 (طبعة دى مليرن) مثلاً آخر على ذلك ، ويشير ابن عذاري إلى أن المظفر مات مسموماً
 بتبيير أخيه على يد أحدى نساء المهرةين

(١٥) ابن الأبار : الحلة السيراء ، من ١٥٠

(١٦) أورد ابن بسام في المختبر ج ١ ورقة ٢٤ ب ، نص هذا العهد (طبعة
 كلية الآداب ، جامعة القاهرة) وج ١ ، ق ١ ، من ٨٤-٨٦) ، راجع ابن عذاري :
 البيان المغرب ، من ٤٤-٤٦ ، والنميري : من ٢٢١-٢٢٣ ، وأبن خلدون : العبر (طبعة
 جولاق) ١٤٨/٤ ، ١٤٩-١٥٠ ، والمقرى نفع الطيب / ٢٧٧-٢٧٨

ونسوق في هذه الترجمة العربية نص ذلك العهد ليتعرف القارئ على ما جاء به
 دوزي ، وهذا النص تقلنه عن المختبر ، قالت : « هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام
 المؤيد باش - أطال الله بقاءه - إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة وأعطي
 به صفة يمينه : بيعة تامة بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخاراة ، وأهمه ما جعل الله
 له من إمام المسلمين ، وعصب من أمره وانتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف
 تزول القضاء بما لا يصرف ، وخشى - أن هجوم محظوظ تلك عليه وتزل به مقدوره ، ولم
 يرقع لهذه الأمة علاماً ثالثاً إليه ، ولم يوجها ملجاً تتغطى عليه أن يكون يلقاء الله
 تعالى مطرداً فيها ، ساميها عن آداء الحق إليها ، ونظر عند ذلك طبقات الرجال من أحياه
 قريش وغيرها من يتحقق أن يستند الأمر إليه ، ويتحول في القيام به عليه ، من
 يستوجهه بيته وأمانته وهديه ورعيه ، بعد اطراح الهوانة والتبرق من الهوى ، والتحرى
 للحق والتزلف إلى الله بما يرضيه ، وإن قطع الأواصر وأسخط الآقارب ، غالباً إن
 لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، موتنا لا وسيلة إليه أذكر من الدين الخالص ،
 فلم يجد أحد أجر أن يقلده عهده ، ويفوض إليه أمر الخلافة من بعده ، في فضل نفسه ،
 وكم خيمه وشرف مركيه ، وعلى منصبه ، مع تقواه وعفاته ، وعمرقه وشرافه ،
 وحزمه وثباته ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة
 أبي المطر عبد الرحمن بن المتصور بن أبي عامر وفقه الله وأمير المؤمنين
 - أيده الله - بما يطالع من مكتون العلم ما وعاه من مخزون الأثر ، أهل أن يكون ولـي عهده
 القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص بتحقيق ما أستدنه أبو هريرة إلى
 النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق
 الناس بعصمه ، « فلما استوت له به الأخبار ، وتقابلت عنه فيه الآثار ، ولم يوجد
 عنه مذهب ، ولا إلى غيره معدلاً ، خرج إليه عن تبيير الأمور في حياته ، وفوض إليه
 التأثر في أمر الخلافة بعد وفاته » - (المترجم) .

(١٧) راجع ابن الأبار : الحلة السيراء ، من ١٥٠ ، وانظر *Recherches* , t. I, p. 189.

(١٨) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٦٥/٣ ، والمقرى : نفع الطيب ، ٢٨٨/١

(١٩) ابن عذاري : نفس المرجع والجزء ، من ٤٨ .

(٢٠) فيما يتعلق بهؤلاء القراء ، راجع :

Sandoval : Cinco Reyes, fol. 62 et suiv.

(٢١) أبي على المهدى بهاء - (المترجم) *

(٢٢) هذا هو لقب شانجل الشريفي الذى اتخذه لنفسه أيام حكمه ، أما ابن عذارى : البيان المغرب ، ٧٣/٣ فيسبقه « باللابن » .

(٢٣) لمى كل ما يتعلق بهذه الحوادث راجع ما أورده التورى عن هذا فى :
Histoire d'Espagne, pp. 227-230.
المرى : نفع الطيب ، ٢٧٨/١ ، ٢٧٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ٧٤٩/٣
حيث يسمى هذا الرجل الآخرين فى مقدمة خير الحوادث الذى صحبته مقدم ابن عبد العبار
 وخاتمة شانجل .

حواشي الفصل الرابع عشر

- (١) سماء نوزي . في الأصل الفرنسي باسم *Le Bulveur* أما المراجع العربية فتعمّل بهذا اللقب الذي أثبتناه في المتن - (المترجم) .
- (٢) كان اسم الوزير الذي يشير إليه نوزي هو : الحسن بن حي - (المترجم)
- (٣) تكلم ابن حزم عرضاً في كتابه طوق الحمام ، من ١٧٦ ، عن ثورة هشام الذي يقمع بالرشيد.
- (٤) أي مبادعه سليمان بن أخي هشام - (المترجم) .
- (٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، من ٣٣٥-٣٣٤ .
- (٦) ورد اسمه « وادي أره » في الإحاطة لابن الخطيب ، ٢٩/٢ .
- (٧) أوربطة التخيرة ١/٢٠ ، سطر ١٥ ، و من ٢١ ، س ١٣ باسم « قنتيش » - (المترجم) .
- (٨) يوجد هذا العدد في أقدم وأصدق مؤرخ وهو ابن حيان (راجع التخيرة لابن حسام ١ ، ورقة ٨ ب) ، وينكر آخرون أنهم كانوا عشرين ألفا ، ويقول غيرهم بل كانوا مائة وثلاثين ألفا .
- (٩) أي أنه ركض إلى الثغر - (المترجم) .
- (١٠) كان ذلك يوم الأحد ١٤ ربیع الأول سنة ٤٠٠ هـ - (المترجم) .
- (١١) هذا هو اليوم الوارد في المراجع العربية ، لكن يستدل من جدول التوفيقيات الالهامية ، من ٢٠٠ ، أن يوم ٢٢ ربیع الأول كان الأحد ١٢ نوفمبر - (المترجم) .
- (١٢) انظر الابريسي *Descript. de Afrique* , p. 213. أما هذه المحلة فتعرف اليوم باسم : *Castille de Bacher*
- (١٣) هذا ما جاء في النص الفرنسي ، والأرجح أن يكون التصوف الثاني من بيته ١٠١٠ ، لأن أول ذي القعدة (وهو الجمعة) كان يعادله يوم ١٦ يونيو ، راجع جدول السنين في التوفيقيات الالهامية ، من ٢٠٠ - (المترجم) .
- (١٤) أورد هذا التاريخ الابريسي في تاريخه ، كما ذكر نوزي أنه وارد أيضاً في وثيقة لاتينية مطبوعة في مجموعة *Espagna Sagrada* , t. XLIII , p. 156.
- أما التاريخ الذي نكرناه ووضعناه بين قوسين والذي لم يذكره المؤلف في الأصل الفرنسي فقد أثبتناه بعد مراجعة جدول السنين في التوفيقيات الالهامية . من ٢٠٠ - (المترجم) .

(١٥) في «أمواج البحر» كما يقول التوبيري، ونعرف أن الماء يأخذ في المد حتى يصل إلى الموضع الذي جرت فيه المعركة.

(١٦) كل حوادث الراية في هذا الفصل مذكورة في تصصيل كبير في ابن عذاري : البيان المقرب ، ج ٢ ، من ١٠٠-٧٤ ، والتوبيري ، من ٢٢٩-٢٣١ ، وأبن خلدون : العبر ، ١٥١-١٥٠/٤ ، وأبن حيان في النخيرة ، لأبن بسام ، جزء ١ ، ورقة ٧ ب ، ٩٨ - ب ، ويبدو أن ابن بسام اختصر الموضوع اختصاراً شديداً ، وانظر أيضاً غيد الواحد المراكش : الموجب ، من ٢٨-٢٧ ، وترجمته من ٢٣-٢٤ ، وأبن الأبار : الحلة السيراء ، من ١٦٠-١٥٩ ، وأبن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٥٠٠-٥٠٠/٨ ومقتبسات منه مترجمة بعنوان : *Annales*, pp. 386-389 والمقرى : نفع الطيب : *Rodrigue de Toledé : Hist. Arab.*, c. 35-38. ، وانظر أيضاً : ٣٧٨/١

اما فيما يتعلق بالتاريخ فيمكن للقارئ مراجعة المقال الوارد في الطبعة الأولى من كتاب : Recherches, t. I, p. 238 et suiv. واما فيما يتعلق بتقريبة ، اتوا ، أسف ، جيرونا ، فالمعنى :

Espagna Sagrada, t. XLIII, p. 187 et suiv.

جواши الفصل الخلفي عشر

- (١) فيما يتعلق بهذه الأخبار والواردة هنا فيما يهدى انظر ابن حيان في النخيرة ١
ورقة ٨ ب ، وأين عذاري : البيان المغرب ٢/١٠٠ وما يعدها ، وبالنويوري : Annales , p. 408-411 .
وأين الآثير : الكامل ٩/٥٢-١٥٤ ، وابن الأثير أيضا : Rodrigue de Tolède, c. 38, 30.
- Annales Compestellani (Esp. Sagr., t. XXIII) ; Chron de Cerdanya (Ibid.) . (٢)
- (٣) المترى : نفع الطيب ١/٢٥٠
- Rodrigue to Tolède, c. 38. (٤)
- أبن حزم : طرق الحمامات ، من ١٠٦ .
- Rodrigue de Tolède, c. 38. (٥)
- (٦) أبن عذاري : البيان المغرب ٣/١١٢ ، وأين الخطيب : الاحاطة (مخطوط
جيانيجوس) ورقة ١٢٤
- (٧) راجع أبن حزم : طرق الجمامات ، من ٤١ ، وأين بشكولل : كتاب المصلة ،
من ٢١١ ، رقم ٤٧٠ ، وينظر الآخر أن اسمه هو أبو عثمان سعيد ، وكان أبوه المترى
أبن سعيد قاضي قرطبة السابق مات يوم الاثنين ٦ شوال ٤٠٢ هـ (٢٠ ابريل ١٠١٢ م) .
- أبن حزم : طرق الحمامات ، من ٩٨-٩٧ . (٨)
- (٩) أبن يسأم : النخيرة ١/ورقة ١١١ ب (= المجلد الثاني من القسم الأول ، من طبعة
كلية الآداب جامعة القاهرة ، ص ١٢٠) ، والمترى : نفع الطيب ١/٥٤٦ ، أما فيما
يتعلق بأبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر المريقي فقد تناوله بالبحث ولكن
ترجمته محمد بن شبب في دائرة المعارف الإسلامية ، كما طبع كونزا بمدريد سنة
١٨٩١ كتابه المعنى تاريخ علماء الأندلس في المجلد الثاني من المكتبة العربية
الاسيوية .
- (١٠) وذلك أنه كان زائر لكة المكرمة فدخل الكعبة وتطرق بmastارها وسائل الله
للشهادة فاستجاب له ، رحمه الله - (الترجم) .
- أبن حزم : طرق الحمامات ، من ١٠٤ . (١١)
- راجع ابن الأبار : الحلقة العصيراء ، من ١٦٤ . (١٢)
- (١٣) راجع ابن يسأم : النخيرة ، ورقة ١ ب وما يعدها ، وأين عذاري : البيان
المغرب ، ٢/١١٤-١١٥ ، والراكني الموجب ، من ٢٨ وترجمته من ٢٤-٢٣ ، وأين
حزم : طرق الحمامات ، من ١٠٤ .

حواشى الفصل السادس عشر

- (١) ابن سهام : *النخيرة* ، ١/١٦ - ب .

(٢) المقري : *فتح الطيب* ١/٢٨٠ - .

(٣) ابن يساه *النخيرة* ، ج ٢ ، ورقة ١٥ - .

(٤) نفس المرجع والجزء والورقة - .

(٥) Dozy : *Abbad* , t. I, p. 222.

(٦) المقري : *فتح الطيب* ١/١٠٢ - .

(٧) ابن عذاري : *البيان المغرب* ، ١٢٠/٢ - .

(٨) المتضود بذلك لائق مولى الحكم المستنصر - (المترجم) .

(٩) Dozy : *Abbad* , t. I, p. 214.

(١٠) قاتن ابن خلدون *العبر* ٨/٧ ، ٦١ بينما جاء في ابن حيان : *النخيرة* ، ورقة ١٢٢ ، وأبن عذاري : *البيان المغرب* ٣/٢٦٨ - .

(١١) هذه التفصيل الهمة واردة في ابن حيان وأبن عذاري وأبن الشير ، أما أبو العدا ٢٨٣/٣ فقد نقل عن هذا المؤرخ الأخير .

(١٢) Dozy : *Abbad* , t. I, p. 222.

(١٣) راجع ابن حزم في :

Dozy : Catalogue des Manuscrits Arabes de Lyde , t. I, 225.

(١٤) راجع المقري ٢١٥/١ ، كما توجد نفس الانفاظ في ابن حيان

(١٥) فيما يتعلق بالتاريخ العربي الذي لم يذكره المؤلف في اللسان الفرنسي فقد رجعنا في تحقيقه إلى التوفيقات الالهامية ، من ٢٠٤ ، حيث جاء فيها أن أول شوال كان الأحد ٢ مارس ١٠١٧ - (المترجم) .

Dozy : op. cit., loc. cit.

(١٦) أورد دوزي في الأصل الفرنسي - هذا الخبر بصيغة القافية لكننا لم ننشر على هذه المchorة فرضينا ما بين القوسين من المراجع العربية وهو أقرب ما يمكن إلى بريده المؤلف - (المترجم) .

(١٧) يستفاد من جدول الشترين في التوفيقات الالهامية ، من ٢٠٤ ، أن أول ذي القعده كان يوم الجمعة ٢١ مارس ١٠١٨ ، وأول ذي الحجه ٤٠٨ هو الأحد الشتاين من جويل ، وعلى هذا يكون هذا الاستعراض تم يوم الجمعة ٢٧ ذي القعده .

(١٨) يستفاد من جدول الشترين في التوفيقات الالهامية ، من ٤ ، أن أول ذي القعده كان يوم الجمعة ٢١ مارس ١٠١٨ ، وأول ذي الحجه ٤٠٨ هو الأحد الشتاين من جويل ، يستدل مما ورد في الكتب العربية التي تشير إليه أنهم كانوا ثلاثة أخوة =

= اثنان هما المذكوران بالملتن اما الثالث فاسمها البريس وكان حاكم مالقة . - (المترجم) .

(٢٠) سورة الكافرون ، ٦١/١٠٩ .

(٢١) قرآن كريم ، سورة التكاثر ، آية ٨١ .

(٢٢) راجع ابن حيان ، ورقة ١٢٨ ، والراكنش : المعجب ، من ٥٤-٥٠ ، ونفع الطيب ٣١٦/١ .

(٢٣) التاريخ الهجري الوارد في نسخة ابن بسام (طبعة كلية الأداب ، جامعة القاهرة) من ١٢ ، حاشية رقم ١١ من المجلد الثاني للقسم الأول ، هو ١٨ وبيع الآخر سنة ٤١٢ ، أما ما وضعاه بين الحاضرين فقد رجعنا فيه إلى جدول سنة ٤١٢ في التوفيقات الألهامية . - (المترجم) .

(٢٤) رجعنا في التاريخ العربي إلى التوفيقات الألهامية ، جدول سنة ٤١٤ هـ - (المترجم) .

(٢٥) يعتقد المؤلف أن خير ما يمكن الرجوع إليه هو رواية أحد شهود العيان التي نقلها المقري في نفع الطيب والتي ترجح ما ورد في المعجب لعبد الواحد الراكنش من ٣٧ وترجمته من ٤٤-٤٥ .

حواشى الفصل السابع عشر

- (١) راجع ابن الأبار : الحلقة المسيرة ، من ١٦٥-١٦٦ ، وقد استعمل مخطوط ابن بسام : التخيرة ج ١ ، ورقة ١١ - ب فى تصحيح بعض أخطاء النص (وهذا يعادل من ٤٠-٤١ من التخيرة ، طبعة كلية الآداب جامعة القاهرة) .
- (٢) راجع المجرى : نفع الطيب ، ٢٨٥/١ ، ويلاحظ أن هذه الآيات تختلف عن الآيات الواردة فى ابن بسام : التخيرة ، ورقة ١١ ب ، ١١٢ .
- أما فيما يتعلق بابن حزم فراجع ما كتبه عنه فان أرندونك فى الدائرة ، وكذلك الجزء الأول من سلسلة الدراسات التى كان يصدرها الاستاذ ميخائيل أزين بلاشيوس عن : *Abenhaizem de Cordoba y su historia critica de los ideas religiosos.*
- Dozy : Catalogue des Manuscrits arabes de la bibliothèque de ... (٣)
Leyde, t. I, p. 227.
- (٤) ابن حزم : الفصل ، ٢٢٧/٢ .
- (٥) ابن حزم ، نفس المرجع والجزء والصفحة .
- Dozy : Catalogue ... , t. I, p. 225, 230. (٦)
- (٧) طوق الحمامنة لابن حزم (طبعة بيروت) من ١٠٢ - ١٠٥ .
- (٨) يوافق ذلك يوم ٢١ يونيو سنة ١٠١٢ - (المترجم) .
- (٩) يوافق ذلك يوم ١٣ يوليو سنة ١٠١٢ م ، راجع التوفيقات الالهامية ، من ٢٠٢ - (المترجم) .
- (١٠) يعادل ذلك شهر فبراير ١٠١٩ م - (المترجم)
- (١١) ابن حزم : طوق الحمامنة ، من ١٠٥-١٠٢ .

حواشى الفصل الثامن عشر

- (١) « الدائرة » لفظ استعمله ابن بسام فى التذكرة نقلًا عن ابن حيان ويقصد به « الحراس » .
- (٢) متقد المذينة الذى يشير إليه المؤلف هو أحمد بن بسيل - (المترجم) .
- (٣) يستفاد من جدول السندين فى التوفيقيات الالهامية سنة ٤١٤ ، أن يوم ١٨ يناير ١٠٢٤ هذا كان يعادل يوم السبت ٤ ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ - (المترجم) .
- (٤) كان هذا المخنق هو الذى عرفناه من قبل باسم محمد العراقي - (المترجم) .
- (٥) ابن بسام : التذكرة ، ج ١ ، ورقة ٨٢ ب .
- (٦) ويعادله شهر ربيع الأول من سنة ٤١٦ هـ ، راجع التوفيقيات الالهامية ، جدول السندين من ٢٠٨ - (المترجم) .
- (٧) يقصد بذلك يحيى بن حمود - (المترجم) .
- (٨) وتعرف هذه القرية بقرية « أقليع » بفتح الهمزة وسكون القاف وكسر اللام بعدها بااء مثناة تحتانية ، وأخرها حاء مهملة - (المترجم) .
- (٩) فيما يتعلق بهذه الحوارات راجع ابن حيان فى التذكرة لابن بسام جزء ١ ، ورقة ٩ ب ١١١ ، ١١٤ - ١١٥ - لا سيما ابن عذاري : البيان المغرب ١٤٢-١٢٥/٢ ، والكامل لابن الاشیر ١٩٣/٩-١٩٤ ، Annales du Maghreb et d'Espagne , 428-430. ، وعبد الواحد المراكشي : العجب من ٤٠-٢٨ ، وترجمته من ٤٦-٤٩ ، والمقرى : فتح الطيب Rodriguez de Toledo, c. 44. ، ٣٢٠-٣١٩/١
- (١٠) صاحب هذا الرأى هو الحميدى الذى نقل عنه بقية المؤرخين المسلمين .
- (١١) اسم هذا القائد المغربي الذى لم يذكره دوزى هو أبو جعفر احمد بن موسى - (المترجم) .
- (١٢) تشير التوفيقيات الالهامية ، من ٢٠٨ إلى ٤١٦ أن رمضان سنة ٤١٦ يطابق الفترة الممتدة من يوم ٢٦ أكتوبر ١٠٣٥ حتى ٢٢ نوفمبر ، ومن ثم يمكن أن تكون هذه الأحداث جرت فى رمضان أو شوال سنة ٤١٦ هـ - (المترجم) .
- (١٣) يعادل ربيع الأول سنة ٤١٧ هـ - (المترجم) .
- (١٤) يعادله يوم الاثنين ٢٢ جمادى الأولى سنة ٤١٧ ، راجع فى تحقيق ذلك تاريخ التوفيقيات الالهامية من ٢٠٩ - (المترجم) .

- (١٥) يعادله شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ هـ - (المترجم) .
- (١٦) وفي قول آخر « المعتمد » .
- (١٧) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، من ٤١٤٠ ، وترجمته من ٤٩٠ .
- (١٨) يعادله بالتاريخ العربي يوم الخميس ٨ ذي الحجة سنة ٤٢٠ ، انظر التوفيقات الالهامية ، من ٢١٠ - المترجم .
- (١٩) يعادل جمادى الثانية سنة ٤٦٢ هـ - (المترجم) .
- (٢٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٩٩/٩ ، وانظر ترجمته لدوزي بعنوان : *Annales du Maghreb et d'Espagne* , p. 435-436.
- (٢١) انظر ابن بسلم : النخبيرة ج ١١٥٧/١ .
- (٢٢) ابن الأثير : الكامل ١٩٩/٩ .
- Annales du Magreb*, p. 436.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٢	مقدمة الجزء الثاني
٥	الفصل الأول
٢١	الفصل الثاني
٤٣	المواجهة بين الناصر ومراكز القوى المسيحية
٣٥	الفصل الثالث
٣٧	ظهور فرناند كونثالث
٤٩	الفصل الرابع
٥١	شانجة وموت الناصر
٥٩	الفصل الخامس
٦١	خلافة الحكم من عبد الرحمن
٦٩	الفصل السادس
٧١	المنصور بن أبي عامر
٨٣	الفصل السابع
٨٥	أحداث استخلاف هشام بن الحكم
٩٣	الفصل الثامن
٩٥	تضارب ثقافة المصحفى وابن أبي عامر
١٠٥	الفصل التاسع
١٠٧	ابن أبي عامر صاحب الأمر في الحكومة

الفصل العاشر	١١٩
الأمور تلتازم في وجه المنصور	١٢١
الفصل الحادى عشر	١٣١
المنصور في نزوة قوته	١٣٢
الفصل الثانى عشر	١٤٣
خاتمة المنصور	١٤٥
الفصل الثالث عشر	١٥٥
اضطراب الارضاع	١٥٧
الفصل الرابع عشر	١٦٧
المهدي والبرير وهشام بن الحكم	١٦٩
الفصل الخامس عشر	١٧٩
الاندلس بين الصقالية والبرير	١٨١
الفصل السادس عشر	١٨٧
المنازعات والخصومات الدموية حول الحكم	١٨٩
الفصل السابع عشر	٢٠١
واحة المؤرخ	٢٠٢
الفصل الثامن عشر	٢١١
اضطراب الأمور الداخلية	٢١٣
حواشي الكتاب	٢٢٥
حواشي الفصل الأول	٢٢٧
حواشي الفصل الثاني	٢٣١
حواشي الفصل الثالث	٢٣٦

٢٤٠	حواشي الفصل الرابع
٢٤٣	حواشي الفصل الخامس
٢٤٦	حواشي الفصل السادس
٢٤٩	حواشي الفصل السابع
٢٥٢	حواشي الفصل الثامن
٢٥٤	حواشي الفصل التاسع
٢٥٧	حواشي الفصل العاشر
٢٦١	حواشي الفصل الحادى عشر
٢٦٢	حواشي الفصل الثانى عشر
٢٦٦	حواشي الفصل الثالث عشر
٢٦٩	حواشي الفصل الرابع عشر
٢٧١	حواشي الفصل الخامس عشر
٢٧٢	حواشي الفصل السادس عشر
٢٧٤	حواشي الفصل السابع عشر
٢٧٥	حواشي الفصل الثامن عشر



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٤/٤٧٠٦

— ISBN — ٩٧٧ — ٠١ — ٣٧٩٦ — ٠

هذا هو الجزء الثاني من الترجمة العربية من تاريخ الإسلام والمسلمين في الأندلس للمستشرق الهولندي «رينهرت دوزي»، يتضمن أحداث فترة انتقال هامة في مسيرة الحضارة والإسلام هناك، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عديد من اللغات الأوربية، وكانت أمنية القارئ العربي أن يطلع عليه في لغة الضاد حتى نهض بذلك أستاذ جليل ومؤرخ حجة في تاريخ الإسلام والعصور الوسطى هو الدكتور حسن حبشي فترجمه كله ترجمة اتسمت بالدقة وإشراق الأسلوب وصحة التعليقات.

ويسر هيئة الكتاب أن تقدم هذه الترجمة العربية لطلاب التاريخ بعامة، والأنجليزي ب خاصة كإضافة جديدة في مجال الدراسات التاريخية الصحيحة، ومساهمة منها في حركة التنوير.

تصميم الغلاف:
هلياء أبو شادع